

من بعيد

الجمعة ٩ يونيو :

لم اتعود للأسف أن أدون لنفسى مذكرات شخصية ، فاذا ما حاولت استعادة ما مر بى من أحداث اختلطت على أحيانا بعض تفاصيل ، فاعجز عن أن أحدد مواقعهـــا من حيث زمان ومكان ٠

فمتى ترامى الى مثـــلا أول ما ترامى ذلك الخبر عن قبولنا واحـــــدا من قرارات مجلس الأمن المتلاحقة بوقف اطلاق النار ؟ أهو مساء الخميس قبل مغادرتى لبيونس آيرس أم صباح الجمعة عقب وصولى الى مدينة المكسيك ؟

نقطة تحول حاسـمة بالنسـبة للمعركة وعواقبهـا ، فكيف بذاكرتى تتعثر فتعجز عن أن تحدد متى وأين وصلنى النبأ ؟

ويدفعنى الى التساؤل ما كان منى حـــين قابلت ممثلى الصحافة المكسيكية اثر هبوطى من الطائرة صباح الجمعة التاسع من يونيو ، كيف أن تتوه ذاكرتى عن الملابســـات المحيطة بذاك النبأ الخطير ، بينمــــا هى حاضرة الوعى ازاء تفاصيل مقابلة عابرة تبودلت خلالهـــا كلمات مازحة تافهة مع نفر من رجال الصحافة ؟

لست أدرى والله ! لست أعلم الا أن الأمر الأول صدمنى الى ذهول وقد تالبت على الأحداث من قبل فاصبحت أعانى من اضطراب للمشاعر عنيف ، تمور بى الى كل اتجاه ، ترتفع بى آنا لتحط بى حطا بعد حين ، فاصابنى تبلد وفتور فاعياء ، وانفصلت أو يكاد عن المعالم الحسية من حولى ، كأنمـا طفاوة من غثـاء على صفحة الزمان الجارى فاذا ما صكتنى من بعد أحداث جديدة انطبعت لهـــا فى ذهنى آثار ليس الى محوها سبيل ، الا أن الذاكرة رغم ذلك غافلة عما أحاط بها من محسوسات زمان ومكان ٠

ثم ان الانطباعات ليست مجرد آثار تتركها الأحداث فى حينهـا وتفوت ، انما هى عملية لاشعورية مستمرة متصلة ، يعمل فيها العقل الباطن على طمس معـالم الألم ومواطن الأسى حرصا على سـوية النفس وحفاظا عليهـا من اضطراب ٠

أما من ادفع الى ممازحة رجال الصحافة فى تلك الأيام السود فهو لعمرى أمر ناشز ، كأنما نتأة نابية ، لا سبيل الى تناسيها مهما أعمل فيها اللاشعور تسوية وتسطيحا ٠

وأن يجد المرء نفسـه فى حضرة الصحافة لكفيل وحده بأن ينخس الذهن الى تنبه ، فلا يزل اللسان هناك أو هكذا بسواقط كلام ، وأن الجأ الى ممازحتهم فان افتعال المرح لخير قناع يتستر به المرء اذا ما ســعى الى تصنع الهدوء ٠

تفسيرات أسوقهـا فأقنع بهـا نفسى قبـل غيرى ، ولكن هل لى حاجة الى ذلك ؟ فاعتقادى الراسخ انى كنت أجهل ، حين أحاط بى رجال الصحافة المكسيكية اثر هبوطى من الطائرة ، نبأ رضوخنا لقرار وقف اطلاق النار ٠

انما الذى دفعنى الى التشكك هو مراجعتى لبعض التحقيقات الصحفية فاستعين بها على استجماع اشـتات ذاكرتى فاذا بى أقع على ما مؤداه أننا اعلنا فى مجلس الأمن قبول قرار وقف اطلاق النار فى ساعة مبكرة من مساء الخميس بتوقيت نيويورك ، فالنبـأ اذن قـد أذيع فى بيونس آيرس قبل مغادرتى اياها ، ولكنى لا أذكر عن ذلك شـيئا ، وأحـاول جاهدا استعادة تفاصيل تلك الساعات الأخيرة

حسين ذو الفقار صبري

التى أمضيتها هنـاك ، ولـكن لا شىء ! متى وأين قد صـدمنى اذن ذاك النبأ ؟ أهو فى المكسيك ؟

وكيف ثم لماذا فى المكسيك ؟ فقد مسحت ذاكرتى مسحا فاذا بالسـاعات التى اعقبت وصولى اليها صباح الجمعة التاسع من يونيو، خلو هى الأخرى ، فلا روابط بين ذاك النبأ وبين ملابسات من زمان ومكان .

اعيانى البحث والسـعى فلم اقع الا على تفسير واحد منطقى مقبول ، فاتنى الخبر فى بيونس آيرس اذ كان علينا أن نغادر المدينة قبل اقلاع الطائرة بساعات ثلاث أو يزيد ، فالمطار بعيد والطريق الى مخارج المدينة مزدحم بالمرور يتكاثف بل يعترم اذا ما ولى النهار ، فهى من تلك المدن التى تصطخب فيها الحياة وتضطرم ، وقد أقبل الليل فتلألأ بوهج من اضواء وجذا من غرائز يطلق لها العنان ، أما المطار الذى اطرحت أرضه ومبانيه بعيدا فبقعة منعزلة تقفر حينذاك من حياة أو يكاد ، الا من أولئك النفر المنـوط بهـم الاشراف على اجراءات سفر بضع من طائرات ، يتجهضونها فيفرغون مسرعين الى أضواء المدينة حيث الحياة .

لم يفتهم رغم ذلك أن يفتحوا لى ذلك الباب المؤدى الى غرفة انتظار صغيرة انيقة مخصصة لكبار الشخصيات كما يقولون ، لا يخلو منها أى من المطـارات الدوليـة الكبرى ، ولكنى اتحاشاها واتهـرب منها حيثمـا تكون ، اذ يفرض على فيها التقيد بالجلوس ــ هكذا يكون الوقار كمـا يتوسـمه الجميع عنـد كبـار الشخصيات ــ ومن حـولى المودعون ، عليهم مجاملتى فيمـلأوا وقت الانتظار مهمـا طال بالحديث الممل المعاد ، وانها لأشياء أضيق بها كل الضيق ، خاصة اذا كنت مقبلا على رحلة طويلة ، فانا فى أشد الحاجة الى التريض جيئة وذهابا حيثما الحركة وحيث عامة المسافرين .

ولكنى كنت واهن الهمة فرضخت مستسلما لما تفرضه تلك المظاهر التى يراد بها التكريم ودخلت الى الغرفة فجلست ومن حولى سفراء الدول العربية الممثلة فى الارجنتين، ومندوب من ادارة المراسم بوزارة الخارجية ، وأتململ وقد انساب الى شعور مبهم من عدم ارتياح ، ثم قشعريرة رغم أنى لم اخلع عنى معطفى ، ثم اكتشفنا أن أجهزة التكييف تنفث الينا هواء باردا ، لم يكن قد اعيد ضبطها لمواجهة شهور الشتاء ، ومفاتيحها مركزية قد ثبتت فى مرفق اغلقت أبوابه فلا سبيل اليه الا فى صباح اليوم التالى .

وكانت حجتى ، فخطوت الى الخارج ونظرت فاذا بالحوانيت المنبثة فى الأروقة قد صفقت بألواح كأنما التوابيت ، ولكنى كنت أسعى الى حيث تباع الصحف والمجلات ، صحيح أن مطابع بيونس آيرس لم تدر فى يومنا هذا ـ فهو « عيد النقـابة » قاتلهم الله ! ــ ولكنى كنت آمل فى أن أقع على صحيفة من صحف الاورجواى ، فعاصمتها منتفيديو على مسـافة ساعة أو اقل ، فربما وجدت احدى صحفهم المسائية فأقف على آخر أنباء القتال ، على أنباء ذلك الانتصار الحاسم الذى سـوف نحـرزه ولا شك فى معركة بير جفجافة ــ بيرجفجافة ، اسم استحوذ على مشـاعرى جميعا فيتراقص أمام عين الخيال بحروف من نار ونور .

واهتديت الى زاوية من أرفف مصـفوفة ولكنها أيضا قد صفقت بالواح ، «مسمكرة» بالضبة والمفتاح ، فاتحسر اذ يبين لى من خلال تفاريجهـا أنهـا زاخـرة بالصحف والكتب والمجلات ، وقفلت عنها آسفا ، ولم أعلم أن الله أراد بى رفقا ، فلو أنى وقعت حينذاك على ذلك الخبر المفجع فلست أدرى والله ماكان يتردى اليه حالى فى ليلتى هذه ، مكبلا فى مقعد لا أبرحه خـلال رحلتى الى المكسيك ، سبع ساعات أو يزيد !

فاتنى الخبر اذن فى بيونس آيرس ، ذاك هو التفسير الوحيد، ولكنى علمت به ولاجدال عقب وصولى الى المكسيك ، ليس فى المطار ، اذ لم يترك لى رجال الصحافة فرصة الانفراد

بعبد الرحمن حسن القائم باعمال سفارتنا . فهل تراه أخبرني به حين اقلتنا السيارة الى الفندق ؟ ربما ولكنى لا أقطع بذلك فذاكرتى خلو من حيث أين ومتى علمت بالأمر ·

كنت متعبا بل منهكا بعد رحلة الليل الطويلة ، وربما أن غفوت فلم نتبادل من الحديث الا أقلة ، لم نتناول على الارجح سوى موضوع مقابلتى لوزير خارجية المكسيك فى الخامسة من مساء اليوم نفسه ، من حيث معلومات سريعة عن شخصية هذا الوزير وميوله ، ولا اعتقد أن حديثنا ذاك القصير قد تطرق الى غير ذلك ·

« ربما » ، « على الارجح » ، « لا اعتقد» ، غريب والله عجزى هنا الواضح عن القطع والجزم ، وانما اضطراب فى الذاكرة ، أهو فيما يتعلق بكل ما مت بصلة الى رضوخنا لقرار وقف اطلاق النار ؟ أم تراه قد لف جميع ما مر بى أو خبرته صباح ذلك اليوم بالذات ، الجمعة التاسع من يونية ؟ هذا اذا استثنينا تلك المقابلة مع نفر من رجال الصحافة ، تفردت فنشزت وحدها عن مسار الاحداث ·

ثم انى كنت مجهدا — تبا للانسان ما أضعفه ! اذ تعتسره أحيانا حوائج من صغائر فليس لى من هم الا الوصول سريعا الى الفندق · فاغتسل وأصيب بعض راحة ، ثم ان أفتح حقائبى فاستبدل ثيابى الشتوية الثقيلة بأخرى تناسب جو المكسيك ، فقد انتقلت الى النصف الشمالى من الكرة الارضية ، حيث صيف ، وان كان لا يتقد أبدا الى قيظ ، فالمكسيك العاصمة تقع على هضبة تعلو سطح البحر زهاء ٢٥٠٠ متر ·

ثم ان عبد الرحمن حسن توهم ولا شك انى علمت بالنبأ قبل مغادرتى لبيونس آيرس فلم يجد سببا لمفاتحتى به ، أما عن عواقبه واحتمالات الموقف من بعده ، ثم تأثير ذلك كله على موقف المكسيك من المنطقة ، فانى اعتقد أنه ارجأ الخوض فيه الى أن الحق به فى مبنى السفارة خلال ساعة أو ساعتين كما اتفقنا ·

وليس فى الامر غرابة بعد كل ، فسواء علمت بالنبأ حين اقلتنا السيارة الى الفندق ، أم بعد ذلك اذ جلست الى عبد الرحمن حسن فى مكتبه بالسفارة ، فقد كان حريا بذاكرتى أن تتوه عن ملابساته ، بل أن تمحى عنها محوا ، فقد دهمنا بعد ذلك بقليل ، فى هذا اليوم الثالث من شهر يونيو ، يوم الجمعة التاسع منه ، نبأ آخر طغى على كل ماعداه ، نزل علينا نزول الصاعقة ، ثم كان له فى انحاء العالم دوى وأى دوى ·

***

صفير حاد انطلق من محركات الطائرة النفاثة ، وهى بعد ملجمة على رأس المدرج الرئيسى لمطار بيونس آيريس ، فتضطرب وتهتز عنيفا حتى لتكاد أن تتخلع متناثرة الى اشتات ، ويدفع بها فجأة الى أمام اذ يطلقها الطيار من عقالها ، وتتضاعف سرعتها وهى تطوى الأرض طيا ، بينما يجش صفير محركاتها الى زحير كأنما الهيعة تغذيها أنفاس لا ينقطع لها معين ، وتنزع الطائرة الى حالق تقتحم الاجواء بل تلتهمها التهاما ، وان هى الا دقائق حتى تستوى الى الارتفاع المحدد لها فتسكن محركاتها الى زفير هادىء رتيب ، كم من مرة أخلدت اليه فى اسفار سابقة ، استعين به على تعب أو كلال فاغيب طلبا للراحة وتعويضا لنشاط أنا أحوج ما اكون اليه استعدادا لمراحل تالية من اسفارى ، فهى فى جملتها طويلة شاملة لعديد من بلاد ·

واطفئت الانوار فقد جاوزنا منتصف الليل ، وأصخت الى ذلك الزفير الرتيب تنفثه المحركات ، استجلابا للنوم ، ولكنه أبى الا ان يحاورنى ويراوغنى ، ومضت بضع ساعة فتململت ثم يئست واستسلمت الى ليل سوف يمطه السهاد طولا وعرضا ·

ولكنى لم اكد افعل حتى غبت ، فقد داورنى النوم متمنعا حين سعيت اليه ، فلما انصرفت عن طلبه دهمنى ، ولم اصح الا مع تباشير الصباح ، فتطالعنى من خلال النافذة ، وكأنما لصديق قديم ، ملامح تلك الهضبة ، مترامية الاكتاف جنوبى المكسيك العاصمة ، فقد حلقت عبرها من قبل ، مرتين عام ١٩٦٠ قادما اليها من سلفادور ، ثم مغادرا اياها الى اكوادور ، ثم مرة عام ١٩٦٤ حتى غادرتها الى بيرو وكنت قد وصلت عامئذ الى المكسيك عن طريق الشمال قادما من سان فرنسيسكو ،

هضبة صلبة غليظة وعرة ، قد نقرت صفحتها هنا وهناك ، هى على الارجح فوهات براكين خامدة تهايلت أجنابها فكأنما قيعان ضحلة طبعت معالمها قصاع ضخمة ، تذكرنى ببعض ما ينشر من صور لصفحة القمر ، لولا أنها هنا داكنة بل كالحة اللون ، ولكنى أسكن لمرآها ، ألانها تثير فى نفسى بعض ذكريات ؟ كلا ! بل مشاعر مبهمة من روابط شدتنى دائما الى المكسيك ولا أدرى لها كنها ، وكأنما ابتعاث لخوالج من سالف حياة فى غابر من زمان ..

***

ما أن نفذت الى مبنى المطار حتى أحاط بى رهط من رجال الصحافة متدافعين من حولى ، فوجئت بهم وكأنما انشقت عنهم الارض ، ولا مهرب الى خارج فالاجراءات لم تتم بعد ، نفر من اعضاء سفارتنا توفر مع عبد الحميد اسماعيل على الاسراع بها ومعهم جواز سفرى وشهاداتى الصحية ، ثم عليهم انتظار تفريغ الطائرة فتجاز حقائبنا جمركيا، ولم تكن وزارة الخارجية المكسيكية قد اوفدت مندوبا عنها لاستقبالى ـ فالساعة مبكرة، هكذا قلت لنفسى معزيا اياها عن الحقيقة المرة فالزيارة رسمية اذ تحدد لى ميعاد مقابلة مع وزير الخارجية ، فأن لا يوفد احد رجال المراسم لاستقبالى فهى « جليطة » على اقل تقدير ، ولكنى أرى بعين نازعة عن الهوى أننا لو كنا مكانهم لما فضلناهم : « ونروح له المطار على أيه ... ؟ بلا دوشة ! »

فقد رسمت لنا الدعايات المسعورة صورة مشوهة مآلها الى اثارة شماتة العدو بل وزراية كثير من بلاد توسمنا فيها صداقة فاذا بها مداهنات حسد موتور ، صورنا دولة تدك الارض مرحا فتكاد أن تخرقها بينما انفها فى السماء ، صورنا دولة تملأ الدنيا ضجيجا وعجيجا وتتيه بنفسها عجبا فلا يعنيها لو تسببت فى اندلاع حرب نووية ضروس ، ثم صورنا آخر الامر دولة انما من تجاويف طبل قد هتكت عنها الاستار فجأة ، فلا غرو ان تعترم فى النفوس تجاهنا مشاعر متراكبة من شماتة وزراية ثم سخط ، أشد ما يكون أوارا عند اولاء الذين بذلوا لنا بعض اهتمام أو عناية ، ليس عن اعتداد بمنجزات ثورتنا أو تطلع لمثلها ، وانما عن ملق ومداراة .

ليست مسألة استقبال رسمى فانى أضيق بتلك المراسم ، ولكن غاية مناى فى هذه اللحظة لو انهم أوفدوا الى من يزوغ بى الى غرفة الانتظار المخصصة للمبعوثين الرسميين فتوصد علينا أبوابها ، مكان أعافه فأسعى الى التهرب منه ، ولكنه فى هذه اللحظة ملاذى الوحيد الامين من رجال الصحافة وقد تجمعوا من حولى يستطلعون قسمات وجهى عسى أن تنبئهم خلجاته بما يعتمل فى صدرى من مشاعر .

حاولت أن أردهم برفق مقرون بحزم فأوريت انى اتطلع الى الحديث معهم ، ولكن ليس قبل اتمام مقابلتى مع وزير خارجية بلادهم ، فاتصالى بالمسئولين هو العلة والسبب فى زيارتى ، وليس من اللياقة الخوض مسبقا فيما سوف يتناوله البحث بينى وبينهم : « ان هى الا ساعات فاتحدث اليكم بكل حرية ... »

وقاطعنى أحدهم : « هل تقابلون رئيس الجمهورية ؟ » .

وكدت أن أجيب أن ربما ، ولكنى امسكت عن الكلام وقد تملكنى الضيق فجأة، فانا فى حيرة من أمرى ، مشعث الفؤاد بين أمل اتعلق باهدابه وبين بوارح من ظنون ، فأن لا يوفد مندوب من الخاجية لاستقبالى فبادرة لاتدعو الى استبشار .

« قلت انى سوف اتحدث اليكم فيما بعد بكل حرية ! » وأشحت بيدى ضجرا واطبقت على شفتى فى حزم مصعرا لهم وجهى ، نذيرا بأنى لن انطق بعد ذلك بحرف .

وارتفعت اصوات نحنحة وبعض همهمة ، يصاحبها صرير النعال اذ تتحكك بالارض متحيرة ، كأنما فى سعيها الى بعض حركة تنفيث عن مشاعر من حرج مفاجىء ، ولكنهم ظلوا من حولى مرابطين فاتشبث بمظاهر فيها تأكيد لاصرارى عن الانصراف عنهم ، ولكنى اينما اتجه بناظرى أجد الوجوه متطلعة والعيون متسائلة ، ولا قدرة لى على تجاهلها الا أن اتحول الى صنم من حجر ، وشعرت من حولى

بالهواء وقد أثقل اذ تتحول مشاعر الترقب ولم تخصب الى غضب مكبوت ، نذيرا بردود فعل ليست فى مصلحة قضية بلادى .

ووقعت عينى على وجه توسمت فيه بقية تعاطف فابتسمت خفيفا فتشجع صاحبنا وقال : « هلا ألمحت الينا بنتائج زيارتك للارجنتين ؟ »

« شرحت لهم تفاصيل الموقف ، وابدوا تفهمها وكذلك كان الامر فى البرازيل .. »

وأطبقوا على بمجرد أن نطقت تلهفا الى مزيد ، ولكن ماذا أقول لهم ؟ فانى عازف عن الدخول الى تفاصيل ، ثم ان اهتماماتهم الحقيقية لا تنصب الا على موضوعين لا ثالث لهما ، ما أزمع اثارته مع حكومتهم ولست أدرى بعد ما سوف أثير ، فهو رهن بما ألمسه عند وزير خارجيتهم من استعداد ، أو أن أتكلم عن آخر تطورات الموقف ، ولست أدرى أيضا عن ذلك شيئا ، اذ انقطعت عنى الاخبار منذ أن بارحت مكاتب سفارتنا فى بيونس آيرس متجها الى مطارها البعيد ، ساعات طويلة لا أدرى ما قد تمخضت عنه فتطورات الموقف اصبحت موكلة بمقياس من دقائق وثوان .

كان على ان أواصل الكلام ، وكان على فى الوقت نفسه أن أحول دفته عن تلك المواضيع الشائكة ، وأومض امام ذهنى فجأة أن أخوض فيما هو حبيب الى قلوب المكسيكين جميعا ، أن اتندر بالولايات المتحدة ، فمواقفها منهم قد أصابتهم بجراح لا سبيل الى اندمالها ، ولاياتها المتاخمة لهم انتزعت منهم انتزاعا بعد حروب دامية مريرة ، من تكساس شرقا الى كاليفورنيا غربا ، ولايات زاخرة بثروات خيالية ، قامت فيها من بعد صناعات ضخمة وفيرة الارباح ، من بترولية وتعدينية الى سينمائية وسياحية ، مدنها الكبرى ، سان انطونيو ، ال بازو ، سنتافى ، لاسفيجاس ، رينو ، سان دييجو ، سان فرنسيسكو ، ما تزال تحتفظ باسمائها الاسبانية الاصيلة ، ولايات تعج بأيدى عاملة مكسيكية الاصل ، مضطهدة تئن تحت وطأة قيود من تفرقة عنصرية ، وكأنما أصحاب الاعمال ، مصانع كانت أم اقطاعيات شاسعة للانتاج الزراعى أو لتربية الماشية ، لا تكفيهم تلك الاعداد من أيد عاملة رخيصة الاجور ، فيلوحون لاشقائهم عبر الحدود بشتى المغريات ، أفواج لا تعترف السلطات أو النقابات قانونا بوجودها ، فلا حقوق ولا رعاية صحية أو تأمينات ، بل عقوبات صارمة ثم ترحيل اذا ما ارتفعت لهم أصوات احتجاج ، يطلق عليهم ازدراء اسم « الظهور المبتلة » ، فطريقهم هو السباحة أو التخوض حيثما يتيسر عبر « النهر الكبير » ، أو « ريو جراندى » فقد احتفظ هو الآخر باسمه الاسبانى الاصيل .

وكان أحد شباب الصحفيين ، أمرد فتى ، قد تساءل فى دهشة ، اذ التقط ماورد على لسانى ، اذا كنت قد زرت البرازيل أيضا ، تساؤل شجعنى على أن أمضى فيما كنت قد عزمت عليه ، فهو يقطع بضيق أفق الاهتمامات المسيطرة على عقول رجال الصحافة قبالتى فقد بدا على بعض وجوه أنهم يشاركونه ذاك التساؤل فلو انهم حريصون فعلا على تحرى الدقة من حيث طبيعة مهمتى لاستعدوا فجمعوا كافة المعلومات عنها ، انها فرصتى اذن فاتجنب المزالق وامضى بهم الى حيث اريد .

« طبعا ، فهى العضو اللاتينى الآخر فى مجلس الأمن ، ولكنهم فى شغل شاغل ترقبا لما تتمخض عنه برامج « التحالف من أجل التقدم » .

وأصاب كلامى الوتر الحساس فاندفع أحدهم يقول متهكما : « التحالف من أجل التقدم ... » وأشاح بوجهه متأففا .

واندفعت اختلس الثغرة : « ولكنهم يقولون انها قد تطورت الى مزيد من تحالف وقليل من تقدم » .

وجلجل المكان فجأة بضحك وقهقهة .

ومضيت : « ولكن البعض ممن يتطلعون الى الآفاق عبر الحاضر القريب يعلقون أهمية كبرى على « فتح الداخل » كما يقولون ، أى الاتجاه الى الكشف عن مواردهم الضخمة فى الولايات الداخلية ، يعمدون الى استغلالها

بجد فتدفع بهم وباقتصادياتهم دفعا الى أمام ، سمعت أحدهم يتباهى بأن البرازيل هى أكبر بلاد امريكا اللاتينية قاطبة ، انها قارة ، تملك حدودا مشتركة مع دول امريكا الجنوبية قاطبة فيما عدا شيلى واكوادور ، مساحتها تعدل مساحاتهم جميعا .. » .

وتململ البعض ولكنى استطردت بعد وقفة قصيرة : « وددت ساعتها لو كنت مكسيكيا فيحق لى أن انبرى له فاقول لو أن أراضى البرازيل الشاسعة تاخمت الولايات المتحدة لما بقيت لكم مساحة تتباهون بها » .

وضج المكان مرة أخرى ، وقد تهاوت الحواجز التى كانت تنذر بالارتفاع بينى وبينهم، ليس لمجرد أن تقاذفتنا موجات من قهقهة ، ولكن الحديث كان قد تدرج بنا رويدا الى تبسط حتى زالت كل كلفة ، فهو لم يجر كما قد يبدو مما أوردت ، على وتيرة من أسئلة وردود قاطعة الفواصل غير متداخلة ، فكم من مرة راوغتنى كلمة أو حاورتنى خاصية تعبير فأتوجه الى واحد منهم ، لمست أن لديه بالانجليزية بعض المام ، فينجدنى بالترجمة الاسبانية لهذا اللفظ أو ذاك أو أن يقيلنى ولما تعثرت .

وسارعت استرد أنفاسى : « نعم ، نعم ! تراه من هو ذلك الثائر الذى قال : لهفى على المكسيك وطنى ! فما أبعد المسافة بيننا وبين الله فى سمائه ، بينا الولايات المتحدة منا على كثب » .

وابتدرنى أحدهم ، كهل قارب الخمسين : « آه..ليس ثائرا وانما بورفيريو دياز ، كلمة كانت ذريعته الى تشديد قبضة حكمه الدكتاتورى ، ولكنها عين الصدق ... »

« كلمة حق أريد بها باطل ، كما قد نقول نحن العرب ... »

وتابعت كلامى : « وانطلاقا منها فان مشكلتنا هى أن الولايات المتحدة أصبحت منا أيضا على كثب ، حملهم الينا أسطولهم السادس ، هل تذكرون ما كان يقال عن « الجيرة الطيبة » ؟ .

فهكذا يعبرون بالاسبانية على ما نسميه بحسن الجوار ، وارتفعت بعض تساؤلات ، كان البعض الآخر قد أحاط بزميلهم الكهل المخضوم يستوضحونه ، فيما يبدو ،المعلومات عن تاريخ دياز وغير دياز ، ولكن أذنه الصحفية المتيقظة التقطت ما أقول ، فضحك ضحكة قصيرة ، ولوح بيده هازا كتفيه ، كأنما مستسلما أو مشفقا ، ولكنى لم أفهم لاشارته معنى .

واندفعت : « انى لأذكر ذلك التعليق المكسيكى الدارج عنها ، فيقال أنعم بها من سياسة ، فهناك الطيبة وهناك الجيرة » .

ولم تقابل كلماتى بضجة ، متفجرة من ضحك تلقائى ما كنت أتوقع ، وخزة خاطفة من شعور بخيبة أمل ثبطت من روح المرح التى استحوذت على فتكاد أن تجرفنى ، وفهمت عندئذ اشارة التحذير الرفيق التى رمز بها الى ذلك الصحفى المخضرم، فهى ملحة قد فقدت لذعتها لطول ابتذال ، أو أنها لاتستطعم وقد ولى أوانها ، فالولايات المتحدة أبدا مسارعة الى الشخوص بأقنعة سياسية جديدة كلما انهتك قديمها عن خبيئته ، مبدأ منرو فسياسة « العصا الغليظة» ثم حسن الجوار ـ أو الجيرة الطيبة كما يقولون فى الدول اللاتينية ـ وأخيرا التحالف من أجل التقدم ، جميعها شعارات مرحلية ، والتندر بأى منها رهن بحين وأوان ، ولكن الصحفيين من حولى استجابوا رغم ذلك ، ليس تلقائيا كما كنت اتوقع ، ولكن الضحكات تعالت بعد فترة متواترة متراوحة ، استجابة ـ«وعسى أن تكرهوا شيئا » ـ ثبطت من مرح كان حريا لو تعارمت موجته أن يجرفنى الى شطط امتعاضة خاطفة أن لم تحظ ملحتى الاخيرة بما تستحق من استظراف ـ تعسا للانسان ما أتفهه ! ـ فاتماسك وانظر من حولى فأجد وكأنما قد تحولنا الى ثلة من رجال تجمعهم معرفة سابقة ، وان تراوحت الاهتمامات بين مراكز ثلاثة ولكنها متداخلة الاطراف ،صاحبنا الكهل المخضرم وقد لمعت عيناه زهوا بما تفيض به ذاكرته من معلومات عن تاريخ البلاد ، ثم ذاك الذى انفتق لسانه عن بعض انجليزية وقد تطلع اليه نفر من شباب معجب،

ولكن جمهرتهم ما زالوا من حولى ، ويخطو نحوى فجأة صاحبنا الكهل ، وينفلت الينا توا ثالثنا ، تأكيدا لأهمية من تواجد لن يتسق بدونه تخاطب ، ويثار موضوع المامى باللغة الاسبانية فيتدرج بنا الحديث الى رحلاتى السابقة الى امريكا اللاتينية والى تفاصيل ذكرياتى عن المكسيك بالذات ٠

انهارت تلك الفواصل المعنوية التى تقوم عادة بين مبعوث رسمى أو زائر وافد وبين صحافة قد تحشدت متأهبة لمحاصرته فاستجوابه ، بل ثلة متداخلة قد اختلطت بين أفرادها أطراف الحديث وتشعبت ٠

وأتانا أفراد السفارة وقد انجزوا الاجراءات ، فانتزعت نفسى من الحلقة المضروبة من حولى ولما يريدوا أن أفارقهم ، فاصافح هذا واربت على ظهر ذاك وألوح للبعض واعلن وأعيد ــ وكأنى أحرص ماأكون على أن لاتفوتنى الفرصة ــ أنى على وعدى من حديث طويل واضح صريح بعد مقابلتى لوزير الخارجية ٠

ولو أن وقعت علينا وقتذاك عين أحد العاملين بمكاتب العلاقات العامة المنبثة فى وزاراتنا أو مؤسساتنا أو تنظيماتنا ، لاربدت وجوههم من كمد ولازورت قلوبهم من خزى وحسرة ، فقد تفشت فى صفوف البعض منهم مفاهيم محددة عن تلك الاستحكامات المظهرية التى يتحتم عليهم توفيرها لرؤسائهم المباشرين ، فانما المظهر عنوان المخبر ، وخاصة اذا ما اوفدوا الى مهام رسمية فى الخارج ، أولها ألا يتحرك المبعوث الرسمى الا فى حشد حاشد من حاشية ، هذا يحمل عنه حقيبة الاوراق وذاك المعطف أو المذبة الانيقة حسب الظروف والاحوال ، وأن يحف به نفر عن يمين وشمال، تكئة مهيأة اذا ما تعثر من تعب أو كلال ، وعدد الى أمام لافساح الطريق وذب من تسول له نفسه التسكع أمام الركب المهيب ، ومثلهم من خلف حماية للمؤخرة من تقحم أو احتبال ، ولو أمكنهم أن يعدوا له مركبة حرب

«رمسيسية» لفعلوا ، هكذا تكون «الحداقة» ، ادلافا الى دعاية سياحية مفعولها اكيد ٠

وويل للصحافة اذا ما حاولت الاقتراب الا أن يبرز حملة أجهزة التسجيل الاذاعى وآلات التصوير الفوتوغرافى والسينمائى والتليفزيونى ، فينفرط للتو عقد تنظيمهم الجحفل فى زحفه المتشاوس الى أمام، ويهرعون جميعا الى الاصطفاف ، أو أن يلتفوا برئيس الوفد متدافعين ، وقد تفشخت وجوههم الى ابتسام ، أو أن يصعر البعض سحنته فى تيه نفاج ٠

والا ــ أن لا توجد سوى آلة تصوير يتيمة أو ربما اثنتين ، ومن ثم ان لا يوجد بشرف الاستقبال معلقون من ذوى الاسماء الطنانة أو نفر من رؤساء التحرير ــ فلا مجال الا لبعض من أسئلة يرد عليها بأجوبة شديدة الاقتضاب تفضلا من طرف لسان

أما أن يتدانى المبعوث الرسمى ، بقدره وجلاله ، الى أخذ ورد هينين مع العامة من رجال الصحافة ، فانها لداهية الدواهى ، أغاثنا الله !

وتلك للأسف احدى نقائصنا الكبرى وفى سبيلها الى استشراء ، ومكمن الداء والحمد لله ليس على مستوى المسئولين أنفسهم ، فهناك بعض دقة فى الاختيار والتعيين ، انما مغرس الفتنة موكل بجمهرة من تقع عليهم العين مديرين لمكاتبهم الخاصة أو العلائقية، اختلطت على الكثير منهم للأسف المفاهيم ، ليس لهم من هم الا الالتفاف حول رئيسهم المباشر ، الذى هو ولى النعم ، مطبلين مزمرين عسى أن تؤدى المغالاة فى تضخيم المظهر الى تفخيم المخبر ، فيعمهم غمر من فيض « نفخة » ، ويتنحلون أفضالا فوق أفضال من نفوذ وسطوة٠

ألم يكن لمصر الصدارة بين الأمم أن حكمها فرعون ؟ فلنخلق اذن من كل ذى منصب فرعونا، فأى دولة تلك التى يسعها أن تتصدى لنا وقد انقلبنا جميعا الى فراعين !

العمل العربى فى المجال الدولى

فتحى رضوان

كنت أحسب أن الأمور المتعلقة بفلسطين ، واحتلال الاسرائيليين لجانب كبير من أرضها ، أمور واضحة ، تدعو الى الحزن ، وتبعث على التهيؤ للنضال ، واحتمال تكاليفه ، ولكنها تبقى فى متناول فهمنا جميعا ، فليس فيها غموض يحتاج الى أعمال الفكر واجهاده ، وليس فيها التواء ، يحوجنا الى فلسفة المتفلسفين ، والاستعانة عند التعبير عن معمياتها بحذاقة المتحذلقين .

الى أن وقعت هزيمة العرب فى حرب الخامس من يونيه وما بعدها ، فانطلق عديد من فلاسفة السياسة العربية ، يكتبون لنا الفصول الطوال ، مطلقين من جعبتهم الالفاظ ، والاصطلاحيات المزجية ، والتراكيب المبتدعة ، ماتحسب معه ان هزيمتنا فى ميدان النضال ، استتبعت اضطرابا فى الاعصاب ، زاغت معه الأعين ، وضلت الأفهام ، وأصيبت به الأذواق بأمراض وآفات وعلل ، هانت معها خسائرنا فى ميادين القتال .

ولذلك ، لقد أصبح واجبا مقدسا على كل من تهمه أمور بلاده ، وكل من يشغله مستقبل العرب بعامة وفلسطين بخاصة ، أن يرد الأمور المتعلقة بكارثة فلسطين ، وما تلده من مصائب ، الى وضعها البسيط ، وان يستعمل التعليق عليها ، والأحداث المتصلة بها ، لغة ساذجة ، لعل البساطة ، تعين على شفاء أذواقنا ، مما تعرضت له من اسقام ، وشفاء عقولنا مما أصابها من علل وعاهات . ولعلنا بعد هذا قادرون أن نهتدى الى السبيل السوى المستقيم ، الذى يقود الى النصر والى القوة قبل النصر .

وأحسب أننا لانكاد نختلف نحن البشر ، فى أن الشرط الأساسى لنجاح كل عمل هو عنصر ، نتواضع أحيانا ، فنسميه (الاخلاص) ، ويلذ لنا أحيانا أخرى استعمال العبارات الأضخم قليلا فنسميه (الايمان) .

وأيا ما كان اختيارك ، فالاخلاص والايمان، هما فى الواقع شىء واحد ، فلن يستطيع الواحد منا ، ان يخلص لفترة أو قضية أو شخص ، الا اذا كان مؤمنا بسلامة الفكرة ، أو عدالة القضية ، أو جدارة الشخص واستحقاقه للاحترام أو الحب .

والذى نستطيع أن نشاهده ، بالعين المجردة ، ونلمسه باليد لمسا فى تاريخ العرب ، منذ وقعت كارثة فلسطين فى سنة ١٩٤٨ وما بعدها ، أن اخلاصنا لفلسطين ، تشوبه شوائب كثيرة .

كان من الصعب على العرب أن يعملوا معا ، لا لحساب فلسطين ولا لحساب أية قضية أخرى ، لأن العمل السياسى فى العالم العربى كله ، كان غير ناضج ، مبعثرا غير منظم ،

مرتجلا غير مدروس ، تلقائيا عاطفيا ، يستجيب للأحداث فور الساعه ، ثم يفتر ويتقطع ، ويخمد ، وينتهى ٠

وعلى الرغم ، من اخلاص وصدق ، الكثير من الزعامات العربية فقد كانت هذه الزعامات ، ثمرة التطورات التى جاءت بها الأيام والأحداث ، لا سبب هذه التطورات ، ولا مصدرا من مصادرها ، فضلا عن أن الكثير منها ، كانت تنقصه الثقافة , وسعة الأفق ، وصلابة الخلق ٠ فالبلاد منذ بدأ جهادها قبيل الحرب العالمية الأولى ، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تنجب زعيما فى مستوى غاندى أو ديفاليرا ، الا اذا استثنينا الامير عبد الكريم ، فقد كان بحق زعيما من أعلى طراز : قيادة ، وشجاعة ، وحنكة سياسية وعسكرية ، ولكن ميدانه كان فى أقصى الغرب ، فى ريف مراكش فى مواجهة أسبانيا , وكان مايصل الينا من أخباره ، بسبب الرقابة الاستعمارية الصارمة ، نذرا قليلا ٠

دهمتنا مشكلة فلسطين ، ونحن على هذه الحال : عالما عربيا مبعثرا ، الزعامات فيه صغيرة تنقصها القدرة والقوة والصلابة ووحدة فكر تلم شتات نفسها ، وتجمع ماتناثر من أجزائها ، فى بطء وتكامل ٠

وقد زاد من الصعوبات المصاحبة للمشكلة ، أنها تفاقمت ، فى وقت دخلت فيه ، فى حياة العرب وحياة الانسانية كافة ، عناصر سياسية لم يكن للعرب ولا للناس عهد بها ، فقد خرج الاتحاد السوفيتى ، ظافرا من الحرب العالمية الثانية ، وأصبح فى الحال ، قوة عالمية كبرى يحسب لها ألف حساب ، وقد كادت تنجح فى أن تساوى نفسها بالولايات المتحدة ، الزعيمة الجديدة للغرب ، وأن تضع كتفها بكتف هذه الزعيمة الفتية الناشئة ٠

ولم يكن الاتحاد السوفيتى مجرد دولة عظيمة كسبت الحرب ، بل كان عالما جديدا بأفكاره ، وأسلوبه ، وأهدافه ٠ وكان على العرب أن يحاولوا أن يتبينوا طريقهم فى التعامل معه والتحدث اليه ، والانتفاع بوجوده ٠

ونشأت فى نفس الوقت ، الأمم المتحدة ، وهو مولود حمل فى نفسه وبدنه آثار المجزرة على مدى خمس سنوات ٠ وقد كان دخول هذا المولود فى حلبة السياسة الدولية ، مضاعفة ، عقدت من مشكلة فلسطين ، وأتاحت للاسرائيليين والصهيونيين فرص عمل عظيمة , لم يكن فى مقدور العرب ، الذى عاشوا حياتهم فى حدود بلادهم أن ينافسوهم فيها ، أو يسابقوهم فى الانتفاع بها ٠

والى جانب هذين العنصرين ، نشأت مضاعفات جانبية ، فالاستعمار غير جلده ، فظهر فى ثوب آخر ، يمكن أن يخدع فريقا من الناس ، وان كانوا صادقين ذوى نية حسنة ويمكن أن يتخذ ذريعة مقبولة لفريق آخر ، صعبت عليه مواصلة القتال ٠

وفى الحالين كان التغيير الطارىء لشكل الاستعمار ومظهره ، يقتضى تغيرا فى أساليب العرب السياسية والنضالية ، وكان هذا التغير فى حاجة الى بعض الوقت ، ليصبح مؤثرا وناجحا ٠

وخلال هذا الوقت ، انفجرت المشكلات الاجتماعية ، ومشكلات الحكم ، لا فى البلاد العربية ، وحدها ، بل فى العالم قاطبة ، وكان كثير من هذه المشكلات محبوسا بفضل نجاح الديموقراطية الحرة (الليبرالية) وسيطرة دول الغرب على العالم ، فلما بدأ الصراع بين الديمقراطية التقليدية ، والأنظمة الكلية ـ الفاشيستية والنازيه ـ بدا تكوين العالم السياسى وهيكله ، يهتز اهتزازا شديدا ، فأتيحت الفرصة لكثير من المشكلات المحبوسة أن تنطلق ، وكان لابد لهذا الانطلاق من تأثير على مجريات الأمور فى البلاد العربية ، وقد شاء سوء الطالع ، أن يحدث هذا فى الوقت الذى تبلغ فيه أزمة فلسطين ذروتها ، فكتب على العرب أن يحاربوا فى أكثر من ميدان ، فى وقت واحد ٠

كان عليهم أن يحاربوا الاستعمار الذى أخذ يهتز ، وأصبح الأمل فى التخلص منه عظيما ، وكان لأمريكا مصلحة ما ، فى أن يزول الاستعمار القديم ، لتحل محله ٠

وزادت استثمارات أمريكا فى المنطقة ، وزاد بالتالى نفوذها السياسى ، فاربك دخولها فى الشرق العربى ، السياسة العربية ، والزعماء

العرب ، الذين ألفوا ، أن يكون هواهم اما مع انجلترا واما مع فرنسا ، وفى القليل النادر جدا ، ضدهما معا .

كل هذه العناصر الجديدة ، جعلت العالم العربى ، أشبه شىء بالحامل فى دور المخاض، تحمل فى بطنها جنينا ، يغير من شكلها ، ويؤثر على أعصابها ، ويعكر صفو نومها ، ويعذبها بالقىء والصداع والقلق .. هذه الحامل ، كان مطلوبا منها مع آلام الحمل ، أن تعمل فى البيت من أول النهار ، حتى ما بعد الغروب ..

نعم كان على العرب ، أن يكافحوا من أجل استقلالهم ، وأن يكافحوا من أجل اصلاح شؤونهم الداخلية أو الثورة على أوضاعهم الاقتصادية والسياسية ، المتخلفة عن عهد ماقبل الحرب العالمية الثانية ، وأن يخوضوا معارك المعسكرات المختلفة فى داخل الوطن العربى ، وأن يتأثروا ، بالضغوط الجديدة التى تمارسها الولايات المتحدة ، والمؤثرات التى تشع من وجود الاتحاد السوفيتى .. ثم يواجهون بعد ذلك ، والى جانب ذلك ، مشكلات ومتاعب ، الهجوم الصهيونى الاستعمارى ، فى فلسطين ، كبداية للزحف على المنطقة .

فهل استطاع العالم العربى ، أن يواجه هذا الزحف العنيف المدروس ، قويا متماسكا ، مخلصا مؤمنا .

الجواب على ذلك ، بلا ، نافية قاطعة .

وقد يكون موضع تفصيل (لا) هذه فى غير هذا المقال حتى لا نسترسل مع هذه المعانى بالتعميم ، دون التفصيل .

ولننفذ الى لب موضوع البحث ، فنقول ان العمل العربى فى المجال الدولى ، له أساسا شعبتان :

الأولى ـ العمل السياسى .

والثانية ـ العمل الدعائى .

وهاتان الشعبتان ، وان اختلفتا مجالا ووسيلة، وأسلوبا فهما متفقتان ، غاية وهدفا، وتقومان حتما على أساس واحد .

والأساس المشترك للعمل العربى ، فى الحقلين ، السياسى ، والدعائى : **وحدة الجبهة ضد الاستعمار والصهيونية .**

لست أمل من القول ، بان نشوء اسرائيل، فى التاريخ الذى نشأت فيه ، وفى الظروف التى ولدت فيها ، تكاد تكون منقطعة الصلة بالأشواق الروحية ، التى تساور اليهود ، والتى تحدو بهم الى الأمل فى العودة الى الى فلسطين ، والاقامة فيها ، والموت فى أرضها .

لست أنكر للحظة واحدة ، أن بعض اليهود، ظلوا يرنون الى فلسطين ، فى حنين متصل ، وأن آخرين رأوا فى أحلام يقظتهم ، هيكل سليمان يعود، ومجد أورشليم يبنى من جديد، وأن فريقا ثالثا آمن بما اعتبره (بشارة) التوراة لأولاد يعقوب ، بأن فلسطين ـ بغير حاجة الى التحديد ـ قدأقطعها الرب لهم ، دون غيرهم .

لكن كل ذلك لم يكن كافيا فى الماضى قبل القرن الثامن عشر ، وكان جديرا بالا يكون كافيا فى القرن العشرين ، لان يخلق مشكلة فلسطين ، ويجعلها محورا للسياسة الغربية فى هذه البقعة من الأرض ، فى الربع الأول من القرن العشرين .

كذلك لم تكن الاضطهادات النازية ، ومعسكرات الاعتقال ، ومذابح اليهود بالجملة، التى روج أنباءها اليهود ، وروجتها معهم دوائر الاستعمار الغربى ، ووسعت من نطاقها ، وأضافت اليها كل يوم جديدا ، لم تكن هذه الاضطهادات والمذابح ، سببا فى جعل (خلق اسرائيل)، غاية يتعاون لتحقيقها دوائر النفوذ والمال ، والحرب ، فى كل دول الغرب ابتداء ببريطانيا ، وانتهاء بالولايات المتحدة .

فاسرائيل لم تصبح غاية عند الصهيونيين، الا بعد ما أصبحت غاية عند دوائر المال والاستعمار، ودوائر الحرب والسياسة العالمية، فى الغرب .

وقد يبدو هذا كله مبالغة منا ، أو تخيلا ، ولذلك فقد عدنا للكلام فى هذا الموضوع لنسوق عليه بعض الأدلة .

وان كنا نؤمن ، بأن هذه القضية ، ليست فى حاجة بذاتها الى تدليل ، لأن من المعروف، أنفى مخزن الدوائر السياسية ، فى كل دولة مجموعة من الأهداف النبيلة ، والشعارات

السامية ، فاذا وقعت الدولة فى أزمة فى الداخل أو فى الخارج ، مدت هذه الدوائر يدها الى المخزن ، وتناولت منها ما يتفق مع ظروف الحال ٠

فبريطانيا ، أيدت الباب العالى ضد روسيا، وحاولت أن تبقى على تركيا ،وهى تنهار ، وينقض بناؤها ، حتى لا تسقط مضايق الدردنيل والبوسفور فى يد روسيا ، وأعانت ثورة اليونان ضد تركيا ، حتى لا يسقط شرق أوربا ، فى يد النمسا ، أو يد روسيا أيضا ٠ وفى الحالة الأولى زعمت أنها تدافع عن حقوق السلطان ، وفى الحالة الثانية زعمت أنها فى صف الشعوب المطالبة بحريتها ، ومن هنا ، كان يمكن أن تبقى أشواق بعض اليهود الى العودة الى فلسطين ، فى مخزن بريطانيا ، أجيالا أو قرونا ، حتى تبيد الامبراطورية البريطانية ، ويهلك عنها سلطانها ، لولا نشوء ما سمى « بالمشكلة أو المسألة الشرقية » التى تواضع المؤرخون على اطلاقها على مجموعة المشكلات السياسية والاقليمية والعسكرية ، التى تخلفت عن تضعضع تركيا ، وطمع الدول الكبرى فيما سيبقى بعد اختفائها من مسرح السياسة الدولية من اسلاب وغنائم ٠

لولا هذا الضعف الذى دب الى تركيا، ولولا اليقين بأنها زائلة ، لما تحرك أغنياء اليهود ، الذين عرفناهم فى السنين الأخيرة باسم الصهيونيين ، ولما تحركت لتحركهم السياسة فى بريطانيا وفرنسا وكل غرب أوربا ٠

لننظر الى اتجاه تيارات الهجرة اليهودية فى المدة ما بين سنة ١٨٠٠ ــ ١٩٥٠ ، عندما وقعت الاضطهادات على اليهود فى روسيا وبولندا والمجر ورومانيا فى السنوات ١٨٨١ ، ١٨٨٢، ١٨٩٠ ــ ١٨٩١ ، ١٩٠٥ ــ ١٩١٠ ٠

لقد كانت هجرة اليهود الى الولايات المتحدة فيما بين سنة ١٨٨١ ــ ١٨٩٩ ، ٣٠ ألفا سنويا ثم ارتفعت فيما بين سنة ١٩٠٠ الى ١٩١٤ الى مائة ألف كل سنة ٠

ولم تتجه منهذه الألوف المؤلفة الى فلسطين سوى مئات قليلة، على مايؤكده الدكتور رابان سملكا فى كتابه « المهاجرة اليهودية من أوربا الشرقية خلال الخمسين سنة الأخيرة » (١) ٠

ففلسطين لم تكن فى خاطر اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد ، وانما كانت دول الغرب هى الهدف ، وكان الذين يقصدون فلسطين ، هم عادة من الشيوخ الذين كانوا يتمنون أن يموتوا على أرض فلسطين وأن يطويهم ثراها، بدليل أنه لم يكن فى فلسطين حتى سنة١٩١٨ سوى ٥٥ ألفا من اليهود ٠

ولما نبتت فكرة الدولة اليهودية فى رأس تيودور هرزل ، وأعلنها فى كتابه « الدولة اليهودية الذى نشر سنة ١٨٩٦ ، لم يحرض اليهود كافه على الهجرة ، بل وجه نداءه فقط الى الذين تسوء ظروف حياتهم فى ظل الدولة التى يعيشون فيها ، على ان الاهم ان هرتزل ، لم يدع فقط الى انشاء الدولة اليهودية المرجوة على أرض فلسطين ، بل كان يقول « يكفى أن يعطونا أية قطعة من الارض تتناسب وحاجتنا وحاجات شعبنا وتكون لنا السيادة عليها» (٢) ٠

بل أن هرتزل ذهب الى أبعد من ذلك ، فقد نصح اليهود أن يتجنبوا فكرة الهجرة الى فلسطين ، كما نقل عنه أيلى كوهين فى كتابه « المسألة اليهودية والقانون الدولى » (٣) ٠

ولم يعد خافيا على أحد ، أن عددا كبيرا من زعماء اليهود ، أزعجتهم فكرة انشاء دولة يهودية الى حد أن حاخامات لندن وفينا وباريس أرسلوا الى جريدة البرلينر تاجبلاط الألمانية احتجاجا على فكرة انشاء الدولة اليهودية ، وقد أعلن فى سنة ١٩٣٩ العالم الرياضى البرت اينشتاين اعتراضه على فكرة هذه الدولة ، وتنبأ بأنها لن تكون الا دولة مؤقتة ٠

وقد استمرت هذه المعارضة ، حتى بعد قيام اسرائيل ، فان يهوذا ماجنيس ، الامريكى الجنسية الذى اسندت اليه رياسة الجامعة العبرية فى القدس ، وعاش فترة غير قصيرة فى اسرائيل ، أزعجه فيها الارهاب الاسرائيلى ، وتحدى كل القوانين التى تدعو اليها أصلا اليهودية ، وسائر الأديان السماوية فقال : لايمكن ايجاد الدولة اليهودية ــ هذا اذا تمكنت من شق طريقها للوجود ــ الا عنطريق الحرب،

---

(١) اسرائيل : جناية وخيانة ، لسعدى بسيسو ٠
(٢) (٣) المرجع السابق

وأنكم تستطيعون أن تحدثوا العربى فى كل شىء الا فى الدولة اليهودية » ٠

وكلامه هذا ليس سوى رجع الصدى لكلام يهود كبار آخرين كسيدلفيان ليفى الاستاذ فى كوليج دى فرانس ، الذى صرح أمام مؤتمر السلام فى سنة ١٩١٩ بقوله : لست صهيونيا ولا أشاطر الصهيونيين أفكارهم ٠ اننى فرنسى قبل كل شىء ، ولست ممن يعتقدون بضرورة أو امكان أو فائدة انشاء دولة يهودية فى فلسطين » ٠

والثابت كذلك أن الحركة الصهيونية ، لقيت معارضة شديدة جدا من فريق كبير من زعماء اليهود فى أوربا وأمريكا ، بل أن وايزمان نفسه ، وهو أول رئيس لدولة اسرائيل ، والزعيم الحقيقى للحركة الصهيونية بعد وفاة هرزل ، سنة ١٩٠٥ ، يقرر أن المعارض الوحيد فى الوزارة البريطانية التى أصدرت تصريح بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ لاصدار هذا التصريح ، كان الوزير اليهودى الوحيد فى هذه الوزارة ٠ وأعنى به « مونتاجو » الذى كان وزير الهند فى الوزارة البريطانية سنة ١٩١٧ ٠

ولم تستطع الحركة الصهيونية ، الحصول على تأييد أغلبية اليهود فى العالم الا بعد سنوات ، وبوسائل الارهاب والابتزاز ، ومع مثابرة ، ومصابرة طويلتين ٠

وتقول البداهة أن دول الغرب ، ما كانت لتسند حركة كهذه الحركة ، لا تلقى تأييدا جماعيا من اليهود ، بل على النقيض ، تجد مقاومة ومعارضة من زعماء اليهود ، لولا أنها تجد فيها ، مصلحتها السياسية ٠

وهذا ما نريد أن نصل اليه ، من أن وجود اسرائيل ، فى هذه البقعة حتمته دواع سياسية هى :

أولا — انهيار دولة بنى عثمان ، أى دولة الخلافة التركية ، فى استانبول ، والشركات تفرض سلطانها على الدول العربية فى شرق القنال ٠

ثانيا — ظهور ارهاصات الحركة الوطنية فى البلاد العربية الخاضعة لتركيا فى سوريا ولبنان على وجه التحديد ٠

ثالثا — ظهور بشائر الحركة العربية الشاملة ٠

رابعا — اشتداد الحركة الوطنية فى مصر ، ابتداء من السنين الاخيرة فى حكم الخديو اسماعيل ، وكثرة ظهور الصحف الوطنية فى هذه السنوات بالذات ٠

خامسا — تزايد بأس الدولة الالمانية ، وأطماعها فى الشرق ، التى عبر عنها مشروع سكة حديد العراق ٠

سادسا — احتمال انهيار الامبراطورية الروسية ، ثم تحقق هذا الانهيار ، ونشوء دولة شيوعية ، بعد ثورة سنة ١٩١٧ ٠

وقد توج هذا كله كشف البترول فى السعودية امارات الخليج ، وثبوت ان هذا البترول يمثل اكثر من ٦٠ ٪ من احتياطى بترول العالم ٠

فى ظل هذه الظروف ، التى مهد بعضها لبعض ، فاتصلت حلقاتها فى شبكة شديدة الاحكام ، بات من المحتم الا تترك هذه المنطقة الحيوية ، منطقة المشرق العربى ، التى تتصل بالقارات الثلاث : آسيا وافريقيا وأوربا والتى يخترقها أكبر ممر ، فى دولة « قناة السويس» والتى لعبت فى حروب الماضى العالم كلها ، أكبر دور ، والتى تمثل أعظم وعاء حضارى ، لكل ما عرفته الانسانية من ثقافات ومدنيات ٠

كان لابد من ان تقوم فى هذه المنطقة ، دولة ، تنتمى الى الغرب ، تمثله ، وتقوم بدور القواعد العسكرية ، والمحالفات السياسية ، مع ما يمكن ان تمتاز به الدولة على القواعد العسكرية والمحالفات السياسية من صفة الدوام والاستقرار ٠ فان محالفة سنة ١٩٣٦ المصرية البريطانية مثلا الغيت ، كما سقطت قاعدة قناة السويس ، كما زالت قاعدة الحبانية فى العراق وستزول ان آجلا وان عاجلا ، قاعدة قبرص ، كما أوشكت قاعدة عدن ان تغلق ابوابها ٠ أما الدولة التى تعترف بها الدول الاخرى ، فستكون فى رعاية القانون الدولى ، وسيصبح مستحيلا ، أو على الاقل ، صعبا غاية الصعوبة ، أن تطلب دولة أو عدة دول الغاءها فالتاريخ لم يسمع حتى الآن بشىء من هذا لقد حدث أن هزمت دولة أو الحقت

بغيرها ، أو أخضعت للحماية أو أصبحت مستعمرة ، ولكن لم يحدث أن أزيلت دولة من الوجود ، بالوسائل القانونية • فاسرائيل حينما تنشأ ستصبح قاعدة ، للغرب محالفة له، مع تمتعها بحصانة الدول ، وحماية القانون ، ورعاية الامم المتحدة •

هذا ما اهتدى اليه التفكير الاستعمارى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وخلال سنيها ، ثم قبيل الحرب العالمية الثانية ، وفى أعقابها •

فنشوء اسرائيل واتضاح فكرتها ، والنشاط الذى دب فى المساعى التى بذلت لاقامتها ، كان يسير جنبا الى جنب ، مع تطور الاحداث العالمية ، والتقدم الذى تحققه الحركات القومية والنفوذ الذى تكسبه المانيا الهتلرية حينا ، والاتحاد السوفيتى حينا آخر ، وزيادة الاستثمارات الرأسمالية فى بترول هذه المنطقة ، وزيادة اهمية البترول فى السلم والحرب واذا كانت بريطانيا تلكأت فى السنين الاولى للحرب ، فى مساعدة الفكرة الصهيونية فذلك لان احداث هذه الحرب ، ومهاب السياسة خلالها لم تكن جلية للساسة البريطانيين من جهة ، كما لم تكن جلية لزعماء الصهيونية أنفسهم من جهة أخرى ، ففريق من هؤلاء الصهاينة ،كان يؤمن بنجاح الامبراطورية الالمانية فى الحرب ، ولكن وايزمان وفريقه ، راهن على انتصار بريطانيا ، ووقف الى جانبها وقد رجحت كفة هذا الفريق فلما خرجت بريطانيا منتصرة عسكريا ، مهزومة اقتصاديا، انتقلت السلطة الى أمريكا ، وانتقل النشاط الصهيونى الى هناك • وترددت دوائر امريكا فى بذل المعونة للحركة الصهيونية ، لان هذه الدوائر ، لم تكن قد قررت بعد ، أن تخرج بنشاطها المالى والاستعمارى من نطاق أمريكا نفسها ، فلما قررت ذلك فى أوائل سنى الحرب العالمية الثانية ، اصبحت اسرائيل ، غاية كبرى من غاياتها • الى الحد الذى نستطيع أن نقول معه أنه لو قررت أغلبية اليهود ، نفض يدها من مشروع اسرائيل ، والعدول عنه ، لاحتضنت الولايات المتحدة • دول الغرب بغير استثناء ــ هذا المشروع ، ولعضت عليه بالنواجذ • وهو ما حدث فعلا فقد أيدت كل من بريطانيا وامريكا مشروع انشاء دولة يهودية فى فلسطين فى وجه معارضة يهودية قوية لهذا المشروع كما مر بنا •

والصراع الذى دار بين هرتزل ، قبل وفاته من جهة ، وبين وايزمان وسولوكوف ، وهانتك ، ووربرج وليفين ، زعماء الصهيونية، من جانب آخر ، حول أمكان اقامة اسرائيل على أرض فى يوغندا بافريقيا مثلا ، بدلا من فلسطين ، هو فى الواقع الصراع بين الذين يطلبون ملجا لليهود يلوذون به عند الاضطهاد ، وبين الذين يرتبطون بالنشاط السياسى فى الغرب ، والذين يدركون اهداف هذا النشاط البعيدة ، ويعملون لتحقيقها •صحيح ان هرتزل كان يقول كلاما ، يدل على قوة صلة مشروع انشاء دولة اسرائيل ، بدوائر النفوذ السياسى فى أوروبا ، فقد قال مثلا : سوف نشكل لاوروبا ، فى فلسطين ، جزءا من الحاجز الذى يحميها من آسيا وسوف نكون ديدبان الحضارة المتقدمة ضد البربرية ، وسنظل دولة محايدة ، على علاقة متينة بأوروبا كلها التى سيكون عليها ان تضمن وجودنا » •

ولكنه كان مضطرا أن يقول هذا الكلام لانه كان يبحث عن قطعة أرض فى أية بقعة فى العالم ليقوم عليها اليهود ، دون ان يشترطان تكون هذه القطعة فى فلسطين ذاتها ، ولكنه بدأ بفلسطين ولذلك اضطر أن يتلطف للسلطان عبد الحميد ، وان يقول انه اذا اعطى اللهود هذه القطعة من الارض المرجوة فى فلسطين فسوف ينظمون مالية تركيا ، ويردون عنها هجمات أوروبا التى كانت تشتد حملاتها على السلطان عبد الحميد ، بدعوى أن المسيحيين فى الامبراطورية العثمانية يتعرضون للمذابح، وأن الأتراك أمة من الهمج ، تحيى مقاليد هولاكو وجنكيزخان •

ومما يدل على أن اليهود فى عمومهم ، لم يكونوا مصممين على اقامة دولتهم ، انه حينما عرض مشروع اقامة الدولة على أرض أوغندا ، على المؤتمر الصهيونى فى سنة ١٩٠١ ، وافق على هذا الاقتراح ٢٩٨ من الاعضاء ، وعارضه ١٧٨ فقط ، ولم يقنع المؤتمر بهذا ، بل انتخب لجنة فنية سافرت لدراسة اوغندا ،

والظـــــروف المواتية لاقامة دولة اليهـــود عليها . ومع تأييد الاغلبية لهذا المشروع ،فقد استمرت الاقلية النشيطة فى معارضته حتى حصلت فى المؤتمر الثانى على قرار برفضه ، فمات هرتزل غما وحزنا فى ٤ من يوليو سنة ١٩٠٥ .

ولم يبق مطروحا على البحث ، فى العــالم اليهودى ، الا مشروع اقامة دولة يهـــودية على أرض فلسطين ذاتها أو على مقربة شديدة منها كشبه جزيرة سيناء ، أو العريش . ذلك لأن زعماء الاستعمار ، رأوا أن التفريط فى اقامة دولة يهودية هناك ، بلاهة لا تدانيها بلاهة ، فما دامت الظروف قد واتتهم بيهود يقولون ان أرض فلسطين هى ملكهم بدليل آية فى التوراة فلابد أن ينتفعوا من هذه الظروف، وأن يقيموا تلك الدولة ، ولو كرهت أغلبية اليهود الكبرى لأن القصد ليس ارضاء اليهود ، وانما القصد هو تحقيق مطامع الاستعمار .

وقد قلنا فى المقال الســـــابق ، ان زعامة الجبهة الاستعمارية ، آلت الى كبار الاغنيـــاء اليهود ، وذلك لتمرس هؤلاء بالشئون الماليـة والمصرفية ، والاقتصادية ، على النطاق العالمى بحكم كون الاسرة اليهودية الواحدة ، فروعافى أكثر من دولة ، فقد تطابقت مصلحة الاستعمار مع مصلحة الكبار من اليهود ، ومن هنا ، كانت الجبهة التى تؤيد اسرائيل ، هى هذه الجبهة التى تضم زعماء الاستعمار ، الذين هم من زعمـــاء الصهيونية ، وان لم يخل الحال من مسيحيين أغنياء ، يتمتعون بلقب استعمارى عظيم ،ولكن تبقى اغلبية اعضاء هـــذه الجبهـــة من كبار الصهيونيين .

وقد أورد دافيد لاندز فى كتـــابه « بنـوك وباشوات» (٤) كشفا بأسماء العائلات اليهودية التى نشرت نفوذها على عالم المال ، بعـــواصم الدنيا ، بفضل فروعها العائلية المتشعبة فذكر فيما ذكر عائلة أوبنهايم الذين رحلوا من بون الى كولون عام ١٨٠١ بعد ان فتحهـــا الغزو الفرنسى لليهود، وعائلة مندلسون الذين أقاموا فى برلين سنة ١٧٩٥ ، واشتـهر منهم المؤلف الموسيقى فليكس مندلسون ، ثم عائلة (هاين) وأصحاب بنك هامبرج فى سنة ١٧٩٧ والذين كانوا مرتبطين بأقوى الشركات اليهـودية فى أوربا ، وأهم من أولئك عائلة دوتشيلد .

وقد آن لنا أن نعرف ، ان الاستعمار كله ، هو نشاط صهيونى،فالصهاينة ، بما يقرضونه للدول ولرؤسائها من مال ، ولتأثيرهم على دور النشر ، يستطيعون دائما أن يهيئوا الجو ، لأية مغامرة استعمارية ، باعتبارها واجبا قوميـــا ، يحتمه شرف الدولة ، ومستقبلها ، وعظمتها ، فتنساق جميـــــع أجهزة الـــدولة للأبواق الصهيونية ، وتخرج جيوشـــــها غازية وهى تحسب انها تحقق المجد القومى ، فى حـين ، يزحف وراءها وتحت علمها بمجرد نجاح الغزو القومى المرابون اليهود ، واصـــحاب رءوس الاموال ، فيضعون أيديهم على اقتصاد البـلاد المغزو : كان فى مصر العلم البريطانى ، يرفرف أثناء سنى الاحتلال ، ولكن كان شـــيكوريل وبنزيـــون وعدس وبلاتش ، وأورزدى باك ، وجاتينو ، وكان كبار المستوردين والمصدرين، وشركات اصـــلاح الاراضى ، كشركة وادى كوم أمبو ، وشركة المحاريث ، وفوق ذلك كله كان البنك الاهلى المصرى، الذى انشأه اليهودى السير ارنست كاسل ليكون رأس الاقتصـــــاد البريطانى فى مصر ، كل هذه المؤسسات مال يهودى صرف ، وكانت شركة المعادن ،والشركة البلجيكية العامة ، فى الاغلب الاعم ملكا لليهود وان كانت ألكونغو مستعمرة بلجيكية . وهكذا وهكذا ، لا تستطيع ان تجد اســـتثناء لهذه القاعدة فى أية دولة ، قضى عليها حظها العاثر ان تقع فى براثن دولة استعمارية . فالاموال الصهيونية ، تبتلع اقتصادها ، وتمتصـــها ، وتوجه استثماراتها .

يتقدم علم الدولة الغازية وســـــط هتاف وصيحات فرح المواطنين رعايا هذه الدولة ، ويحسبون أنهم نالوا بهذا الفتح كل ثمراته ، وهم فى الواقع ينالون ، ما يتنازل لهم عنـــه الرأسمال الصهيونى ، من فتات ، وان كان هذا الفتات على قلته يسبب التخمة .

وتبعا لهذه القاعدة اتجه ذرائيلى اليهودى

(٤) بنوك وباشـــوات ص ٢٢ ، ٢٣ من النسخة المترجمة بقلم د . عبد العظيم انيس .

الى ابن بلدته ، روتشيلد اليهودى ، حينما فكر الاول فى ان يشترى لبريطانيا الاسهم التى كانت مملوكة للخديو اسماعيل فى قناة السويس وقدرها ١٧٦ الفا بأربعة ملايين جنيه دون ان يرجع فى ابرام هذه الصفقة حتى الى مجلس الوزراء فلم يتأخر روتشيلد فى فتح خزانة البنك فى يوم عطلة ليضمن انفاذ هذه الصفقة، التى كان يعلم انها المقدمة لاحتلال مصر الذى أعان عليه وجود (جامبتا) اليهودى أيضا فى وزارة الخارجية الفرنسية .

حلقات متصلة تديرها وتنسجها يد هذه الحكومة السرية العليا المهيمنة على اقدار السياسة الدولية للغرب ، حكومة رأسمال الصهيونى الاستعمارى .

وانشاء اسرائيل فى هذا الجانب من العالم قرار من قرارات هذه الحكومة السرية العليا اقتضته مصلحة هذه الحكومة ، أى مصلحة الرأسمال الاستعمارى ، الذى هو بطبيعة الحال رأسمال صهيونى فى الأغلب .

لذلك يكون من العبث ان نسأل هل اسرائيل هى أداة السياسة الامريكية ، أم الدولة الامريكية ، هى أداة اسرائيل ، لان الواقع ان الاثنتين خاضعتان لسياسة الرأسمال الصهيونى الاستعمارى ، كما قلنا ، والفصل بينهما مستحيل ، لانه انفصل بين الشىء وذاته .

ومن ثم فانى استطيع أن أجزم بأنه اذا تضاءلت أهمية هذه المنطقة ، المنطقة التى تقع فيها اسرائيل ، منطقة الشرق العربى ، أو زالت ، زال كل اهتمام لحكومة الولايات المتحدة وسائر حكومات الغرب من بريطانيا الى فرنسا وهولندا وبلجيكا وسويسرا وايطاليا . لا نفرق بين دولة ودولة ، وان تفاوتت هذه الدول فى الحماسة لاسرائيل ، أو حسب مقتضيات الظروف الطارئة ، وقرب مصالح الدولة الغربية أو بعدها عن الأمور الجارية فى تلك المنطقة .

فلولا بترول العرب ، ولولا الاهمية الاستراتيجية السياسية والعسكرية لمنطقة الشرق العربى وباقى العوامل التى ذكرناها ، لما ظفرت دولة الصهاينة من بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة بجندى واحد ، ولا بقذيفة بندقية واحدة . ولبقى مشروع اسرائيل — اذا بقى — أملا لجزء صغير من اليهود المتدينين الذين يعتبرون ان العودة الى هذه البقعة ، واجب دينى ، لقلمت أظافر هذا المشروع على كل حال ، وزالت عنه ضراوته ، ولعجز ان يؤذى أحدا .

والنتيجة لهذا كله ، هو أن العرب يجب ان يوطنوا أنفسهم ، على أنهم لن ينازلوا اسرائيل فى المستقبل ، الا ومن ورائها الغرب كله ، تمدها دولة أو دولتان من هذا الغرب بالسلاح والذخيرة والعتاد ، وتقف سائر دول الغرب بوزارات خارجيتها ودوائر السياسة فيها ، مهما حاول الغرب أن يزعم بعضه أو كله أنه محايد ، فهو لن يستطيع أن يكون محايدا، فى مسألة تكون فيها اسرائيل طرفا ، لان اسرائيل هى هو ، لا لان مصلحة الغرب واسرائيل ، مصلحتان متقاربتان ، بل لأنهما مصلحة واحدة ، وهى مصلحة سياسية ، ليس فيها من العطف على اليهود ، وعلى آمالهم الروحية الا أقل القليل .

قال ذلك تشرشل فى أعقاب تصريح بلفور فنفى أن يكون التصريح فروسية من بريطانيا، وتبرعا سخيا لليهود ، بل قال بالحرف : انه كان اجراء فى وقت الحاجة ، قصد به تحقيق الفوز التام للحلفاء ، وقد توقعنا من هذا الاجراء ، ان نظفر بمعونة ذات شأن وقد تحقق بالفعل ما توقعناه .

ولكن تشرشل لا يقول هنا الا بعض الحقيقة فالحقيقة ان هذا الاجراء ، أى اصدار تصريح بلفور ، لم يكن اجراء مؤقتا ، الا باعتباره مقدمة لاجراء اكبر منه هو انشاء دولة لليهود فى فلسطين ، وان قال ذلك المركز دارجنسون من قبل أن تشق قناة السويس أى قبل قرن مضى ، اذ قال وهو يدعو الأمم الى مشروع قناة السويس : أن ينفذوا هذا المشروع بوصفه « فتحا » صليبيا لحساب الغرب كله فعلى العرب أن يقيموا سياستهم على هذا الاساس، والا يؤخذوا على غرة فى أية جولة فى حلبة السياسة أو حلبة الحرب مع اسرائيل . فالغرب هو طرف فى كل معركة تكون فيها اسرائيل طرفا .

وقد يبدو غريبا أن يشمل الغرب اسرائيل

بهذا العطف ، واليهود لم يلقوا اضطهادا ، مثلما لقوا فى أوروبا شرقا وغربا ، وحركة معاداة السامية ، لم تنشأ ولم تستفحل الا فى أوروبا ، وقد تناوبت دول الغرب مطاردة اليهود ، والتضييق عليهم ، وتسليط أسوأ أنواع التعذيب على جموعهم وافرادهم ، فلما هدأت حركة التعذيب فى أسبانيا وبريطانيا وفرنسا ، اشتدت فى روسيا وبولندا ورومانيا، ولما هدأت قليلا فى أوروبا الشرقية اشتعلت نيرانها ، فى وسط أوروبا وهكذا ٠

ولكن الواقع أن أوروبا ، وان اضطهدت اليهود ، الا أن اليهود أقرب الى قلبها من العرب ، فاليهود كانوا ضحايا الاضطهاد العنصرى فى أوروبا ، ولكن اليهود لم يكونوا أندادا لأهل أوروبا . ولا منافسين لهم ، بينما دخلت أوروبا فى حروب متصلة مع أهل هذه المنطقة ، فقد حاربت العرب فى الحرب الصليبية ، التى أدت الى زحف الأتراك من آسيا الوسطى ، الى منطقة الشرق العربى ، واستيلاء الدولة العثمانية على عاصمة البيزنطية (القسطنطينية) ودخولها فى حروب متصلة لخمسة قرون مع أوروبا ، كانت فيها جيوش السلطان العثمانى ، تنزل الهزائم الكبرى بدول الغرب ، وتهدد عواصمها فى اوروبا الوسطى ٠ فلما انحسرت موجة الدولة العثمانية ، دخلت أوروبا فى حروب ضد محمد على ، وجيوشه وأساطيله ، فلما ضيق على دولة محمد على التى كانت موشكة ان ترث دولة بنى عثمان ، دخل الغرب فى صراع مع القومية العربية الحديثة فى مصر، وفلسطين والعراق ، وسوريا ولبنان ، وفى كل المغرب العربى ، وقد كانت آخر معارك الغرب مع العرب ، معركة الجزائر التى اثخن فيها أبطال هذا الشعب العظيم ، جيش فرنسا جراحا فأهل الغرب لا يضمرون للعربى بل للشرقى عموما الا الكراهية أو الاحتقار أو الخوف ، وفى أحسن الأحوال يبدو لهم الشرقى غامضا غير مفهوم ٠

فى حين أن الأوربيين ينظرون الى اليهود ، بوصفهم شركاء لهم فى اقامة الحضارة اليونانية الرومانية ، ولليهود مساهمة فى بناء هذه الحضارة ، لا يستطيع الغرب ان ينكرها ، وهم معا ابناء العقيدة اليهودية المسيحية ، التى يعتبر فيها كتاب اليهود الجزء الأول من اجزائها ، بل الجزء الرئيسى ٠ واذا كان اليهود قد صلبوا المسيح ، حسب الثابت فى الاناجيل، فالمسيح هو يهودى أصلا ، وجاء لا لينقض الناموس ، بل ليقيمه والانسان قد يحتمل العيش مع ضحيته التى عذبها ، أى يقبل ان يعايشها ، ولكنه لا يقبل الخصم المنافس ، خصوصا اذا كان هذا المنافس قويا ، وأنه عاش زمنا طويلا الفائز المظفر ٠

ولكن ، لا يجدر بنا أن تقذف هذه الحقيقة فى نفوسنا باليأس ولا أن تفت فى عضدنا ، فليس (الغرب) هو كل العالم ، ففى العالم الآن قوى جديدة ، تزداد مع الايام قوة ، وليس كل ما يريده الغرب ، يجاب اليه ويتحقق كما كان الحال فى الماضى القريب ، حين كان هذا (ا لغرب) سيد العالم ٠ فقد كان (الغرب) يتمنى ان يبقى فى الهند الم جوهرة فى تاج بريطانيا ، فاضطر ان يجلو عنها ، وكان (الغرب) ، حريصا الا تفلت منه الجزائر التى كان يصفها بأنها (فرنسا على الشاطىء الآخر) ، فتركها بعد هزائم مدوية ، وفى (الغرب) ساسة يحاولون ان يرسموا لبلادهم سياسة جديدة معتدلة ٠ وما تلقاه أمريكا فى (فيتنام) ، مثل طيب لما تستطيع الشعوب المؤمنة أن تنزله بكبريات الدول ، ولو كانت من (دول الغرب) ، المدججة بالسلاح ، والمتخمة بالمال ٠

واسرائيل نفسها ، يزداد خطرها على السلام العالمى ، وضوحا ، ويزداد دورها الاستعمارى التخريبى ، واجتراؤها على معتقدات الأمم والشعوب ، انكشافا ٠

فاذا أضفنا الى هذا كله ، أن القوة الباطشة مهما كان نصيبها من الثروة والسلاح والنفوذ السياسى ، فانها تحمل أسباب خيبتها ، وفشلها ، ما دامت معادية للحق وللتقدم ، لا سيما اذا كان للحق أنصار متسمون بالشجاعة ، وقادرون على تنظيم أنفسهم ، وعلى عرض قضيتهم عرضا حسنا ، والبذل فى سبيلها ، والصمود وراءها ٠

(للمقال بقية)

ميجيل آنخل استورياس



أديب مكافح هندى اسبانى من جواتيمالا توج كفاحه بجائزة لينين للسلام ونوبل للآداب .

د. حسين مؤنس

من أوائل التعليقات التى قرأها الناس عقب اذاعة خبر حصول ميجيل آنخل استورياس على جائزة نوبل للاداب لسنة ١٩٦٧ عبارة قالها ناقد الاذاعة الايطالية قال فيها ان الاكاديمية السويدية تلجأ أحيانا الى منح الجائزة الى أديب وسط فى أخريات أيامه لتستنقذ بذلك اسمه من الضياع المحتوم ، وضرب الناقد لذلك مثلين : خوان رامون خيمينيث الاسبانى وميجيل آنخل استورياس الجواتيمالى ..

والعبارة هالكة لا يتحصل منها شىء ، وهى كما يتجلى للنظر اليسير نفثة من هذه النفثات الايطالية التى تتنكر على الاسبان وسلائلهم فى العالم الجديد كل شىء ، حتى كشف أمريكا ينكرونه عليهم ، ومن الواضح ان خوان رامون خيمينيث أديب شاعر مبدع ، وحديث حماره الفضى بلاتيرو من أرق ماكتب الناس من الشعر فى الاعصر الجارية ،وليس الى الشك سبيل ايضا فى ان ميجيل آنخل استورياس اديب اصيل يستحق جائزة نوبل وزيادة ، وما هو قطعا بالاديب الوسط ولا الكاتب الذى لا تخلد ذكراه الا بجائزة ، وان كان من الممكن جدا أن الموت كان مدركه قبل أن يعلم الناس من أمره ماهو به جدير .

ذلك ان عالم امريكا اللاتينية او امريكا لأيبيرية بتعبير أصح - كعالم العرب - عالم ضخم فسيح آخذ بأسباب النهوض يخوض أكثر من معركة فى أكثر من ميدان ، وأدباؤه - كعامة المكافحين من أهله - يكافحون كل فى ميدانه وبما تيسر له من سلاح ، ومعظمهم يخوضون معاركهم فى فلوات مترامية ويموتون دون ان يسمع بهم احد خارج الحدود وتذهب اخبارهم وما كتبوا مع الرياح ، وميادين السياسة هناك كبحار خطرة تجتاحها الرياح

الهوج ، ورياحها اذا عصفت فأول ما تعصف به هو الكاتب والاديب والشاعر والصحفى ، وما اكثر المنفيين منهم واهل السجون وسكان القبور ! وما أكثر من لصقت بهم « وصمة » الشيوعية فضاقت بهم الارض بما رحبت ! فلا ينزلون بلدا حتى يسرع اليهم رجال الامن والنظام ويقذفوا بهم وراء الحدود ! وراء الحدود ! وراء الحدود ! حتى يصيروا يا ويلاه خارج حدود البشرية والناس ...

ويزيد فى تعاسة أولئك الكتاب المكافحين فى العالم الامريكى الايبيرى أن الجو كله هنا يتجه بالطبيعة نحو الغنى والمال وتأييد الاغنياء واصحاب الاموال لان البلاد فسيحة جدا والثروات الطبيعية وافرة جدا ، واذا كان من العسير على الرجل الذكى أن يصل الى الملايين فانه من اليسير عليه ان يصل الى الالوف ، وما من شاب ذكى يتخرج فى الجامعة او يدخل التجارة او يتخذ حرفة مثمرة ويواصل العمل سنوات حتى يجد نفسه فى أوائل الأربعينات رجلا ثريا يقتنى العقار والأموال ويأخذ مكانه تلقائيا فى صفوف المحافظين والرأسماليين ويصبح عدوا لكل من ينادون بالاصلاح .

ونتيجة لهذا الحال نجد ان التقدم الاجتماعى فى أمريكا الايبيرية يسير بخطوات بطيئة جدا ، لان الذين يتعلمون ويذهبون الى الجامعات أو يشتغلون بالتجارة أو يعملون فى الحرف المثمرة ابناء طبقة واحدة محدودة جدا ، اما الباقون وهم الفلاحون والهنود وعمال المدن والموانى فهم فى نفس الفقر المدقع من عشرات السنين . وقد نبه الى هذه الحقيقة وحذر من نتائجها الباحث الاجتماعى الامريكى اوسكار لويس فى دراسة اجتماعية ميدانية تعتبر من روائع البحوث فى عصرنا هذا عنوانها : أبناء سانشت . The Children of Sanchet

وقبل أن أنتقل الى ميجيل آنخل أستورياس أحب أن أضيف أن الانسان ينبغى أن يتخذ الحذر عندما يتحدث عن أمريكا الايبيرية ، فليس كل الذين يتحدثون عن حرية الفكر هناك بأحرار فكر ، فان الكثيرين منهم زيوف وطلاب أرزاق ، وأضيف أيضا أن المسئولية فى الكثير مما يشكوه أهل أمريكا الايبيرية ترجع اليهم أنفسهم لا الى الامريكيين الشماليين وحدهم ، ففيهم من أهل الاستبداد والطغيان والصلف والايمان بالمال وحق أصحاب المال فى سيادة الآخرين ما لا يخطر ببالك أن فى أيامنا هذه — وفى غيرها — بشرا صاغ الله عقولهم على هذه الصورة .

قلت ان الجو العام فى أمريكا الايبيرية يتجه نحو تأييد الاغنياء وأصحاب الأموال ، وأضيف هنا أن تلك البيئة نفسها توقر أهل العلم والمتعلمين أو من يسمونهم هناك بصفة عامة los popesionales وهم هناك أهل القانون والهندسة والمعلمون والصيادلة ومن اليهم ، وهم فى مجموعهم طبقة لها وزنها ، بل هذه هى الطبقة الحاكمة اليوم فى معظم بلاد العالم الامريكى الايبيرى بعد أن انقضت فترة الدكتاتوريات العسكرية التى كانت تقوم هناك بتأييد خارجى وتحكم البلاد لصالح بلاد أجنبية أولا ثم لصالح أفرادها ثانيا .

وفى ظل هذه الدكتاتوريات العسكرية ولد ونشأ ميجيل أنخل أستورياس ، ورصد قلمه لكفاحها طوال شبابه وكهولته .

وعلى هذا الكفاح بنى مجده الأدبى ، وكتب أحسن رواياته .

وقد وقع فى قبضة رجال الدكتاتوريات أكثر من مرة ، وكان من الممكن أن يطيحوا برأسه كما فعلوا بالمئات غيره ، ولكن أباه كان قاضيا ، وهذه أبوة تجعل له فى الناس مكانة وحماية ، وكان هو نفسه متخرجا فى الجامعة ، حاملا لاجازة الحقوق متخصصا بعد ذلك فى الأدب والآثار والاجناس ، وهذه علوم كانت حقيقة بأن تعفيه من المهانة والأذى وأن تجعل الطغاة — مهما قست قلوبهم — يفضلون القاءه وراء الحدود على اهدار دمه ..

ولد ميجيل آنخل استورياس miguel Angel Asturias سنة ١٨٩٩ فى جواتيمالا عاصمة جمهورية جواتيمالا ، ثالثة جمهوريات أمريكا الوسطى من حيث المساحة ومن أكثرها سكانا ، اذ يبلغ عدد سكانها حوالى الاربعة ملايين نسمة تسعون فى المائة

منهم من الهنود وان كانت أسماؤهم كلها أسبانية ، واستورياس نفسه منهم وان كان اسمه أسبانيا قحا ولكن وجهه اذا طالعته لم تجد فيه قسمة واحدة من شبه الجزيرة الايبيرية ، وهو نفسه يقول ذلك ويفخر به ، وآخر رواية نشرت له وهى المسماة مولاتا Mulata أى المرأة الهجين أو المخلطة ملأى بالحديث عن أساطير قبائل الجواتيمالا وأبطالها من أمثال تشيانتلا Chiantla واجوكاتان Agucatan وتشيشيكوستنانجا Chichicostenanga ممن يعتبرهم هو الابطال الحقيقيين للتاريخ الجواتيمالى ٠

عندما دخل ميجيل آنخل استورياس الجامعة كانت جواتيمالا تحتضر تحت وطأة دكتاتور جبار يسمى مانويل استرادا كابريرا حكم البلاد بيد من حديد ٢٢ سنة متوالية عزلها خلالها عن العالم تماما ، ولم تسترح البلاد منه الا بثورة عسكرية أطاحت به سنة ١٩٢٠ ٠ ولكن الحكام الجدد لم يكونوا خيرا من القدامى ، فازدادت الحال سوءا ، وتجرد الشباب الطامح لمحاربة الفساد ، وبرز من بينهم استورياس ٠ وتتبعه رجال المستبدين فخاف عليه أهله ، فما زالوا به حتى أخرجوه من البلاد الى المكسيك ، ومن هناك الى فرنسا ليتم تعليمه هناك ٠

فى فرنسا درس الحقوق والآثار والأجناس ٠٠ كان ذهنه مشتغلا دائما بأجداده الهنود وأجناسهم وآثارهم ٠ فى نفس الوقت مضى يكتب عن بلاده ٠ كان أول ما كتب مجموعة من أساطير جواتيمالا ، نشرها أولا بالفرنسية ثم بالاسبانية بعد ذلك ٠ كتب له المقدمة بول فاليرى وهو شاعر فرنسى كان فى تلك الايام أشبه بالأديب الرسمى لفرنسا ٠ كتب فاليرى فى المقدمة كلاما يدل على فهم وذوق ، ويدل كذلك على أن استورياس كان من أول الامر أديبا أصيلا منبئا بالكثير ، قال : « هذا الكتاب يشرب أكثر مما يقرأ ٠ كانت قراءته بالنسبة لى وكأنها مخدر رأيت بعد أن تناولته حلما ثقيلا أحسست له مع ذلك بلذة فريدة ٠٠٠ أما كاتبه فشاب ضخم ذو وجه عريض داكن اللون يحسب الناظر اليه أنه يتأمل قطعة نحت من تماثيل هنود المايا ٠ تحت القابه الاسبانية ترقد جذور هندية ، وهو يحمل فى كيانه بفخر كبير أثقال الهندى المستعبد ٠٠ »

***

فى سنة ١٩٣٣ عاد أستورياس الى وطنه فى ذلك الحين كانت جواتيمالا فى حال سيئة جدا ٠ كانت أرض الفقر الاسود ، كانت بلادا بلا عمل وعمالا بلا بلاد كما قال مفكر أمريكى هو خليان بياجار Julian Villagar ٠ كان هنود جواتيمالا — وهم معظم السكان — يعيشون من شىء واحد : الذرة : يزرعونها ويأكلون منها ويطعمون خنازيرهم ويشترون بالباقى ما يحوجهم من ضرورات الحياة القصوى ٠٠ لقد خلد أستورياس شقاء أولئك الناس فى رواية مشهورة فى الأدب العالمى كله هى « رجال الذرة » ٠ انها رواية بشعة لاتستطيع أن تقرأ عشر صفحات منها دفعة واحدة ، لأن البؤس يتراكم فيها على صورة لا نحتملها نحن الذين لم نعرف من البؤس الا القليل اذا قيس الى ما عرفه غيرنا ٠ هنا بؤس أشد ايلاما للنفس مما صوره خورخى ايكازا فى قصة واسيبونجو التى تصور تعاسة هنود الاكوادور ٠٠ ان استورياس يبالغ أحيانا ويخلط فى قصصه الحديث صورا من بشاعات حروب الهنود والاسبان لأنه فى أحيان كثيرة يسبح به خياله فينتقل وهو يكتب الى عالم هندى خالص كأنما ترتد به الذاكرة دون وعى منه الى دنيا أجداده قبل مجىء الاسبان والكشف الكولومبى ٠

عاد أستورياس اذن الى وطنه واشتغل بالصحافة والاذاعة والأدب ونشر روايات منها هذه التى أشرنا اليها وبدأ اسمه يذيع فى بلاده كرجل مصلح وكاتب تقدمى ٠ خلال الثلاثينات أخذ السلطان الاقتصادى للولايات المتحدة يتزايد فى جواتيمالا وكل بلاد أمريكا الوسطى يوما بعد يوم ٠ كان عصر السيطرة عن طريق الدكتاتوريات العسكرية فى طريقه الى النهاية ليحل محله عصر السيطرة عن طريق الشركات الكبرى ورأس المال ٠ يتولى هذا الأمر فى جواتيمالا وغيرها من بلاد أمريكا الوسطى شركة هائلة هى اليونايتد فروت (الفواكه المتحدة) ٠ أثناء الحرب الثانية وخلال

الاربعينات ثبتت اليونايتد فروت أقدامهـــا تماما ، وقبضت على زمام السياسـة بيد من حديد من وراء ستار ٠٠٠

كان رد الفعل عنيفا ٠ فى الـكثير من هذه البلاد قامت ثورات ضخمة محاولة الفكاك من ذلك القيد ٠ فى جواتيمـالا تولى الثورة قائد مشـهور فى تاريخ أمريكا اللاتينيـة كله هو خاكوب (يعقوب) اربنز قزمان ، وتولى الامر وبدا حركه اصلاحية عامة من أهدافها تحرير الهنود الفلاحين ٠٠ انضـم ميجيـل آنخـل استورياس للحركة وأيدها بقلمه ولسانه ٠ عينه اربنز سفيرا فى بوينوس أيريس ثم فى باريس ثم فى السـلفادور ٠٠ أصـدر اربنز قرارا بتأميم املاك شركة اليونايتـد فروت ٠ كانت تلك قاصمة الظهر لحركتـه ٠ فى سنة ١٩٥٤ فوجىء بثورة عسكرية يقودها ضابط يسمى كاستيوآرماس تؤيده قوات ضخمة من « المتطوعين » الامريكيين ٠٠ فى وقت قصـير تلاشى أمر اربنز وسقط نظامه وأصبح الأمر بيد كاستيو آرماس ٠٠ كان من أولى قراراته اعادة أملاكاليونايتد فروتوتجريد استورياس من جنسيته ٠٠ مرة خرى عادت جواتيمالا الى ما كانت عليه ، وعاد استورياس الى المنفى الى شقاء الحياة وراء الحدود ٠٠

ولكن الحياة لا تعود سـيرتها الاولى أبدا ٠ مهما تخيلنا أن الامور عادت الى ما كانت عليه ، فان شيئا ما لابد أن يكون قد تغير : مضى آربنز لسبيله واتهموه بالشيوعية ولعنوه فى كل كتاب ولكن بقيت صـيحته تتردد فى الجو ، ولم يكن الرجل صالحا قطعا ولا كان مصلحا بمعنى الكلمة فقد كان رغم نياته الطيبة طائشا أهوج قاسى القلب يغلبعليه الجهل والكبرياء ، ولكنهكشف النقاب عن تعاسة الهنود ولفت النظر الى ضرورة عمل شىء للنهوض بهم ٠ وكذلك استورياس : عاد الى المنفى ولكنه كان قد اصبح شيخا حكيما مجربا دخل بالفعل فى نار المعـركة وأحس باللهب ، فهو ليس مجـرد اديب متحمس كما كان قبلا ، وانما هو الآن استاذ مجرب يرى عن بعد ويحس فى عمق ويتكلم فى رزانة ويكتب عن تفكير طويل ٠

فى منفاه فى بوينوس ايريس نشر قصـته الكبرى « السيد الرئيس » التى يقال انهـا أعظم رواية سياسية ألفها اديب من أهل امريكا الايبيرية عن سياسة بلاده أيام كانت هـذه السياسة تصنع فى الخارج ويقوم على تنفيذها عملاء فى الداخل يرمز لهم استورياس بذلك الشخص الفخم الضخم السيد الرئيس وما هو فى الواقع الا الطاغية الاسبق وصنيعة المصالح الاجنبية مانويل استرادا كابريرا ٠

كان استورياس قد فرغ من هذه الرواية حوالى سنة ١٩٤٠ ونشرها اول مرة سنة ١٩٤٦ فى جواتيمالا ، فلم تلبث ان صـودرت ، ثم اعاد نشرها فى بوينوس ايرس سنة ١٩٥٧ بعد أن عدلها تعديلا جوهريا ، فما ظهرت فى السوق حتى صودرت مرة ثانية ، ثم اقبل رجال الشرطة فالقوا القبض على صاحبها وصدر الحكم بطرده من الارجنتين ، فرحل الى باريس ٠

الرواية فاجعة صغيرة ترمز الى فاجعة اكبر مسرحها جواتيمالا ولكن ميدانهـا الحقيقى هو أمريكا الايبيرية الهنديه كلها ، فالرئيس فيها رجل طاغيـه ظالم يحكم بدون قلب ويتصرف بدون عقل ويضرب دون حساب ، مسـاعده وذراعه اليمنى رجل يسمى ميجيـل كارا دل انخل — أو اذا شئت ميخائيل وجه الملاك — شيطان مثله، ولكنه فىقرارة نفسهغير مجردمن الخير ونوازعه، انهيريد أنيقلع عنالشرودواعيه ولكنه لايستطيعلان سيده–واصحابه منورائه– يأمر وينهى ٠ ومن وراء سيده واتباعه سـادة هذا السيد وهم اليانكى، وهم ناس أقوياء جدا حتى ليبدو البشر ازاءهم حشرات ، متحضرون جدا حتى ليحسبون بقية البشر همجا ، أغنياء جدا حتى لينظرون الى أهل الارض نظرتهم الى المتسولين ، وهذا الرئيس فى نظرهم واحد من المتسولين ، ومساعده هذا متسـول على باب المتسول ، وهم يرسلون عليهما معا جيشا من الجواسيس والعيون ، فلا يستطيع الواحد منهما ان يتحرك الا باذن ، وهم يستخدمونهمـا والوفا غيرهما فى استغلال مئـات الالوف من الهنود فى المزارع والمصانع والموانى كيف ومتى وبأى ثمن شاءوا ، وهم يأمرون هذا الرئيس أن يصنع لهم برلمانا فيصنع لهم البرلمان ،وأن يضع دستورا فيكون الدستور ، وان يقر هذا القانون فيمر هذا القانون٠ وخلال عجلة الحوادثالدائرة

ترى تيار دم الهندى المسكين يجرى انهـــارا فتستقى منها جماعات بعد جماعات من الطغـاة والمستبدين والمستغلين والاغنياء .

ويعشق ميجيل كارا دل أنخل ابنة لواحد من كبار رجال الطاغية ، ويتفق معها على الفرار بمبلغ ضخم من المال ، ويدبر معهـــا كل شيء بمعاونة الرئيس ، فاذا تم كل شيء ووصل الى المطار مع صاحبته ومعه المال وجواز السـفر المزيف وكل شيء يجد رجال البوليس السرى فى انتظاره . هنـــاك يلقون القبض عليـه ويجردونه - بأمر رئيسه - من كل شيء ويقتادونه الى السجن حيث يلقونه فى الزنزانة رقم ١٧ .



حديث مع استورياس

عقب حصول ميجيل انجل استورياس على جائزة نوبل . اجرى معه مندوب شركة الأويرو فيزيون الحديث التالى فى مكتبه فى سفارة جواتيمـــالا فى باريس . وقد نشر الحديث بعد ذلك فى صحف كثيرة .

قال المندوب :

- قلت لى ان الجائزة انما منحت على الحقيقة لأمريكا الاسبانية كلها ؟

- هكذا اعتبرها . لقد قصدوا عن طريقى الى تكريم جيلين من الكتاب استطاعا ان يضعـــا آدابنا بين أول الآداب العالمية .

- هل كنت تتوقع الجائزة ؟

- لقد ذكروا اسمى مرارا ، ولكنى ما كنت اصدق، ثم ان هناك دائما مؤثرات كثيرة وضغوطا شتى . هـذه المرة لم يكن هناك اى ضغط .

- لماذا فى رأيك اختاروك من بين المرشحين لجائزة نوبل من أدباء أمريكا اللاتينية من أمثال بورخس وجين ونيرودا وكاربنتييه ؟

- اعتقد أن السبب هو ما قمت به من الجهـد فى سبيل ترويج الرواية الاسبانية الامريكية عن طـريق المحاضرات التى القيتها فى نواحى الدنيا كلها .

- فى أى صورة تقدم الرواية الاسبانية الامريكية الى العالم ؟

- احاول ان اظهر طابع الكفاح فيها . ان رواياتنا ليست وثائق ميتة للحفظ فى المكتبات والمتاحف . ان لآدابنا اليوم نواحيها الانسانية والاجتماعية والسياسـية التى تجعل منها وثائق حقيقية اساسية وحية .

- هل تذكر خطواتك الأدبية الأولى ؟

- اذكر ان زملائى فى المدرسة كانوا يطلبون منى ان اكتب لهم خطابات حب لخطيباتهم . بعد ذلك فى سنة ١٩٢٢ كتبت نشيد الحرب للطلاب ، وهو نشيد لاتشالانا ولا زال الطلاب يغنونه الى اليوم .

- واذن فقـــد اتضح لك جانباك : الشـــاعرى والاجتماعى ؟

- فعلا ، وقد تأكدت الناحية الثانية - الاجتماعية- عندما كتبت رسالتى التى ختمت بها دراستى عن «المشكلات الاجتماعية للهندى » .

- لقد بدأت بكتابك الأول « أساطير جواتيمالا » عملك الشعرى .

- نعم ، كان هذا الكتاب صمام الأمن بالنسـبة لى بينما كنت أقوم بأعمال علمية خاصة بالثقافة الجواتيمالية السابقة على الكشف الكولومبى . لقـد نشر هذا الكتاب فيما بعد فى مدريد سنة ١٩٣٠ ، ولا زلت اذكر النقـد المشجع الذى نشرته مجلة « ال سول » .

- ولكن الكتاب كتب فى باريس، وقد تحدث الناس كثيرا عن الأثر السور - ريالى فى أعمالك على الاطلاق .

- ان الفرنسيين يخلطون بين السور - ريالية وما نسميه نحن بالواقعية السحرية ، وهما على الحقيقة امران جد مختلفين . ان السور-ريالية الفرنسية نتاج فرنسى

هنا ترفع القصة الستار عن جانب بشع من جوانب الحياة السياسية فى جواتيمالا وأمريكا الايبيرية فى تلك السنوات : جانب السجون والمعتقلات والاضطهادات السياسية • كان ذلك عالما بشعا فاق كل ما أشبهه فى العصور الحديثة بل الوسطى : فى كل بلاد أمريكا الايبيرية ، من المكسيك الى جزيرة النار على حدود القطب الجنوبى ، قامت السجون وحفلت بالمساجين والمعتقلين وغرف التعذيب والمشانق • أشياء بشعة جدا يصفها لنا استورياس فى قصته هذه مبالغا حينا وملتزما

عقل خالص ، اما السوريالية التى تلاحظ فى اعمالى فهى اسبانية أمريكية خالصة ، انها نتاج مباشر ، شعبى خالص • ان الهندى يعيش فى عالمين : العالم الذى يحسه ويلمسه ، والعالم الذى يتخيله • هذان العالمان يختلطان فى ذهنه فيتحول الحقيقى الى متخيل ، ويتحول عالم الأحلام الى حقيقة ، هذه هى واقعيتنا السحرية •

ـ كان بول فاليرى من أوائل من فهموا أدبك •••

ـ وكان بالذات أول من نصحنى بالعودة الى جواتيمالا ، وقد اطعته • لن أنسى كلماته أبدا • قال لى: الآن تفتحت عيناك لترى ما لن يستطيع غيرك أن يراه • سنة ١٩٣٣ رحلت من باريس الى امريكا وانا متأهب لأن ارى واسمع وافهم ، لأن ارى الحقيقة واتعمق فى عالم الهندى ••

ـ وهنا تبدأ حقيقة « الحقبة الاجتماعية » من تاريخك الذهنى ••• هل تعتقد أن القصة عموما تستطيع أن تغير واقعا اجتماعياً ؟

ـ الموضوع هنا ليس موضوع تغيير ، بل مشاهدة ما يقع من التغييرات ولفت النظر اليها واسماع الناس أصوات الجماهير الشاكية من آلامها • ان من واجبات الأدب توضيح الأشياء فى أذهان الجماهير ، ومن اهدافه كذلك خلق جو مناسب خارج البلاد لفهم المشكلات المحلية واستجلاب العطف عليها والتقدير للجهود التى تبذل لحلها •

ـ هل تعتقد أن لجنة المحكمين لجائزة نوبل عندما ذكرت فى قرارها ثلاثيتك : « الرياح العاصفة » و« البابا الأخضر » و « عيون المدفونين » ـ أرادت أن تنص بذلك على أهمية عملك الأدبى بالنسبة لواقع الامور فى أمريكا الاسبانية ؟

ـ عندما كتبت رواية « الرياح العاصفة » لم اكن أفكر فى جواتيمالا وحدها بل فى كل البلاد المجاورة التى دخلتها وسيطرت على شئونها الشركات الكبرى ، وكل المشكلات التى عالجتها فى قصة « عيون المدفونين » لازالت قائمة •

ـ يقولون انك وخاكوبو آربنز كنتما من ألد أعداء شركة اليونايتد فروت ؟

ـ لقد حكيت فى رواياتى ما رايت وعرفت من أمور هذه الشركة • ولكنى اريد ان أضيف ايضا ان هذه الشركة تمثل ٢٧٪ من النشاط المالى والاقتصادى لبلادى، وانها لم تكن تدفع اجرا سيئا بل على العكس كانت تدفع أحسن من الشركات الاخرى ، ولكنها لم تكن تحترم قوانين جمهوريتنا مما جعلها فى احيان كثيرة تبدو وكأنها دولة داخل الدولة •

ـ كيف تكتب رواياتك ؟

ـ اننى منذ اللحظة التى اشرع فيها فى كتابة واحدة منها اعتبر نفسى موظفا فيها ، بالضبط كانى موظف فى أى مصلحة او مؤسسة : أنهض من نومى فى الخامسة صباحا ، وفى الخامسة والنصف تجدنى على مكتبى اكتب واكتب حتى التاسعة والنصف بغير انقطاع • اننى أكتب القصة على مرحلتين : الأولى تستغرق ما بين ستة شهور الى ثمانية ولا تكلفنى جهدا كبيرا لأننى أكتب كل مايخطر ببالى ، اكتب فى فيض وغزارة صفحات بعد صفحات حتى افرغ من القصة •

ثم تبدأ المرحلة الثانية ، وهى الأصعب والأعقد : اعود الى ما كتبت سطرا سطرا ، بل كلمة كلمة ، أراجع واعيد وانقح ، واشطب واضيف • عملية مجهدة حقا ، تستغرق ما بين سنتين وثلاث • هذه هى العملية الرئيسية •

ـ وماذا ستعمل بعد الجائزة ؟

ـ أولا سأذهب الى استوكهولم لأتسلمها فى العاشر من ديسمبر •

ـ ثم ؟

ـ قد اترك السلك السياسى بعد ذلك لأتفرغ للكتابة •

ـ فى نفس الاتجاه ؟

ـ بالأمس حضرت انت حفل ذكرى ميلادى الثامنة والستين ، فى هذه السن يصعب على الانسان ان يغير اتجاهه •

الواقعية حينا آخر • ولكنه بليغ بعيد الأثر فى النفس فى كل حين •

كان لهـذه الرواية دوى بعيد فى نواحى أمريكا كلها — حتى فى الولايات المتحدة ترجمت وطبعت أكثر من مرة • طبعها ناس كثيرون طبعات قراصنة ووزعوا منها عشرات الألوف • عندما قرأتها جابرييلا ميستراك شاعرة أمريكا اللاتينية الذائعـــة الصيت ثارت نفسها ثورة شديدة وكتبت تقول : « لا أدرى من أين طلعت علينا هذه الرواية الفريدة التى كتبت بسهولة التنفس وجـرت سطورها مجـرى الدم فى الجسد • ان اللغة الســيالة الطلقة التى بح صوت أونامونو فى المطالبة بها بعد أن سئم ومل عباراتنا البلاغية الحقيرة المثقلة بالادعاء ، هذه اللغة نجدها هنا فى هذه الرواية على نحو لم يخطر للدون ميجيل (أونامونو) على بال • لقد أتحفتنا جواتيمالا ذات الأسرار ، بلدالهنود الخلصاء ، بهـذا العمل الأدبى الذى سيظل خالدا أبدا ، لقد كشفت جواتيمالا به عن نفاقنا الذى نسميه وطنية • انه علاج ، انه تطهير ، انه ضرورة بل تكفير ، انني أعلم أن المؤلف قد عانى كثيرا حتى استطاع أن يكتب هذا الكتاب ، وسيبيع هذا الكتاب من الكثيرين موقعا سيئا ، فليسمع هذا! مؤلفه وليمض فى طريقه ... »

* *

هذا يصـــل بنـا الى الســتينات الأولى ، أيام أخذت الدراما السياسية فى أمريكا اللاتينية تهدأ رويدا رويدا • تعب النـــاس من كثرة الانقلابات والفورات والفتن وطلبوا الهـدوء والاستقرار • حتى الأحزاب الثورية أصبحت ثورية فى الظاهر فقط : شاخ زعماؤها وتولى أمرها زعمــاء شـــبان طامعون فى السلطان والراحة والمتاع ، اجتاحت القارة كلها نداءات الاستقرار والتقدم والعمل والبناء • شعارات اختفت وراءها مطامع وآمال • وربما كـــان بعضها مخلصا ، ولا يعلم ما بالقلوب الا الخالق القلوب •

هذه أيضا كانت أيام الثورة الكاسترية فى أوجها • من جزيرته التى تشـــبه قاربا مقلوبا فى البحر الكاريبى المضطرب كان فيدل كاســـترو ينادى بأعلى الصـــوت داعيــا الامريكتين الوسطى والجنوبية الى القيام فى وجه الظلم والاستغلال • جاءت دعوته متأخرة عن أوانها • لو أن فيدل هذا أتى فى الأربعينات أو حتى فى الخمسينات لكان له فى تاريخ العالم الجديد شأن أى شأن ، ولكن الدنيا كلهـــا دخلت فى الستينات فى عصر غـريب جدا : عصر مال كثير ينفق للقضاء على أعـداء المال ورأس المال والاســتغلال ، عصر تنظيمـات تكنولوجية فى غاية القدرة والخطورة ترسـم وتنظم وتضرب فى صمت حينا وفى ضوضاء حينا آخر ، عصر تحديات صريحة وفحة سافرة لا تبالى بشىء ، تفعل ماتريد ثم تقول : نعم نحن فعلناه ، ثم ماذا ؟ من أسابيع فقط سـقط فى أحراش بوليفيا رجل كان من الممكن أن يكون بطلا اسطوريا ، سقط كما يسقط اى خارج على القانون..نهاية ماكان أحد ينتظرها للبطل المغامر الأســطورى ايرنستو جيفارا صاحب الوجه الجميل ولحيـــة روبن هود وسحر كلام ميرابو .. ولكن هــذه هى الســتينات وهذا حكمها على جيفارا ومن يشـــبهه من الابطال والرجال .

فى أوائل الستينات هذه وضعت أمريكا على مائدة ضخمة ألف مليون دولار ، وجلست ومن حولها أصحابنا فى العالم الأمريكى الايبرى الهندى فى مصـــيف — أو مشـــتى — جميل غير بعيـــد من مـــونتفيديو يســـمى رأس الشرق — بونتادل است — وقالت : تعالوانعقد معاهدة للتقدم ، أنا أقدم المال وأنتم تقومون بالعمل ! وفعلت المعاهدة فعل السحر ، لأن المال الســـائل له فى البلاد الفقـيرة سحر ، فأصـــاب جواتيمالا من ذلك عشرة ملايين من الدولارات عوضت شيئا من الخســارة الفادحة فى البن وهو محصول البلاد الأول ، وأعقبت ذلك خمسون مليونا مشروطة بقيـــام حكومة معتدلة لا هى يمينية خالصة فيعاديها الشباب وأهل الاصلاح ولا هى يسارية متطرفة فيخافها أهل اليمين • وانتهى الأمر الى حكومة يرأسها خوليو سيزار منديس مونتنيجرو التى تولت الأمر فى العام الماضى وشرعت تتالف النـــاس من كل اتجاه وميل ، وبدأت كما تقول فى حياة جواتيمالا عصرا من الرخاء والاستقرار لم تعرفه

من قبل • حقا انهم كلهم يقولون ذلك ، ولكن هذه المرة – كما يقول استورياس – يبدو أنهم جادون •

ومادام استورياس يرى أن الدكتور مونتنيجرو جاد فلا مانع لديه من العمل معه• عاد مرة أخرى الى السلك السياسى – فى سن السابعة والستين – سفيرا فى باريس • سن عالية حقا ولكن هناك بلادا عاقله لا تقذف بالناس من النافذة عندما يصلون الى الستين •

نعم فان استورياس يقارب السبعين على طريق طويله كلها جهد وحرب فى سبيل بلاده وفى سبيل حرية الفكر والعداله • وكانت حربه على أعلى المستويات، فقد حاضر فى جامعات روما وباريس وكيمبردج ونشر الى الان سبع روايات ترجم بعضها الى ٣٦ لغة وأحصيت طبعات روايه «السيد الرئيس» ما بين رسمية وطبعات قراصنة فكانت ١٧٣ طبعة ، وفى سنة ١٩٦٦ حصل على جائزة لينين للسلام وقدرها ٢٨٠٠٠ دولار مكافأة له على «محاربته التدخل الامريكى ضد مصالح الشعب الجواتيمالى » • وفى هذا العام منحته أكاديمية أوسلو جائزة نوبل للأدب ، وهى أعظم تقدير أدبى يضاف اليه تقدير مادى قدره ٦٠٠٠٠ دولار •

ان استورياس يعد الآن كتابيه الثامن والتاسع ، الأول ترجمة حياته والثانى قصة أسطورية من الأدب الشعبى لهنود المايا ، وهو مفتون بهؤلاء فتنة بالغة وخاصة فى ذلك الدور الفضى من أدوار انتاجه الأدبى ، فيكاد تفكيره الأدبى كله الآن لا يخرج عن فولكلور بلاده والموضوعات الهندية الأصيلة •

يجتهد استورياس فى أن يكتب فى أسلوب أنيق يصل به أحيانا الى التعقيد وخاصة عندما يسترسل فى أوصاف فولكلورية أو تفاصيل قصصية شعبية لا يلمح الانسان الخيط الدقيق الذى يربط بعضها الى بعض ، ولكن رواياته السياسيات متدفقة الكلام كالسيل يندفع الانسان معها دون أن يدرى • فى بعض فقرات » رجال الذرة » اضطررت الى العودة أدراجى فصولا الى الوراء لأن الحد الفاصل بين الوصف الواقعى لرقيق الارض الذين يزرعون الذرة ويعيشون عليها هم وخنازيرهم فى أيامنا والوصف السوريالى لهنود المايا الذين كان هنود الازتيك يستعبدونهم فى الماضى ، هذا الحد كان يتلاشى عن ناظرى أكثر من مرة فما أدرى أأنا أقرأ عن المايا أم عن هنود اليوم ، ولا حل فى هذه الحالة الا بالبدء من جديد ، وهو حل متعب ولكنه زادنى بالرجل معرفة ، فعن طريق هذه القراءات المعادة تبينت الكثيرين من الكتاب الاسبان الذين أثروا فى استورياس أكثر من غيرهم : رامون ماريا دل فايى انكلان وجابرييل ميرو وميجيل او نامونو •

كنا نتوقع جائزة نوبل لشاعر الارجنتين خورخه لويس بورخس أو لكاتب فنزويلا رومولو جاييجو فجاءت صاحبنا هذا ، وهو بها جدير ، فهو صاحب رسالة وكفاح ،رسالة نبيلة وكفاح جليل •

علي الزيبق

بين السيرة والرواية

١

فاروق خورشيد من أكبر الدعاة لأدبنا الشعبى ، اثباتا لقضية الوجود الروائى فى الادب العربى ، ودحضا لمزاعم من يتهمون العقلية العربية بأنها لم تعرف القصة الا نقلا عن الغرب ، والقائلون بهذا الرأى الاخير أحد اثنين : اما ناقد لا يعترف الا بالفصحى لغة أدب ، واما ناقد تجمد عند المفهوم الروائى كما استقر فى الآداب الغربية بالرغم من أنه تطور عن مفهوم سابق وما يزال يتطور حتى اليوم·

وتمهيدا لذلك قام فاروق خورشيد بتقديم عدة دراسات عن الادب الروائى العربى فى تراثه القديم نشرها فى كتابيه « فى الرواية العربية ـ عصر التجميع » و « أضواء على السير الشعبية » وكذلك فى كتاب « فن السيرة الشعبية » الذى ألفه بالاشتراك مع الدكتور محمود ذهنى · والكتاب الاخير يحدد مكانة السيرة من الادب الروائى فيعلن أن :

السيرة أقرب الى الرواية التاريخية من حيث الأداة التى هى النثر ، ومن حيث الشكل وهو النص ، ومن حيث المضمون الروائى وهو الصراع ·· ولما كانت السير أسبق فى الظهور من الرواية ، لهذا فاننا نعتبر السيرة أصلا للرواية فى شتى صورها وشتى أنواعها · ونستطيع ـ ما دامت السيرة هى الاسبق ـ أن نجعلها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية (وهى الاسماء التى عرفت عندما تقادم العهد بالرواية وتطورت وتخصصت) وانما يمكن أن نسميها « الرواية الأم » أو « الرواية السيرة » · (فاروق خورشيد ومحمود ذهنى : فن كتابة السيرة الشعبية، دار الثقافة العربية، القاهرة ، صفحة ٥٥ ـ ٥٦) ·

ولم يقف فاروق خورشيد عند حد الدراسة كما فعل غيره من النقاد ، بل قام بمحاولة تقديم هذا الادب الروائى نفسه الى القارىء المعاصر ، فقام عامى ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ بنشر الصياغة الجديدة التى أعدها لسيرة سيف بن ذى يزن فى أربعة أجزاء ، الجزءان الأولان بعنوان «سيف بن ذى يزن» والجزءان الاخيران بعنوان « مغامرات سيف بن ذى يزن» وقد نال عنهما جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٥،ثم عاد فنشر صياغته الجديدة لسيرة على الزيبق·

ويعلن فارون خورشيد هدفه صراحة من نشر هذه المحاولات ، فيقول فى مقدمته للجزء الثانى من « مغامرات سيف بن ذى يزن » :

انـا نريد أن نكشف الغطاء عن الأصالة الفنية للسير الشعبية العربية التى تمثل جزءا



يوسف الشاروني

هاما من تراثنا الادبى ، وهو حتى الآن مايزال – مع الاحساس العميق بالمرارة – مغفلا من جمهرة الدارسين ، مبعدا من عالم الدراسات الادبية ٠٠ ولهذا كان لا بد لنا أن نلجأ الى الطريقة الوحيدة المقنعة ، وهى اعادة تقديم هذه السير تقديما يتمشى مع روح العصر ، ونستعين بكل ما يحتاج اليه من أدوات الروائى المعاصر لتكون قريبة التناول لملاءمتها لذوق العصر ومفاهيمه ، وليستطيع السادة الدارسون أن يكشفوا فيها – دون جهد كبير – حقيقة الجهد الفنى الذى تمثله ، وأصالة الابداع الادبى الذى تعكسه ، فتذهب السير بنفسها اليهم ما داموا لا يريدون هم الذهاب اليها ٠ (فاروق خورشيد : مغامرات سيف بن ذى يزن ، روايات الهلال ، العدد ١٩٣ ، ١٩٦٤ ، القاهرة ، جـ ٢ ، المقدمة صفحة ٧ – ٨) ٠

ففاروق خورشيد ، لأنه بسبيل اثبات قضيه ، لايدع القارىء يضرب فى متاهات بحثا عن هدفه مما يقدمه له ، بل يعلنه كلما أتيح له ذلك فى دراساته وفى مقدمات رواياته ، حتى اذا اقتضت دواعى النشر أن ينشر العمل فى جزئين أو أربعة أجزاء فانه لا يتردد فى كتابة مقدمة لكل جزء ، يشير فى كل منها الى هدفه وطريقته فى تحقيق هذا الهدف ٠ ويمكن اجمال ما يقدمه فاروق خورشيد من ايضاح لقرائه فى النقاط التالية :

اولا : أنه لكى تذهب السير بنفسها الى من لا يريدون الذهاب اليها ، فانه يقدمها تقديما روائيا معاصرا مع الحرص على السمات الأصلية للعمل فى الوقت نفسه ، فيستغل ما أتاحته له فنون القص الحديثة لابراز أبعاد الشخصيات ورسم صورتها والغوص الى أعماقها لتتحرك من صورة رسمها فنان بدائى الى عمل حى متحرك على قدر الامكان ٠

ثانيا : ومما يبرر له ذلك أن الوقوف عند أى نص من نصوص السيرة لا يفيد الا فى التعرف على الذوق اللغوى لعصر صياغته ، أما النص الأصلى فمجهول تماما ٠ ولهذا فقد أقدم على صياغة هذه السير من جديد لتلائم ذوق العصر الذى نعيشه ، تماما كما فعل من استهوتهم هذه السير فى عصور سابقة ٠

ثالثا : ان الهدف من وراء ذلك هدف ثلاثى، أوله اثبات قضية الوجود الروائى فى الادب العربى ، وثانيها تعرف القارىء فيها ومن خلالها على نفسه وعلى مفاهيم الشخصية العربية للحياة وموقفه منها والحصول على مضامين نابعة من صلب أرضه وعلى قيم فنية واجتماعية مما أبدعه أبناء شعبه والابانة عن أحلامهم وآمالهم، وثالثا أن تحل هذه الروايات

محل الروايات التاريخية وروايات المغامرات الاجنبية لطلاب المتعة والتسلية ٠

ورغم أننا لسنا بسبيل المناضلة بين ماقدمه فاروق خورشيد ومحاولات فى المجال نفسه لعباس خضر ، الا اننا نحب أن نشير هنا الى أن عباس خضر قدم ايضاحات مشابهة للايضاحات السابقة فى مقدميته لكل من «حمزة العرب» التى استمد أحداثها من سيرة «حمزة البهلوان» ، و «الصحصاح» التى استمد أحداثها من « سيرة ذات الهمة » ، ولعله كان متأثرا فى هذه الايضاحات بدراسات فاروق خورشيد بدليل أنه يشير الى هذه الدراسات فى مقدمة كتابه الذى نشره أولا وهو « حمزة العرب » ٠



والمعروف أن هناك ثلاثة طرق على الأقل فى تناول الاساطير والملاحم والسير ، فهناك اولا ما يعرف بتهذيب هذه المأثورات الشعبيه ، أى الاحتفاظ بالنص الأصلى كما هو أساسا مع ادخال تعديلات طفيفة كأن يكون تبسيطا لمعنى من المعانى أو كحذف بعض الالفاظ أو المواقف لاسباب أخلاقية لا سيما عندما يستهدف النشر الاطفال ، أو لابعاد الملل عن القارىء فى حالة الاسهاب أو التكرار ٠ وهذه أبسط الطرق وأبعدها عن الابداع ٠ والطريقة الثانية هى استلهام هذه المأثورات فى عمل فني يكون فى قالب مغاير لقالب الأصل الذى استلهم منه ، على نحو ما حدث فى المسرح الاغريقى حين استلهم الاساطير الاغريقية أو ملحمتى هوميروس ، فالقالب المسرحى غير القالب الاسطورى أو الملحمى، وهنا يظهر دور الابداع واضحا كل الوضوح بسبب تغير القالب الفنى وما يستتبعه بالضرورة من تغير فى دلالة المضمون ٠ أما ثالث الطرق وأصعبها فهو استلهام هذه المأثورات فى عمل فنى له نفس قالب الأصل المأخوذ عنه كأن نستلهم قصة فنية عن قصة شعبية ، أو كما يحدث عند كتابة مسرحية عن أوديب مثلا أو بيجماليون أو فاوست أو كليوباطره ، فهناك مسرحيات سابقة تدور حول هذه الموضوعات نفسها وفى القالب الفنى نفسه وهو المسرحية ، هنا يصبح دور الابداع فى حاجة الى مجهود أكبر للابانة عنه ، انه يتطلب اضفاء مضمون جديد بفهم جديد حتى تتضح الاضافه التى قدمها العمل الجديد عند مقارنته بالعمل السابق رغم أنه يتفق معه شكلا٠ وهذا هو الطريق الذى اختاره فاروق خورشيد ، أى انه اختار الطريق الضيق ، الطريق الذى يتساءل فى نهايته القارىء عن الدور الابداعى الذى قام به ، ففاروق خورشيد لا يقوم بمجرد عملية تهذيب للنص الأصلى لا يكون له فيها دور ابداعى ، ولا هو يقوم بتقديم عمل فني فى قالب مختلف عن القالب الأصلى المستمد منه بحيث يكون له دوره الابداعى واضحا ٠ ومما يجعل التساؤل أكثر الحاحا أن النص الأصلى لعلى الزيبق ، والذى أخذ عنه فاروق خورشيد قصته ، لم ينقل عن نص شفاهى ، أى لم يقصد به المستمع ، بل هو نص مكتوب للقارىء كأغلب نصوص السير ، بدليل أن كلمة « أيها القارىء » تتردد فيه حوالى عشر مرات ، أى أن فاروق خورشيد قدم نصا قصصيا مكتوبا للقراء مأخوذا عن نص قصصى مكتوب للقراء ، ومن هنا كانت رحلة البحث عما أضافته هذه المحاولة فى اطار ظروفها التاريخية التى نبعت منها ٠

وعلى الزيبق ـ طبقا للنص البيروتى الذى أخذ عنه فاروق خورشيد ـ ولد بعد مقتل والده حسن راس الغول فقامت أمه فاطمة بتربيته ، وهذه الظروف التى تقوم فيها الأم بتربية الابن لغياب الوالد تمهد ـ فى كثير من الاحيان ـ لظهور بطل أو عظيم أو رسول ٠

والزيبق بطل انسانى يشابه من بعض الوجوه أبطال الملاحم عند الشعوب الأخرى ، مثل يوليس بطل ملحمة الشاعر اليونانى هوميروس ٠ فيوليس كان قد اشترك مع اليونان فى حروب طرواده بآسيا الصغرى ، وبعد انتهاء تلك الحروب قفل راجعا الى وطنه

حيث زوجته وابنه ينتظرانه ، لكنه ضل فى البحر عشر سنوات ، وظل يكافح قوى القدر المختلفة بما فيها من عقبات ومغريات مستخدما شجاعته وذكاءه حتى وصل الى وطنه أخيرا ٠ وعلى الزيبق فى قصتنا المصرية يكافح بدوره كل ما يلقاه من عقبات ومغريات فى سبيل تحقيق هدفه وهو نشر العدل بين الناس ومقاومة كل ظلم واستبداد ٠ وهو يقوم برحلته البطولية ابتداء من أزقة القاهرة حيث ولد ليصبح مقدم درك مصر بعد معارك مضنية مع صلاح الدين الكلبى مقدم الدرك وقاتل أبيه ، ثم يتحرك فى طريقه الى الشام حيث يصبح - بعد معارك مشابهة - مقدم درك دمشق ، وأخيرا يصل الى هدفه فى بغداد حيث يصبح مقدم الدرك بعد معاركه البطولية مع دليلة المحتالة مقدمة الدرك هناك ٠

ويستطيع قارىء السيره أن يدرك أنها تعكس نظام الحكم التركى السياسى والاجتماعى فى مصر بأكثر من دليل لعل أهمها الطريقة التى بها يتم استيلاء الشاطر على الدرك ، فهى تشبه - الى حد كبير - استيلاء أحد المماليك على شياخة البلد من مملوك آخر ٠ ولكن الزيبق الذى خرج من أعماق الشعب المصرى ظل الى جانب هذا الشعب يدافع عنه حتى عندما وصل الى منصب مقدم درك بغداد٠ ومعنى هذا أن سيرة على الزيبق تقرر انتصار الخير على الشر ، وهو انتصار لا يفرضه القدر ، فالسيرة تخلو من الأحلام والتنبوءات - فيما عدا قصة نور الدين الجزوبى - وهى قصة واحدة من بين عشرات القصص - بل يفرضه ذكاء البطل وشجاعته وقوته ، فهى تؤمن أيضا بالانسان ايمانها بالخير ، فيتغلب حتى على القوى غير الانسانية كالسحر والجان والأماكن المرصودة والحيوانات الخرافية وان استعان ببعضها للتغلب على بعضها الآخر ٠

وتتميز الصياغة الجديدة لعلى الزيبق عن المصدر المأخوذ عنه بما يلى :

أولا : من ناحية الشكل

١ - النص الأصلى أكبر وحداته الفقره ، أما النص الجديد فمقسم الى فصول لكل فصل عنوان ما عدا الفصلين الثانى والثالث من الجزء الاول فمرقمان ٠

٢ - تسلسل الحوادث فى النص الأصلى مرتب ترتيبا زمنيا الا فى حالتين :

أولاهما اخفاء أمر عن القارىء ليفاجأ به فيما بعد ، كأن ينقذ شخص على الزيبق أو يقاتله حتى يكاد يهزمه ثم يتضح أنه ليس الا أمه فاطمه ٠ وثانيهما لان المؤلف لا يستطيع أن يتتبع أكثر من خيط واحد فى وقت واحد فينبه القارىء الى أنه سيرجىء الكلام عن شخص أو واقعة حتى ينتهى مما يرويه ٠ أما الصياغة الجديدة فاستخدمت التأخير والتقديم لاضفاء الوحدة الروائية على العمل الفنى ، فتجاوزت ذكر مصرع والد على الزيبق الذى بدأت به السيرة الأصلية وبدأت مباشرة بالزيبق وهو يتردد على الأزهر للدراسة ، ثم أشارت الى كيفية مقتل حسن راس الغول أثناء حوار دار فيما بعد بين على الزيبق وأمه ٠ كما أن الصياغة الجديدة لم تأخذ الا عن الصفحات الستين الاولى من نص تجاوز أربعمائة صفحة، ولم تكن دليله المحتالة قد ظهرت بعد فى هذه الصفحات الاولى ، ولما كانت بطولة على الزيبق تتركز أساسا فى صراعه مع دليله المحتالة فقد استدعتها المحاولة الجديدة من الصفحات المتأخرة فى المصدر وأدمجت دورها فيما عرضت له من أحداث ٠

ثانيا : من ناحية المضمون

١ - ولما كانت هذه الصفحات الاولى فى المصدر لا تتناول الا البطل فى مرحلته الاولى ٠ ولما كانت المرحلة الاولى فى معظم السير لا تتصل بحوادث تتدخل فيها قوى غير انسانية ، فقد خلت الصياغة الجديدة من هذه القوى واعتمدت أساسا على حدود القوى الانسانية كاصطناع الحيلة والشجاعة والقوة الجسدية واستخدام السلاح والتنكر والبنج لتخدير الأعداء وضد البنج لابطال تاثيره واستخدام النفط الذى ينير ظلام الليل ٠٠الخ وهكذا بدت الصياغة الجديدة فى حدود العقل الانسانى وان غاب عنها ذلك المذاق الخاص

الذى يضفيه تدخل القوى الغيبية فى مثل هذه السير .

١ ـ وللملاعيب بين الشطار فى النص الأصلى قواعد وشروط تجعله أشبه بالمبارزة بين فرسان العصور الوسطى . حقا انها تنطوى فى معظم الاحيان على كثير من العداء قد يصل الى حد قتل أحد الطرفين للآخر ، لكن ذلك كله يتم من خلال شروط تجعلها أقرب الى نوع من أنواع الرياضة وان كانت رياضة خطره . فالزيبق حين يصل الى بغداد يطالب دليله أن تجرى معه الملاعيب فيقول « أنا ما حضرت الى بغداد لكى أقعد بطال فاجرى معى الملاعيب . » وطالب أن يلاعبها حسب الشروط (سيرة على الزيبق ، مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٣٠ ، ص ١٤٨) . وعندما طلبت دليله من الخليفة هرون الرشيد أن يأمر بنفى الزيبق من بغداد غضب وشتمها قائلا « مرادك أن تعلمينى الظلم وأنت لما ذهبت الى مصر ولعبت عليه ماعارضك أحد، وهكذا هو أتى ليلعب عليك فى بغداد » (السيرة ص ١٤٦) . وعندما بدا أن على الزيبق قد هزم دليله وطالب بتسليمه منصبها اعترضت وقالت للخليفة « انى ما فرغت من الملاعيب الآن ، فان بينى وبينه أربعة عشر ملعوبا سبعه من البطاله وسبعه من العماله». (السيره ص ١٦١) . وفى مكان آخر نجد عمر الخطاف صديق على الزيبق يلعب معه ملعوبا «تطريبا للقلوب» (السيرة ص ٢٠٣) . وأمه فاطمه لعبت معه أكثر من ملعوب لتختبر مدى صلابته .

والملاعيب هى الطريقة التى يقدم بها المؤلف معظم شخصيات السيره ، اذ يظهر الشاطر فى مكان ما ويجرى الملاعيب مع حاكم مدينته أو أهل قريته حتى يضج منه الجميع ، وبعد أن يحاط بهالات البطولة يجمع المؤلف بينه وبين الزيبق عن طريق ما يجرى بينهما من ملاعيب لتثبت أهميته وبطولته ، وحين يتغلب الزيبق عليه يصبح من رجاله ، لكنه قبل أن يتسلم منصبه عليه أن يقوم بعمل «نفيله» أو أكثر ، واذا كانت المرحلة الاولى من حياة البطل ـ مرحلة الملاعيب ـ تدور فى اطار الحدود الانسانية ، فان المرحلة التالية مرحلة القيام بالنفيله ـ وفيها يكون البطل قد استكمل أدوات كفاحه ـ تدور في اطار ما وراء الحدود الانسانية حيث يتغلب فيها البطل على جان أو سحر أو أشياء مرصودة أو حيوان خرافى ، وقد يتطلب الامر معاونة الزيبق للبطل مما يجعله أسير شهامته .

وقد خلت الصياغة الجديدة من المفهوم الرياضى على هذا النحو للملاعيب ، وجعلتها تعبيرا عن ثورة حقيقية على الظلم ومرتكبيه ، وعن عداوة جادة بين الزيبق من ناحية وصلاح الدين الكلبى ودليله المحتاله من ناحية أخرى. كما خلت من القيام بالنفيله لأن الجزء الذى تناولته من الاصل يخلو منه وكذلك تمشيا مع اخضاع المضمون الروائى للحدود العقلية فى الصياغة الجديدة ، واستبعاد كل ما يتصل بالقوى غير الانسانية ومنها تلك التى تسيطر على توجيه أحداث النفيله .

٣ ـ كذلك خلت الصياغة الجديدة من وسيلة أخرى كان البطل يتخلص بها هى خدمة الصدفة له ، والصدفة فى العمل الفنى معناها عدم وجود المبرر أو عدم التمهيد لما سيقع . وهذا ما عالجته المحاولة الجديدة ، فهى تسبق الى التمهيد لما سيقع بحيث يبدو وقوعه فيما بعد طبيعيا لا مجال للصدفة فيه .

٤ ـ كذلك الخطأ التاريخى الذى تقع فيه السيرة الاصلية قد تم التخلص منه فى الصياغة الجديدة ، لأنها تفادت ذكر أسماء الملوك والحكام . فالسيرة الاصلية تذكر أن حوادثها وقعت عندما كان أحمد بن طولون يحكم مصر وهرون الرشيد على رأس الخلافة فى بغداد ، ونحن نعرف أن بين نهاية حكم هرون الرشيد وبداية حكم ابن طولون ستين عاما ، كما كان على الزيبق يتردد فى طفولته على الأزهر وهو الذى أنشىء أيام الفاطميين بعد حكم ابن طولون بسنوات . والصياغة الجديدة تذكر تردد الزيبق على الازهر فى طفولته دون ذكر اسم أى حاكم من الحكام .

٥ ـ يشمل المصدر قصصا تعرض للجوانب

الجنسية شاذة وغير شاذة ، وان كانت فى أسلوب لايخدش الحياء ٠ وقد أغفلت الصياغة الجديدة تلك القصص واقتصرت على تناول العلاقة العاطفية بين على الزيبق وزينب ابنة دليلة المحتالة ، وهى علاقة تترجح بين الحب العاطفى والرغبة الحسيه ٠

٦ ـ كذلك تخلصت الصياغة الجديدة من عدم حياد المؤلف فى النص الاصلى ، فهو يتدخل أحيانا مناصرا شخصية على أخرى ، وأحيانا أخرى للتنبيه أو الشرح ٠ فمؤلف النص القديم معجب ببطله على الزيبق كاره لعدوته دليله المحتالة حتى ليصفها بانها «كالحة الوجه قبيحه » ، وهو ليس تعبيرا عن وجهة نظر أعدائها فيها بل عن وجهة نظر المؤلف مباشرة حتى لنراه يقول عنها فى موضع آخر « فانظر أيها القارىء فعل بنت الأوغاد » ٠ ويصف زواج الزيبق بزينب بقوله :

وفى اليوم الحادى والستين كتبوا كتاب على الزيبق شاطر الشطار ، على سيدة الاحرار ، ذات الخد الوضاح ، وغرة الصباح ، من فاقت البدر حسنا وكمالا ، والغصن قدا واعتدالا ، زينب ابنة دليله ، محاها الله من تلك القبيلة٠ (السيره ص ٢٢٥)

كذلك يتدخل المؤلف من حين لآخر بالشرح والتعليق فيقول « ولنرجع الآن الى سياق الكلام » أو « سوف يأتى لذلك حديث » و « قال له على قم الآن واذهب ، فانصرف ذلك الرجل عنه وسوف تنظر أيها القارىء ماذا يبدى (يقصد يبدو) منه ٠٠٠ الخ

ثالثا : الاسلوب واللغة

وهذا يقودنا الى الحديث عن اللغة بين المصدر والصياغة الجديدة ، فالحوار أولا مستخدم فى النص الجديد لابراز معالم الشخصيات ٠ وهو موجود فى المصدر لكنه لا يؤدى وظيفته الفنية فى التمييز بين الشخصيات الا فى حالات قليلة كأن تكون الشخصية غير عربية فترد ألفاظ على لسان تلك الشخصيات يحاول بها المؤلف أن يسبغ الطابع الأجنبى عليها ٠



٢ ـ ولغة المصدر بوجه عام خليط من العربية الفصحى والعامية المحلية ، تتخللها أبيات شعر قليلة متناثرة ليست الا حلية للعمل الفنى ، بعكس الامر فى سيرة مثل السيرة الهلالية حيث الشعر وسيلة أساسية لحفظها وتداولها والقائها فهو هنا ضرورة للراوى وللسامع معا ٠ كذلك الامر فى السجع فاننا لا نجده فى هذه السيرة الا حين يحتدم الموقف كما فى حالة نشوب معركة فتصبح له وظيفة فنية فى التعبير عن هذا الاحتدام ، وليس المقصود به ـ مرة أخرى ـ الحفظ والالقاء ٠ وقد تخلصت الصياغة الجديدة من الشعر والسجع والروافد العامية لتحل محلها لغة عربية فصحى بسيطة سهلة ٠ وفى المواقف الحاسمة أو التى يهدد الخطر فيها البطل يبرز الاسلوب المعبر عن الانفعال الداخلى على نحو ما نقرأ حين سيق على الزيبق الى المشنقة ٠

٣ ـ وهذا يقودنا الى فارق آخر بين النصين ، فالنص القديم يزدحم ـ كبقية السير ـ بالحركة المستمرة ، لا تنتهى واقعة الا لتبدأ أخرى ، ولا ننتقل من مكان الا لتبدأ الاحداث فى مكان آخر ، فلا مجال للتأمل فى النفس أو الكون ، ولهذا انعدم الجانب الذاتى للزيبق ٠ أما فى النص الجديد فالحركة الخارجية تتمهل لتفسح المجال ـ من حين

لآخر – لحركة داخلية تعكس اهتزازات النفس الانسانية وتموجاتها ·

٤ – ونتيجة لهذا فالصياغة الجديدة تتميز بالتغلغل داخل الشخصيات وبيان انفعالاتهم ، فتتردد فيها ألفاظ تتوارى فى النص القديم مثل : يحس ، الخوف ، الاشفاق ، يذكر ، وكأنما ·· وبذلك أعطانا المؤلف صورة داخلية الى جانب الصورة الخارجية · وفى النص القديم مواقف نادرة – وملفتة – أطلعنا فيها المؤلف على لمحة من العالم الداخلى لبطله وذلك فى لحظة تذكر له كانت لها وظيفتها الفنية ، اذ قامت بتجميع بعض مما مر به من أحداث وأهوال فى لحظة زمنية خاطفة ، وذلك حين ظل تائها أربعين يوما فى القفار بحثا عن اعجوبة الزمان ابنة ملك مدينة صفد :

الى أن فرغ منه الزاد **وضاق صدره** وأخذ **يتأسف** على ما أصابه واعتراه ، فنظر أمامه شجرة فاقترب اليها الزيبق وألقى ذاته تحتها خائر القوى ، فأخذ **يفتكر** بما مر عليه من الايام وكيف لعب على صلاح الدين ، وكيف نام فى حمام طولون ، وكيف جلب صندوق التواجيه من المدينة المرصودة ، وما زال فى سرد حوادث جرت له الى أن **خطرت فى باله** أخته ودعه ·· (السيرة ، ص ٣٢٨) ·

رابعا : الشخصيات والعنصر الدرامى

١ – ونتيجة لذلك فان الشخصيات فى النص الاصلى جامدة لا تتطور ، حتى السن لايتقدم بها . ونهاية على الزيبق نفسه ترد فجأة فى جملة قصيرة نصها « انه وقع فى مرض قتال عجزت عنه الاطباء وكان بهآخر حياته » دون تمهيد عن شيخوخة يعانيها أو ذكر لموت أمه فاطمة مثلا يمهد به الكاتب لموت ابنها بعد . والاشارة الوحيدة التى قد توحى بتقدم على الزيبق فى العمر هو ملاقاته لابنه أسد الغاب – وكان قد فقده فى طفولته – فاذا به يلقاه شابا يافعا لا يعرفه الا بعد أن تقاتلا فرأى فيه شجاعة وقوة ، وان كان أبوه من ناحية اخرى قد قاتله حتى انتصر عليه بما لا يوحى أن أى وهن أو شيخوخة قد ألمت به .

وجمود الشخصيات يسلبها اى خبرات ، فلا تحذر شرا جديدا بسبب شر مماثل وقعت فيه من قبل كأنما لاذاكرة لها ، فعلى الزيبق يعفو دائما عن أعدائه كلما وقعوا فى قبضته مثل صلاح الدين الكلبى ودليلة المحتالة لينصبوا له شراكهم من جديد ، وهذا هو سبب تعدد القصص ، قصة بعد أخرى ، حتى اذا سرد المؤلف عددا كافيا منها وضع حدا لها اما بقتل العدو (وقد حدث ذلك فى عدة حالات فى السيرة أبرزها : مقتل صلاح الدين الكلبى بمصر ، وابن السكرى بدمشق ، ودليلة المحتالة وأخيها زريق السماك ببغداد) ، واما بأن ينضم تحت لواء الزيبق كما حدث فى معظم الحالات ·

ودليله المحتالة خير نموذج على تجمد شخصيات النص القديم ، فقد ظلت على عداوتها للزيبق حتى بعد أن تزوج ابنتها زينب ، ولم يكن هناك أقل صراع داخلى أو تساؤل هل تستمر فى عداوتها أو تغير من موقفها على ضوء ما جد فى علاقتها به · وبمعنى آخر فان العلاقة بين الشخصيات لا تعرف الا أحد عاطفتين ، الكره أو الحب ولا وسط بينهما ، مما يسلب النص القديم أى عنصر درامى ·

أما فى النص الجديد فلئن احتفظت الشخصيات بآثار من جمودها – وذلك حتى يمكن أن يتسلسل فيه عدد من القصص على نسق النص القديم – فاننا نستطيع أن نلمح فيه تطور الشخصية ممثلا فى الزيبق وعلاقته بزينب ·

٢ – وهذا يقودنا الى الحديث عن العنصر الدرامى الذى يخلو منه النص الاصلى ، والمتمثل فى النص الجديد فى حب على لزينب وتخوفه منها فى الوقت نفسه لأنها ابنة عدوته دليله المحتالة ، بينما فى النص الأصلى لا نجد هذا التردد بين الحب والكره أو الاقدام والاحجام ، ولا تلك اللغة التى تقارب لغة الشعر حين تغوص فى أعماق الشخصية لتعبر عن ذلك الموقف المتأرجح · فحين كان على يساق الى المشنقة بعد أن أوقعته زينب باتفاق مع أمها وحبسته فى صندوق الى أن تم القبض عليه ، نجده يحدث نفسه عن زينب فيقول :

حلوة لفقتهـــا ، حلوة خطرتها ، حـلوة همستها ، والشذى ينبعث من شعرها يسكر القلب ويخـــدر العقل ، فتسير الى الصندوق مغمض العينين .. هدية دسمة لصلاح الكلبى وحقده وتشـــفيه ، ولكن لو ابتسمت ثانية يا على ، لو التصقت بك بجسدها المرتعش ، لو ملأ عطر شعرها صدرك لسرت الى الصندوق راضيا من جديد .. (فاروق خورشيد ، على الزيبق ، روايات الهـــلال ، جـ ٢ ، اكتوبر ١٩٦٧ ، ص ٣٣) .

وحين قبض الزيبق بدوره على زينب وأمها ـ وهو موقف مضاد للموقف السابق ـ نسمعه يحدث نفسه قائلا :

وفى الحجرة الثـــانية زينب ، زينب التى ساقه سحر عينيها كالابله لتعطيه هدية عاجزة ذليـــلة الى جـــلادها .. زينب ذات النظرة الساحرة الفاتنة ، فى الوجه براءة كأنها ملاك ، وفى الفعل حية لا تقل سما وخطرا .. لكنها حلوة كالطيف ، شهية مثيرة ، حين تتأود فى حديثها يهتز قلبه ، وحين تتمايل فى مشيتها يثور فى نفسه بركان كامل . (المرجع السابق صفحة ١٢٣) .

٣

ولئن كانت الصياغة الجـــديدة قد أضافت هذه التغييرات فى محاولة تقديمها فى صورة روائية معـــاصرة ، فانها احتفظت من النص الأصلى ببعض العنـــاصر الاخرى فى الشـــكل والمضمون .

ولعل أهم ما احتفظت به من ناحية الشكل هو بناؤها على أساس القصص المتتالية . فمن المعروف أنه كانت هناك طريقتان للجمع بين مجموعة من القصص القصيرة ، احداهما طريقة القصص المتداخلة أى رواية قصة من داخـــل قصة ، والاخرى أن تتتالى القصص واحدة بعد الاخرى متصلة بخيط واحد يجمـــع بينها . والطريقتان موجودتان فى ألـــف ليلة وليلة ، والطريقة الاخـــيرة اتبعهـــا بوكاشـــيو فى الديكاميرون . وهى نفس الطريقة المتبعة فى سيرة على الزيبق ، وان لم تكن بنفس التطبيق. لان قصص ألف ليـــلة والديكاميرون مستقل بعضها عن البعض الآخر لا يجمـــع بينهـــا الا الخيط الاوله كمحاولة شهر زاد فى ألف ليلة أن تؤجل قرار الملك شهريار بأن يقتلها بما ترويه له من قصص ليلة بعد أخرى . وفى هذا الخيط ينتظم عقد القصص القصيرة ، ولعل هذا من الارهاصات الأولى للشكل الروائى أما فى على الزيبق فالقصص ليست على هذا النحو من الاستقلال لأن سيرة بطلها تجمع بينها ، ولان القصة التالية تستفيد ـ ولا نقول تبنى ـ من القصة الســـابقة ، فاذا حصل الزيبـــق على الســـيف المرصود فى احدى القصص ، فانه يستخدمه فيما يتلو ذلك من قصص . والزيبق لا يكاد ينتهى من ملعوب الا ليبدأ آخر ، ويقوم بعمل نفيله بعد أخرى ، ولكن لئن كـــان كل ملعوب وكل نفيله قصة قصيرة لهـــا عقدتها الخاصة التى تستقل بها عن القصص الاخرى الا أنهـــا تتشابك مع غيرها من القصص من ناحية أخـــرى . ثم يلتقى الزيبـــق بأبطال يشبهونه وان كانوا أصغر منه شأنا ، ويتكرر معهم ما سبق وقوعه مع بطلهم ، فهم تكرار للتـــكرار . وهكذا تتعدد القصص فى قصة واحدة طويلة فالسيرة الاصلية اذن تتأرجح بين الشكل الروائى والمجموعة القصصية .

وقد احتفظت الصياغة الجديدة ببقايا هذا الطابع ، ومما عاون على اضعافه انها اقتصرت على قصص الزيبق مع صـــلاح الدين الكلبى ودليله المحتـــالة قصة بعد أخرى حتى تنتهى بانتصـــاره عليهما ، دون أن تعرض للقصص المشابهة مع الابطال المشابهين ، فبهت طابـــع التكرار وان كانت ملامحه ما تزال موجودة . كمـــا أن خلق العنصر الدرامى أبرز الشـــكل الروائى للعمل الفنى كوحدة على حساب الشكل المتعدد القصصى وان لم يمحه .

هذا أبرز ما احتفظت به الصياغة الجديدة من الشكل عما فى المصـــدر ، أما فيما يتعلق بالمضمون فقـــد احتفظت الصياغة الجـــديدة بالدور الهام الذى تقوم به المرأة فى السيرة

الاصليـة ، وهو دور بارز فى معـظم السير الشعبية مساو لدور الرجال فيها • كل الخلاف أن الرجال يتفوقون كما لا كيفا • ففى سيرة مثل سيرة على الزيبق نجد عشرات الابطال ولا نجد الا امرأتين أو ثلاث • ومما يثير الانتباه أنهن يتميزن بالقـوتين العقلية والبدنية بـل يتفوقن فيهما على الرجال • ففى الملاعيب ـ حيث تتكافأ القوى المتصارعة لأنها جميعا قوى انسانية ـ نجـد أن دليلة المحتالة هى أقدر منافسى على الزيبق على هزيمته فيما ينشب من معارك ، وأمه فاطمه اللبوه ـ وهو لقب يدل على شدة الجرأة ـ هى الشخص الوحيد القادر على انقاذه مما يقع فيه من شراك دليله وغير دليله• وتستخدم المرأتان فى ذلك الذكاء والقوة معا• أما فى النفيله ـ حيث لاتتكافأ القوى المتصارعة لأنها بين قوى انسانية من جانب وقـوى غير انسانية من جانب آخر ـ فاننا نجد مرة أخرى أن دليله هى أقـدر شـخصيات السيره على الاستعانة بتلك القوى للايقاع بالزيبق بينما أمه فاطمة أقدر الشخصيات أيضـا على ابطال مفعولها • وقـد احتفظت الصياغة الجـديدة بالمرأتين ودوريهما البـارزين المتقـابلين وان اقتصرت على ما يجرى من تصارع بين القوى الانســانية ، كمـا احتفظت لزينب بدورها العاطفى البـارز فى حياة الزيبق وان اتخذ طابعا أكثر شاعرية •

غير ان أبرز ما احتفظت به الصياغة الجديدة من ناحية المضـمون هو زاوية الرؤية لعـلى الزيبق • ولئن كانت تلك الصياغة قد ادخلت تعديلات على المضمون ـ على نحـو ما ذكرنا سابقاـ فهى تعديلات فرعية اذا قورنت بزاوية الرؤية لشخصية على الزيبق فى عمل قصصى يجعـل شـخصية البطل جوهر المضمون ومحوره •

فالزيبق فى كلا النصين ـ وعلى حـد تعبير فاروق خورشيد فى مقدمته ـ واحد من هؤلاء:

الابطال الافراد الذين يقـاومون سلطـات مجتمعهم بما جبلوا عليه من شـجاعة وقوة وحيلة ليأخذوا من الاغنياء وليعطوا الفقراء ، وليحققوا العدالة بمفهومهم النقي الخالص الذي



لم تلوثه مفاهيم المجتمع المنهار • (على الزيبق، ج ١ ، ص ١٠) •

وهو واحد من هؤلاء :

اللصوص الذين لا يستطيع أحد أن ينالهم والذين ينالون كل شيء ليحققوا العـدالة من اللصوص الحقيقيين الذين يسخرون العـدالة لخدمة أغراضهم وحماية أرواحهم • (المرجـع السابق ، ص ١٠) •

وفاروق خورشـيد يؤكد فى هذه المقدمة نفسها أنه حين يقدم هذه السيرة تقديما روائيا معاصرا فانه يحرص على السمات الاصلية للعمل فى الوقت نفسه ، ويبدو أن من أبرز السمات التى حرص على ابقـائها هو المفهوم الروائى لعلى الزيبق • بل لئن كان النص الجـديد يقتصر على بطولات الزيبق مـع حكام يظلمون الناس فيهزمهم ويأخذ منهم مناصبهم ليحكم هو بالعدل ، فان الزيبق فى النص القديم يتحدى سطوة ملوك لا يطمح هو فى أن يحل محلهم • ففى مصر وقف رجاله أمام الناصر عزيز مصر حتى فتك بهم فعاد الزيبق من بغداد ليأخذبثار رجاله وأعدم الناصر ونادى بتنصيب الفضل أبو العبـاس الذى حضر معه من بغداد بأمر الخليفة (سيرة على الزيبق ، ص ٤٠٠) • وفى دمشق يتـحدى رجال الزيبـق سلطة الملك قسطون شـهروان حتى خضع لهم (المرجع السابق ص ٢٨٦) • وفى بغداد تحدى الزيبق سلطة الخليفة هرون الرشيد نفسه حتى خافه الرشيد وتراجع أمامه (المرجـع السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨) • ولعل تبرير ذلك أن الصياغة الجـديدة قد وقفت عند الاحداث الاولى من النص القديم وهي أحداث لم تكن قد تعرضت

بعد لوقفات الزيبق أمام الملوك والولاة ، وان كانت هذه الصياغة الجديدة - من ناحية أخرى - لم تتردد فى أن تستدعى من الاجزاء التالية من المصدر شخصيات لم تكن قد ظهرت بعد فى الاجزاء الاولى منه مثل دليله وابنتها زينب ٠

ويمكننا أن نعلل عدم تغيير جوهر المضمون الروائى فى الصياغة الجديدة بأن المفهوم الروائى لشخصية على الزيبق فى النص الاصلى يمكن أن يظل مفهوما معاصرا ٠

ولو أننا قارنا ما قدمه لنا فاروق خورشيد من أعمال حتى الآن فى هذا المجال لوجدنا أن مدى ما أضفاه وأضافه الى مضمون المصادر التى أخذ عنها ليس بدرجة واحدة ، فموقفه فى «سيف بن ذى يزن» مثل موقفه فى « على الزيبق » أى :

أن نحافظ على روح النص الاصلى وأحداثه كاملة ٠٠ وهدفنا من هذا كله أن تصبح هذه السيرة كاملة غير منقوصة ، وبغير أن تتدخل فيها عوامل الحذف والتشويه (فاروق خورشيد ، سيف بن ذى يزن ، روايات الهلال، العدد ١٧٦ ، يونيو ١٩٦٣ ، ج ٢ ، المقدمة صفحة ٩) ٠

أما فى مغامرات سيف بن ذى يزن فهو يتخذ موقفا مغايرا يفصح عنه فى مقدمته فيقول :

واذا كنا فى « سيف بن ذى يزن » قد خضعنا الى حد كبير للنص نفسه ، فنحن هنا أكثر حرية فى التحرك مع النص ومن خلاله مستغلين خبرات الصورة الفنية التى اخترناها لنقدم لك فيها هذا العمل ، وهى الرواية ، ومحاولين تعميق المفاهيم وربطها بقضايا الانسان المعاصر ، التى هى فى نفس الوقت قضايا متجددة ، ان تغيرت صورها فلن تتغير طبيعتها وجوهرها ٠ (مغامرات سيف بن ذى يزن ، المقدمة صفحة ١٠)

ففى مغامرات سيف بن ذى يزن قدم فاروق خورشيد مضمونا معاصرا الى جانب الشكل الروائى المعاصر ، أى انه أسقط همومنا المعاصرة على ما أمده به المصدر من وقائع وأحداث ٠ بينما اقتصر فى كل من « سيف بن ذى يزن » و « على الزيبق» على اضفاءالشكل الروائى المعاصر ، وعلى اضفاء المعاصرة على بعض الجوانب الفرعية للمضمون دون أن يمس جوهره ٠ ويقدم الاستاذ فوزى العنتيل تعليلين لهذا الموقف المختلف فى تعليقه على «المغامرات»أحدهما يتعلق بالنص والآخريتعلق بالمؤلف ٠ أما فيما يتعلق بالنص فهو يقول ان من العوامل المساعدة على حرية صياغة هذا القسم من السيرة أن النص قد خرج عن حدود الوقائع والاحداث المرتبطةببطل الملحمة ارتباطا منتظما الى عالم جديد هو عالم السحر والمغامرة والانطلاق الى المجهول ، وهو عالم رحب يستطيع القصاص الفنان أن يتحرك فيه بحرية مضيفا الى عمل القصاص الشعبى ايداعات جديدة ٠ أما فيما يتعلق بالمؤلف فهو يرى أن صياغته للقسم الاول (سيف بن ذى يزن) قد أمدته من خلال الممارسة والتعرف على السيرة بامكانيات جديدة وبتعمق يساعد بدوره على القيام بعملية خلق جديدة لاتتقيد الا بالاطار الخارجى للنص الاصلى ٠ ويضرب مثلا لذلك عندما عرض النص الجديد للجزء الذى يدور فى جزائر الواق واق من النص الاصلى لسيرة سيف بن ذى يزن ، فنجده فى الصياغة الجديدة يعدل عن متابعة النص الى الابتداع ، ويقدم نسيجا جديدا يستغل فيه الرموز الى ابعدمدى ، بالاضافة الى ماأحدثه من تغييرات فى تركيب الصدر ، والتعليق على الاحداث ، واستخدام خيال جديد .. (مجلة المجلة ، القاهرة ، يناير ١٩٦١ ، صفحة ٢٣) ٠

وهكذا نجد أن محاولات فاروق خورشيد فى هذا المجال ليست كلها فى مستوى واحد . ونحن نحس معه معاناته فى تلك المحاولاتحين يعلن أن «هذا العمل يستنزف من الوقت والجهد مايفوق ثمرته بمراحل » (المغامرات ج٢ ، المقدمة ، ص ٨) . ومعنى هذا أنفاروق يشعر بما يقدمه من تضحية . فلو انه كتب نصا أكثر استقلالا عن النص الاصلى فى

محاولته « على الزيبق » لكان استلهاما للنص أكثر ماهو صياغة جديدة له ، لكن يبدو أن المرحلة التاريخية التى يمر بها أدبنا المعاصر جعلت فاروق خورشيد يحس أن تلك المحاولات فرض عليه أكثر مما هى اختيارمنه. فلابد من مرحلة تعريف أولا بالتراث الشعبى تتلوها فيما بعد مرحلة استلهام هذا التراث . فدور فاروق هنا أقرب الى دور الذين سبقوه فى أدبنا المعاصر فى أحياء تراثنا الادبىالمدون بالفصحى حينقاموابتحقيق هذا التراث ونشره وكتابة الدراسات عنه ، والذين قاموا بالتعريف بالثقافات الاجنبية قديمها وحديثها حين نقلوا هذه الثقافاتالى لغتنا وأنشأوا الدراسات حولها ، وبقى التراث الشعبى مستبعدا من عداد الثقافة بوجه عام و لادب بوجه خاص ، وان كانت هناك محاولات على استحياء بدأت منذحوالى ربع قرن للتعريف به من جانب بعض من كتبوا قصصا لاطفالنا، أو من استلهموا قصص هذا الادب من التاريخ أكثر مما استلهموه من التراث الشعبى على نحو مافعل محمد فريد أبو حديد فى قصتيه «عنتره بن شداد» و « الوعاء المروى » التى تدور حول سيف بن ذى يزن ، أو من قاموا بتقديم الدراسات عنه. ومن هنا كانت قيمة مايقوم به فاروق خورشيد فى تاريخنا الادبى من دراسات حول السير الشعبية أولا ، ومن محاولات لايجاد جمهور قراء لنصوصها ثانيا .

وبذلك يمكننا ان نجمل مختلف أسباب الاحتفاظ بجوهر المضمون فى الصياغةالجديدة لعلى الزيبق كما هو فى المصدر :

أولا : أن المفهوم الروائى لشخصية على الزيبق فى المصدر يمكن أن يظل مفهوما معاصرا .

ثانيا : أن طبيعة النص لاتتيح للمؤلف أن يتحرك فى حرية قد تتيحها له نصوص أخرى .

ثالثا : أن الصياغة الجديدة قصد بها احياء التراث الشعبى وليس استلهامه . وفاروق خورشيد يرى أن طبيعة أحياء التراث الشعبى تختلف عن طريقة احياء التراث المدون بالفصحى وعن طريقة التعريف بالآداب الاجنبية . فلا هو يتم بترجمة اللغة الشعبية المكتوب بها الى اللغة الادبية المعاصرة ، ولاهو يتم عن طريق تحقيق نصوصه كما تحقق نصوص تراث الفصحى ، لانه ليس هناك نص شعبى اصلى يكون هو معيار التحقيق ، بل كل نص نعثر عليه هو رواية مختلفة للنص من خلال مفهوم راويها ومفهوم عصره . وفاروق لايريد أن يدفع الى المطبعة باحدى تلك الروايات القديمة لترقد فوق أرفف المكتبات . بل هو يريد للنص أن يتداوله القراء ، فيرويه من خلال المفهوم الروائى المعاصر ، ليجدد له شبابه وان احتفظ بشخصيته ، وليمده بدم جديد وان أبقى على ملامحه .

تلك هى الاهداف التى حددها فاروق خورشيد لنفسه فى محاولاته ، وفى حدود هذه الاهداف ، وفى اطار ظروف مرحلتنا الادبية المعاصرة ، يمكن أن نقيم محاولاته ، دون أن نطالبه بما لم يزعم هو لنفسه .



الدكتور جمال الدين الشيال
العالم المؤرخ الذى فقدناه

كلمة وفاء وتقدير

بقلم د. السيد عبد العزيز سالم

فى الساعة السابعة من صباح الخميس ٢٩ رجب ١٣٨٧ هـ (الموافق ٢ نوفمبر ١٩٦٧ اختطف الموت علما من أعلام الفكر العربى الكبار، ورائدا من رواد الدراسات التاريخية ، الذين أسهموا فى ارساء قواعد بنائها العلمى الحديث ، المغفور له الدكتور جمال الدين الشيال ، أستاذ التاريخ الاسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ففجع العالم الاسلامى أجمع بفقده وهو أحوج ما يكون الى جهوده الصادقة المخلصة ، وعلمه الغزير ، وانتاجه الخصب فى حقل الدراسات التاريخية • فلقد قضى الفقيد حياته كلها يخدم العلم أستاذا ومربيا للأجيال ، ومؤرخا يكشف عن مجهول الأحداث وغوامضها ، ومحققا لدفائن التراث الفكرى العربى المخبوءة ، فأنجز فى هذا السبيل من المباحث القيمة الأصيلة التى تقوم الدراسة فيها على المقارنة والتحليل والاستنباط ، والتحقيقات التى تتسم بالتحرى والدقة مارفعه الى مصاف أعلام الفكر العربى المعاصر ، وجعله موضع تقدير العلماء فى الشرق وفى الغرب على السواء •

ولد الفقيد رحمه الله فى مدينة دمياط فى ٢٧ يونيو سنة ١٩١١ ، وفى هذه المدينة العريقة التى حفل تاريخها الوسيط بالأمجاد والبطولات ، قضى الفقيد السنين الأولى من حياته ، وتلقى أول مرحلة من مراحل تعليمه ، فاهتم ، وهو بعد صغير ، بالتفتيش عن مفاخرها ومواضع الاعتزاز فى تاريخها ، ووضح ميله فى هذا السن المبكر للتخصص فى التاريخ ، وتمنى أن يأتى يوم يستطيع فيه أن يبرز تاريخ دمياط المشرف فى كتاب يسجل فيه ماضى المدينة ، وعظمتها ، ودورها فى مواجهة العدوان الصليبى عليها • وعندما رحل الى القاهرة ليلتحق بجامعتها ، لم يتردد فى اختيار قسم التاريخ ، وبدأت مواهبه تتكشف وتتضح منذ ذلك الحين • وما ان حصل على درجة الليسانس فى الآداب من الجامعة المصرية فى سنة ١٩٣٦ حتى التحق بالمعهد العالى للتربية فى القاهرة سنة ١٩٣٨ ، وعين مدرسا بمدرسة العريش الابتدائية فى أكتوبر من هذه السنة ، وأخذ فيما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٤٣ يتدرج فى سلك التدريس بالمدارس الابتدائية والثانوية الى أن عين معيدا بقسم التاريخ فى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية وذلك فى ١٣ نوفمبر ١٩٤٣ ، وتهيأ له أن يتفرغ للبحث العلمى فى رحاب الجامعة ، وأثمرت جهوده فى البحث والتحصيل بنيل درجة الماجستير فى التاريخ بمرتبة الشرف الأولى عن رسالته التى قدمها الى جامعة الاسكندرية بعنوان « تاريخ الترجمة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر » ، كما نال على هذا البحث جائزة

البحوث الأدبية لعام ١٩٤٦ من مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ولما حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة الاسكندرية عن دراسته القيمة لابن واصل وكتابه مفرج الكروب فى سنة ١٩٤٨ عين مدرسا للتاريخ الاسلامى بكلية الآداب ، ثم أستاذا مساعدا فى سنة ١٩٥٢ ، فأستاذا للتاريخ الاسلامى فى يونيو ١٩٥٦ ، ثم عميدا لكلية الآداب جامعة الاسكندرية فى ٦ ديسمبر ١٩٦٥ .

وفى خلال الفترة مابين ١٩٥٤ ، ١٩٦٧ ، أتيحت له الفرصة للطواف بعدد كبير من بلاد العالم العربى والغربى ، ففى أبريل سنة ١٩٥٤ مثل جامعة الاسكندرية فى مؤتمر الدراسات العربية والاسلامية الذى انعقد فى جامعة بشاور بباكستان ، وظفر فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ بمنحة من مؤسسة روكفلر لمدة ثمانية شهور لزيارة مراكز دراسات الشرق الأدنى بالجامعات الأمريكية والكندية ، ومجموعات المخطوطات العربية المحفوظة فى المكتبات الأمريكية والأوروبية ، وهناك ندب لالقاء عدد كبير من المحاضرات فى جامعات ييل وبرنستون وميتشيجان فى الولايات المتحدة ، وماكجيل بكندا . ثم مثل جامعة الاسكندرية مرة ثانية فى مؤتمر الآثار العربية الثانى الذى عقد بمدينة بغداد فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، ودعى فى مارس ١٩٥٨ لالقاء عدد من المحاضرات فى التاريخ الاسلامى والحضارة فى حلب وحماة ودمشق ، ثم مثل جامعة الاسكندرية للمرة الثالثة فى مؤتمر الآثار العربية الثالث المنعقد بفاس فى ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

ثم ندب — رحمه الله — مستشارا ثقافيا بسفارة الجمهورية العربية المتحدة فى الرباط فى مارس سنة ١٩٦٠ ، فظل يؤدى هذه المهمة على خير وجه طوال أربع سنوات ، قام خلالها بالقاء سلسلة من المحاضرات فى جامعتها ، ومثل مصر فى الاحتفال بالعيد المئوى بعد الألف لجامعة القروين بفاس فى سنة ١٩٦٠ ، وفى مؤتمر التعريب بمدينة الرباط بالمغرب فى أبريل سنة ١٩٦١ ، وفى الدورة الأولى للجنة الثقافية لدول ميثاق الدار البيضاء بطنجة فى سنة ١٩٦٢ ، والمؤتمر الدولى الأول للمشتغلين بالدراسات الافريقية فى مدينة أكرا بغانا فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

ولما عاد نهائيا من المغرب ، واستأنف عمله الأساسى فى التدريس ، مثل جامعة الاسكندرية من جديد فى مؤتمر الأدباء العرب الذى انعقد فى بغداد فى فبراير سنة ١٩٦٥ ، كما مثلها فى مؤتمر تاريخ مصر الحديث الذى انعقد بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن فى ابريل سنة ١٩٦٥ . وندب أستاذا زائرا بجامعة بغداد خلال شهرى مارس وابريل من سنة ١٩٦٦ .

ولم تكن هذه الرحلات تشغله عن البحث العلمى ، والاطلاع ، والتحصيل ، والعمل الجاد المثمر ، بل كانت حافزا له على الاستزادة فى البحث والدراسة ، والاتصال بزملائه من العلماء والباحثين فى الأقطار المختلفة ، والاحتكاك برجال العلم فى الأوساط العلمية المختلفة ، وانعكس ذلك كله على انتاجه العلمى الذى اتسم بالعمق والجدة مع التزام المنهج المحكم ، والدقة البالغة فى الكتابة مع مراعاة الربط والوصل بين الحقائق .

ومؤلفات الفقيد فى تاريخ العرب والمسلمين عديدة ومتنوعة ، وباكورتها جميعا بحثه القيم عن « رفاعة الطهطاوى » الذى صدر فى مجموعة أعلام الاسلام فى سنة ١٩٤٥ . ثم توالت منذ ذلك التاريخ تواليفه التى يصعب على المرء احصاؤها ، عن مصر والشام ، وعن العروبة والاسلام ، بالعربية حينا ، وبالانجليزية حينا آخر ، نخص بالذكر منها بحثه القيم عن تاريخ دمياط الذى سجل به وفاءه وحبه لمسقط رأسه . ومن ثمرات اهتمامه بمدينة الاسكندرية التى عمل بجامعتها معيدا ومدرسا وأستاذا مساعدا وأستاذا وعميدا بحوثه القيمة عن الاسكندرية وأهمها البحث الذى يمتاز بالجدة والاصالة عن « الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور » الذى أصدره فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى سنة ١٩٥٢ وكتابه « أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى » الذى صدر

بالاسكندرية فى ١٩٦٥ · ومن أجل بحوثه : « الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث » الذى أصدره معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة فى جزءين على التوالى فى عامى ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ·

وقد نشر ـ رحمه الله ـ عددا هائلا من البحوث العلمية والمقالات عن أعلام الفكر الاسلامى وعن مظاهر الارتباط السياسى والثقافى والعلمى للعالم الاسلامى فى عصوره المختلفة ، وعن التأريخ والمؤرخين فى مصر ، وعن الروابط التاريخية بين مصر والمغرب ، نشرها الفقيد فى مجلات العالم العربى ، فى مصر والمغرب والعراق والكويت ، كما نشر عددا من المقالات ، بدائرة المعارف الاسلامية ·

وتتسم بحوث الفقيد بوضوح الفكرة والعمق والدقة فى تقصى الحقائق مع التزام البساطة والبعد عن التعقيد ، كما تمتاز كتابته بالأصالة والابتكار النابع من استنباط المادة التاريخية من النصوص الأدبية والدينية وكثرة الاعتماد على حقائق تضمنتها مخطوطات لم تنشر بعد ، مما طبع بحوثه بطابع الجدة ، كذلك تمتاز بالقدرة على الوصف اعتمادا على الرؤية والمشاهدة التى هيأتها له كثرة أسفاره فى الأقطار العربية والاسلامية ·

أما فى مجال التحقيق العلمى ونشر المخطوطات فكان له دوره الفريد ، فما أكثر ما أظهره الى النور من كنوز الفكر العربى ، وما أكثر ما حققه من نوادر المخطوطات وثمينها · ومن أهم ماحققه من المخطوطات العربية بعض مصنفات لتقى الدين المقريزى ، هى :

١ ـ كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » الذى اشترك مع الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى تحقيقه سنة ١٩٤٠ ·

٢ ـ كتاب « نحل عبر النحل » ، الذى نشره فى ١٩٤٦ ·

٣ ـ كتاب « اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا » ، نشره فى سنة ١٩٤٨ ·

٤ ـ « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » نشره فى ١٩٥٥ ·

ومن بين مانشره وحققه ، الأجزاء الثلاثة لكتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لجمال الدين بن واصل ، نشرها فيما بين عامى ١٩٥٣ ، ١٩٦٠ ، وكتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لبهاء الدين بن شداد ، وصدر فى سنة ١٩٦٤ ، وكتاب « أنيس الجليس فى تاريخ مدينة تنيس » لمحمد بن بسام التنيسى ، وقد صدر فى بغداد سنة ١٩٦٧ · وأعظم مانشره من التراث العربى مجموعة الوثائق الفاطمية التى بلغ فى تحليلها ونقدها الغاية من حيث احكام المنهج العلمى ، واستنباط الحقائق التاريخية من خلال ماجمعه من وثائق ، وقد قدرت الدولة جهده الذى بذله فى نشر هذه المجموعة من الوثائق وفى تحليلها فمنحته جائزة الدولة التشجيعية فى التاريخ عن هذا الكتاب فى سنة ١٩٥٨ ، كما منحته وسام العلم من الدرجة الأولى ·

ويطول بنا الحديث لو أحصينا ماخلفه الفقيد من بحوث ودراسات ، وما اشترك فيه من لجان وجمعيات علمية ، وما قدمه من تقارير علمية ، بالاضافة الى مابذله من جهود مضنية فى البناء العلمى والثقافى لبلدنا وللعالم العربى والاسلامى وللانسانية ، هذا الى الأجيال المتعاقبة من تلاميذه الذين تأثروا بمنهجه وأخذوا عليه ، واذا كان عمر المرء يقاس بالعمل الذى يقدمه لغيره فان الفقيد ترك وراءه من الآثار ، وقدم من الأعمال ، وحقق من الانجازات مايرفعه الى زمرة العلماء البارزين الذين شاركوا مشاركة فعالة فى نهضتنا العلمية المعاصرة · وكان رحمه الله وطنيا مخلصا ، تفانى فى خدمة بلاده بفكره وقلمه حتى آخر لحظة من حياته ، ولم يرفع قلمه ، وهو يحس بضعفه فيغالبه ، وبالاجهاد فلا يكترث له ، حتى فاجأه الموت وهو يعد نفسه لعمل جديد ·

رحمه الله الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، وجعل الجنة مثواه ، وعوضنا عن فقده ··

العبث أسلوب .. لا موضوع

د. هدى حبيشة

ان الكثيرين ممن يرفضون قبـــول الادب الغربى المعاصر كالادب الذى يطلق عليه مجازا كلمة أدب اللامعقـول أو العبث أو كالاعمـال السيريالية أو الرمزية الى آخر هذه المدارس الحديثة المعاصرة ، أقول ان من يرفضون قبول هذه النماذج الادبية يبنون رفضهم هـذا على اتهامين أو لعله اتهام واحد ذو فرعين • فهم يتهمونه أولا بالفردية البحته اذ أن أبطـــاله يعيشـون فى عالمهم النفسى وكأنه لا وجـــود لمجتمع خارجى على الاطلاق • ثم انهم يرون أن المحور الذى تدور فيه هذه الاحاسيس الفردية غريب عنا ، بعيـــد عن مجتمعنا المصرى أولا والاشـــتراكى ثانيا ، وبالتـــالى فأحاسيس ومشاكل هذه الشخصيات لا تمسنا ولا تهمنا فى شىء • ولو صح هذان الاتهـــامان لوجب علينا رفض هذا الأدب رفضا قاطعا وتجـاهله تجاهلا مطلقا •



ولكننى أختلف فى الرأى عن أصحاب هـذا المفهوم للادب الغربى المعاصر • وأريد فى هذا المقال أن أثبت أن مواضيع هذا الادب لاتختلف فى جوهـرها عن مواضـيع الادب فى شتى العصـور وفى شتى البـلدان • وانه ما ينفر الرافضين له فى الواقــع ليس موضـوعه ـ فرديته أو غرابة مشاكله عن مشاكل مجتمعنا الخ ـ بل حداثة أسلوبه وغرابة هذا الاسلوب عما ألفناه الى اليوم • وأن اقحـام المجتمـع والاشـــتراكية فى الهجوم عليه مغالطة أراها

خطيرة لأنى أراها قد تقف بتطورنا الفنى عند مرحلة من مراحل نموه بدلا من أن تدعه يشق طريقه الحر اسوة بغيره من الفنون فى شتى بلدان العالم • فأنا لا أرغب فى الدفاع عن الادب الغربى فى حد ذاته ولكنى أريد أن ألقى ضوءا عله يفيدنا فى قضية التقدم التى تواجهنا فى كل جانب من جوانب حياتنا حتى حياتنا الفنية •

ان القول بان الادب الغربى المعاصر غريب عن مجتمعنا قول فيه مغالطة كبيرة اذ أنه قول اذا عممناه لا ينطبق على الادب المعاصر فحسب بل على جميع الآداب القديم منها والحديث، الغربية منها والشرقية بل والعربية القديمة • فلا أظن أن امرىء القيس او المتنبى كانا يعبران عن مجتمع نعيشه اليوم، أو عن مشاكل تقرب من مشاكل مجتمعنا الحالى • ولا أظن اننا نستطيع أن نجد بين أفراد مجتمعنا شخصيات كشخصيات الاخوة كرامازوف، أو أن هناك من يرى فى المجتمع الذى صوره تولستوى فى « الحرب والسلام » وجه شبه يقربه من مجتمعنا ولا أن مسرحية أجاممنون تمسنا كشعب من بعيد أو قريب ولا أن جحيم دانتى ناتج عن مجتمع عربى اشتراكى اسلامى • ان هذا القول يلغى آداب العالم أجمع باستثناء بعض الاعمال القليلة جدا كأعمال ماكسيم جوركى مثلا • ولكن الادب العظيم كله يسمو على مجتمعه وزمنه المحدود • ونحن اذ نقرؤه لانقرؤه لنرى صورة لمجتمع معين ولكننا نقرأه لان الكاتب يعرض لنا فيه رؤية خاصة للعالم، فيها تساؤل عن القيم وعن المعانى المجردة • ما العالم الذى نعيش فيه ؟ أهو عالم يغلب عليه الشر أم الخير ؟ أم هو خليط متزن من الاثنين ؟ بل ما الخير، وما الشر ؟ وما علاقة الانسان بكل منهما ؟ وكيف يسمح للشر بأن يكون ؟ أين يكمن سر الحياة وكيف نفسر لغز الموت • انه يبحث أيضا فى القيم فى العدالة والشرف والنبل والخسة — فى الحب والكراهية — فى النفس البشرية وما تحمله من عظمة وما يكمن فيها من ضعة — الى آخر هذه المواضيع التى لا يجد لها أى كاتب جوابا شافيا ولا يستطيع أى كاتب أن يقول الكلمة الاخيرة فيها فتبقى أبدا طريحة البحث والمعالجة لا يحدها مجتمع، تستوى فى الواقع فى غرابتها أو فى قربها من مجتمعنا فى أعمال دستوفسكى وفى أعمال صامويل بيكت الذى هو أكثر العبثيين عبثا •

ومرة أخرى أقول انى لست هنا بصدد الدفاع عن بيكيت لشخصه ولكنى آخذه مثلا للكاتب الحديث الذى يستعمل أسلوبا جديدا ولكنه يعالج مواضيع قديمة قدم الزمن ولا أراها بعيدة عن مجتمعى الذى أعيش فيه على الاطلاق • فلنقف قليلا عند بعض أعمال بيكت ونسأل ما المواضيع التى يعالجها • ومما لاشك فيه أن تحديد موضوع أى كاتب مشكلة ليست سهلة فان لكل عمل فنى كبير عدة خيوط وقد نحتاج لتحديدها مقالات عديدة — خذ مثلا الاخوة كرامازوف — ولكن يمكننا أن نأخذ للمناقشة خيطا أو اثنين لاثبات ان ما يتكلم عنه بيكيت لا يختلف فى جوهره عن المواضيع التى شغلت أقلام الكتاب على مر العصور • فلنأخذ مثلا « فى انتظار جودو » • مهما يكن المجهول الذى يرمز اليه جودو فان المشكلة التى تعالجها المسرحية هى مشكلة الانتظار ذاتها، وهى ظاهرة انسانية نعرفها كلنا، انها التشبث بالأمل فيما لا أمل فيه — كم من مريض يعرف أهله أن لا أمل فى شفائه ومع ذلك يبعثون الى طبيب اثر طبيب، لعل وعسى كم من شاب فسد حاله ولكن الاب لا ييأس من صلاحه — فيحاول اقناعه مرة، ويستجديه أخرى وينهره مرات ويرسل اليه الناصح مرات أخر بينما يعلم هو ومن حوله أنه لا أمل فى صلاح الشاب • ولا حاجه الى تفسير رموز المسرحية، لنجد أنها تصف حالة نفسية عامة نعرفها فى كل طبقة من طبقات المجتمع وفى لحظات كثيرة من حياتنا، الأمل الذى لا نكل من انتظار تحقيقه • هذا أحد خيوط المسرحيه وهو احساس انسانى عام كما قلنا • أما الخيط الآخر الذى يمكننا أن نتحدث عنه فهو علاقة

الشخصيات بعضها ببعض علاقة فلا ديمير باستراجوفوف وعلاقة «بوزو» بـ«لكى» . فالعلاقة بين الشخصين الأولين تكاد تكون صورة كاريكاتورية لعلاقة كثير من الأزواج ، أحدهما عصبى المزاج وأكثر ايجابية يهدد بالثورة كلما ضاق به الحال ولكنه يستكين فى آخر الامر اذ يجد أن لا حيله له . والآخر أكثر سلبية وأكثر احتمالا فهو العنصر الذى يصب عليه غضب الأول والذى يعمل على تهدئته كلاهما لا غنى له عن الآخر ولاخلاص له من صاحبه ولكن هذا لا يمنع الأول من الثورة المستمرة والثانى من لعب دور المهدىء المستكين . أما فى العلاقة بين«بوزو»و«لكى»فنجد مثلاالرجل المستبدالذى لا يترك لمن حوله فرص الحياة الحرة فينتهى به المطاف بعد أن تضعف سلطته الى الانهيار التام . أنا لا أنكر على بيكيت اهتمامه بالمواضيع الميتافيزيقية ، فالمعنى الفلسفى للمسرحية لا يمكن أن ينكره أحد ولكن من زاوية معينة يمكننا أن نرى فى شخصيات المسرحية نماذج انسانية نعرفها ونراها كل يوم فى مجتمعنا كما نراها فى غيره من المجتمعات . وانما الذى يبدو غريبا فى أعمال بيكيت حقا هو طريقة عرضه لهذه الشخصيات والمواقف التى تحيط بها . انه لايكتفى بتجريد شخصياته من الاطار الاجتماعى فحسب بل يجردها حتى من أى مشاعر غير تلك التى يهتم بعلاجها . وهو يفعل ذلك ليستطيع التركيز على المشاعر المحددة التى يعالجها فى العمل الواحد . فهو كالعالم الكيمائى الذى يعزل مادة معينة عن جميع المواد الاخرى وجميع الشوائب حتى يستطيع أن يكرس البحث على خصائص هذه المادة . ومادة بيكيت هى دائما النفس الانسانية ، والنفس الانسانية هى هى فى كل مكان وزمان وليست مقصورة على مجتمع دون غيره أو زمن دون آخر . وصحيح أن دراسة النفس الانسانية تعنى بالفرد فردا وليس مجموعا ولكنها على أى حال ليست مسألة بعيدة عن مجتمعنا . بل ان الواقع النفسى الذى يعبر عنه بيكيت أقرب الى الواقع النفسى الذى نعرفه من الواقع النفسى الذى يعبر عنه ديستوفسكى وتشيكوف مثلا . ومع ذلك نجد الكثيرين ممن يمجدون هذين الكاتبين الاخيرين يرفضون بيكيت ومدرسته . ويتضح من هذا أن ما يسوء هؤلاء فى أعمال بيكيت ليس فى الحقيقة موضوعه الفردى كما يدعون، بل هو الشكل الجديد الذى تقدم به هذه الاعمال ، الاسلوب وأداة التعبير ذاتها .

وفى هذا الموقف خسارة كبيرة وافقار لسبل التلقى وبالتالى لسبل التعبير عندنا . فان هذا الاسلوب الجديد غنى كل الغنى ، غير قاصر عن التعبير عن أى قضية فردية كانت أو اجتماعية بل وسياسية . ولعل أوضح مثل على ذلك نجده فى أعمال الاديب البولندى فلاديمير مروجيل وكلها أعمال يمكن اذا قبلنا الاسلوب العبثى أن توصف بأنها عبثية ، وكلها تعالج مواضيع سياسية أو اجتماعية . ولن أتكلم فى هذا المقال عن مروجيك فقد افردت له مقالا ظهر فى مجلة الفكر المعاصر (يونيو سنة ١٩٦٧) . وأعمال مروجيك وحدها كافية لاثبات ما أنا بصدده وهو أن الاسلوب الذى نطلق عليه كلمة العبث ليس أسلوبا مرتبطا ارتباطا عضويا بالفردية أو بفلسفة العبث . وسوف أسوق أمثلة لذلك.

ولنبدأ بيونسكو . ان يونسكو ولا شك من ائمة مدرسة العبث ولكن أعماله لا تختلف فى موضوعاتها عن كاتبى الكوميدية الاجتماعية من أمثال موليير وبومارشيه أو حتى بن جونسن وهو أكثر من الكاتبين السابقين كلاسيكية . ان « المغنية الصلعاء » عبارة عن نقد مرير لطبقة البرجوازية الصغيرة عامة والبرجوازية الانجليزية على الاخص . ان أول مونولوج لمسز سميث يعد بمثابة مفتاح لهذه المسرحية :

فى هذا المساء كان عندنا حساء على العشاء ثم تلاه طبق من السمك ثم طبق لحم الخنزير البارد مع البطاطس المدهوكه وسلطه انجليزية ممتازة . وشربنا بيرة انجليزية معتبره . أما الاطفال فقد شربوا ماء انجليزيا . لقد تعشينا جيدا هذا المساء وذلك لاننا انجليز ، ونعيش فى ضاحية جميلة من ضواحى لندن واسمنا سميث .

وتستمر مسز سميث فى هذا المونولوج تتلذذ من أصناف الطعام وتفخر بجودتها وكيف أن الطعام الانجليزى خير من الاطعمة غير الانجليزية وأن طعامها هى بالذات خير من طعام جيرانها ومعارفها الى آخر هذه التفاهات التى تشغل بال سيدة الطبقة البرجوازية الصغيرة. وجزء كبير من المسرحية حوار بين مستر ومسز سميث وضيفيهما مستر ومسز مارتن حيث يصور يونسكو مرة أخرى تفاهة الاحاديث التى تدور فى مثل هذه الزيارات وكيف أنهم يحاولون اعطاء الاهمية لما ليس له أهمية • ان مسز مارتن مثلا رأت رجلا يربط حذاءه ، فتقابل هذه القصة بالاهتمام الشديد والاستغراب وتستغرق هذه الحقيقة من الحديث وقتا ليس بالقصير • أما الفضيحة التى تثيرهم اثارة يعجز معها الفرد عن الكلام فهى ان المغنية الشهيرة صلعاء • وهكذا يصور يونسكو تفاهة المجتمع البرجوازى بصورة ليس فيها هوادة أو رحمة •

ثم ماذا عن «الساكن الجديد ؟» هذا الرجل الذى يكدس الاثاث فى بيته حتى يكاد يختنق تحته ، أهو شخصية بعيدة عن مجتمعنا ؟ أكاد أقول انه أقرب الى مجتمعنا الحالى منه الى أى مجتمع أوربى • ومرة أخرى أكرر اننى لا أنكر المعانى الفلسفية الكامنة فى هذه الاعمال ولكن هذا الاسلوب الذى أطلق عليه كلمة العبث يعطى الكاتب الفرصة لشحن أعماله بالمعانى المتعددة ومنها المعنى الاجتماعى فى أعمال يونسكو بالذات •

وكنت أود أن أتكلم فى هذا الصدد عن جان جينيه فان كل مسرحياته ملتزمة ولكنها فى قالب فنى حديث نستطيع اذا أردنا أن نسميه اطارا عبثيا ، وهو على كل حال اطار يرفض الشكل الكلاسيكى كما يرفض الواقعية والمنطقية رفضا باتا • ولكن الكلام عن جينيه يحتاج الى شرح طويل وذلك لعدم معرفة أغلب القراء بأعماله من ناحية ولدسامة هذه الاعمال من ناحية أخرى وفى نيتى العودة للكلام عنه فى مجال آخر • ولكن يكفى هنا ذكر أسماء مسرحياته ليرى القارىء أن المواضيع الملتزمة



لا تتطلب بالضرورة أشكالا كلاسيكية • فان مسرحية « السود » تعالج مشكلة الزنوج بأمريكا ومسرحية الحواجز تتكلم عن الجزائر و « الخادمتان » لها دلالة اجتماعية الى جانب دلالتها النفسية • كل هذه الاعمال عبثية الشكل ملتزمة الموضوع • ولكن يمكننى أن أختتم هذا المقال بالاشارة الى عمل قصير حتى نرى كيف استطاع كاتبنا استغلال هذا الاسلوب الحديث ــ الذى أصمم على أنه أسلوب لا علاقة له بمضمون معين ــ فى قضايا هى فى الواقع قضايانا • والكاتب هو ديفيد مرسر وهو كاتب حديث صغير السن واسم المسرحية «زوجة الحاكم» • والحاكم هنا هو أحد حكام الانجليز فى احدى المستعمرات البريطانية • وتبدأ المسرحية واقعية ، فالحاكم قد توفى وزوجته ترفض أن تترك المستعمرة بالرغم من نصيحة الاصدقاء بأن موت الزوج الذى يحميها بسلطة مركزه سيعرضها الى الخطر الكامن فى تلك الغابات السوداء • ولكن الزوجة تصمم على موقفها ويتركها الاصدقاء وفى نيتهم اعادة الكرة باحضار آخرين يؤيدون منطقهم وتبقى الزوجة بمفردها فى قصرها الكبير على قمة احدى التلال المرتفعة بخدمها وحشمها كالعادة • وهنا تنتهى الواقعية فى المسرحية اذ فجأة اذا بالحاكم المتوفى يتقدم لها بزيه الرسمى المزركش وكرشه الضخم وصوته المتعجرف فتقدم له بكل هدوء قدحا من الشاى

ويبدأ بينهما حديثهما اليومي • فيبدأ ويقص عليها ملاقاه في يومه من غباء الوطنيين وجهلهم وذلك بعجرفة الحاكم الذي يرى انه اله والباقون أغنام • وفجأة ينقض على طبق الموز ويأكله بشراهة ويلقى بالقشر على الارض • وتصعق الزوجة «المتمدنة» لهذا التصرف وتنهى عن هذه الفعلة الشنعاء ولكن الزوج لا يتعظ بل ان حركاته تزداد حيوانيه ويفك أزرار جاكتته الحمراء الأنيقة ويخلع حذاءه • وما حوادث المسرحية بعد ذلك الا استمرار لعملية تحول الحاكم الى غوريللا كبيرة ويستعمل بذلك الماكياج حتى أن شكله يصبح غوريللا شيئا فشيئا بينما حديثه هو هو وموضوعه هو هو وان كان يفقد بعض منطقيته • وتنتهى المسرحية بأن تضطر الزوجة الى قتل هذا الزوج الغوريللا وتموت هى بالسكتة ويهرب الخدم خوفا من ان يتهموا بالقتل ويأتى الاصدقاء ويجدون غوريللا مقتولة الى جانب السيدة الميتة • رواية عبثية ولا شك ولكنها تحمل حكما لا رحمة فيه على طبقة الحكام الانجليز يصدره كاتب انجليزى حديث • هل حدث ماحدث أم أن الزوجة تحلم ؟ أمن المعقول أن يتحول انسان الى غوريللا ؟ ان هذه أسئلة غير ذات موضوع اذ ان الموضوع أن الزوجة وقد مات زوجها وذهبت عنه هالته المقدسة وسلطة شخصيته التى كانت تكبح حرية تفكيرها بدأت تراه — فى حالة رؤيا — على حقيقته — حيوانا ضخما لا أكثر ولا أقل ، ثم لم تتحمل حقيقة الرؤيا فماتت • وروعة المسرحية انك ترى أمامك الحاكم يتكلم ويتصرف كالحيوان ويكفى هذا لاقناعك بالقضية • فى حين أن أقصى ما كان يمكن أن يصل اليه الاسلوب الكلاسيكى هو أن تقف الزوجة وتصرخ « انت حيوان • حيوان » وقد تبكى وهى تهرول خارج المسرح !!

وهكذا نرى أنه ليس هناك حتما ما يجعل الاسلوب العبثى يعالج مواضيع فردية وليس هناك حتما ما يجعل الاسلوب العبثى تحمل المواضيع الاشتراكية (كمروجيك) والاجتماعية (يونسكو) والسياسية (جينيه وميرسر) • بل أكثر من ذلك ان باستطاعة الاسلوب العبثى التعبير بصورة أقوى وأكثر فاعلية وذلك بالتعبير عن طريق الصورة ذات الاثر المباشر فترى القضية المعروضة كواقع أمامك• الساكن الذى يدفنه الأثاث ، والحاكم القرد الخ ...

وكل ما فى الامر اننا نرفض هذا الاسلوب لانه غريب غرابة كل جديد لم نألفه بعد • فيجب علينا اذن أن نقرأه حتى نتعود عليه ونقدر على التمييز بين العمل الجيد منه والعمل الردىء • وانى ليتملكنى العجب من قوم مثقفين يقولون ان هذا ابتداع غربى لا علاقة لنا به • ألم يكن الاسلوب المسرحى ذاته والقصة الطويلة كما نعرفها ابتداعا غربيا لا علاقة لنا به فى يوم من الايام ؟ بل أكثر من ذلك ألم تكن مسرحيات الريحانى نفسها مقتبسة من أدب غريب علينا ؟ ان رفضنا للأدب المعاصر الحديث لا يعدو أن يكون رفضا لقبول أدب غير واقعى وكان الادب والواقعية كلمتان لمفهوم واحد • والواقع أن المدرسة الواقعية هى المدرسة الحديثة كل الحداثة لم تنم الا ابان القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ولم تأخذ مفهومها الضيق وتتجمد عند هذا المفهوم الا فى أواخر القرن التاسع عشر • فليست اسطورة ايزيس اسطورة واقعية وليست قصة أوديب واقعية • ولم يكن جحيم دانتى واقعيا ، لا ولا أعمال برخت واقعية ، بل ان كثيرا من أدبنا الشعبى ليس واقعيا • فالحواديت وقصص الجان وقصص ألف ليلة وليلة وبطولات أدهم الشرقاوى لا تمت بصلة للواقعية التى كبلت القصة والمسرحفى القرن التاسع عشر بسلاسل أقوى من الحديد • لقد استطاعتهذه المدرسة الواقعية أن تكون جمهورا أصبح من العسير عليه أن يرى أو يقرأ أى أدب غير واقعى وفقد بذلك المقدرة على استعمال خياله بطريقة ايجابية وأن يمرن وجدانه للتجاوب مع الصور الشعرية بدلا من الصور البلاغية • وآن لنا أن ننفض عن أذهاننا وخيالنا ووجداننا هذه البلادة وأن نرفض الوقوف بتطورنا الفكرى عند حدود القرن التاسع عشر الاوربى • ان أدب القرن العشرين المعاصر يعطينا أداة للتعبير

أكثر غنى وأكثر انطـــلاقة من الواقعية التى ماتت ميتة طبيعية فى موطنها الاصلى ويجب ألا ندفن رؤوسنا فى الرمال ونستتر باســـم الدعوى الى الادب الاشتراكى — فالادب الاشتراكى يمكنه أن يلبس الاسلوب الحديث المتطور . وسوف يبقى الادب العبثى الشكل غريبا علينا ما دمنا نرفض أن نعود أنفسنا عليه ولسوف يعبر عنا يوم أن يمسك القلم الكتاب المصريو النشأة العربيو الاحســـاس اللذين يعيشـــون مشاكلنا ويتجاوبون مع مجتمعنا ويستعملون فيما يستعملون أسلوبا تعبيريا جـديدا أقـل واقعية وأكثر رمزية فنخـــطو ذهنيـا خطوة تحررية جديدة ، خطـــوة أبعـــد من البداية والوسط والنهاية ، ومن المسرحية ذات الثلاثة فصول ، والمسرحية المحبوكة الصنع ، وابعد من حوار : ازيك ســـلامات ، والله وحشتنا يا عبد العال .

بقيت كلمة أخيرة وهى أن من المغالطة القول بأن هـــذه المدارس يقبلهـــا الغرب لأنه غرب ونرفضها نحن لأننا عرب . فما زال المحافظون فى الغرب يقاومون هـــذه الحركات الجديدة . ما زال الاكاديميون يرفضون دراستهـــا وما زال أصحاب المسارح التجاريه لا يستطيعون أن يملأوا جيوبهم من وراء عرضها فالاكاديميون يهتمون بمخطوط من القرن الرابع عشر اكثر من اهتمامهم بما يحدث فى الشرق الأوســـط مثلا ورواد المسرح البرجوازيون لا يذهبـــون للمسرح لكى يعملوا الفكر أو الخيال أو ليحسوا بالحقائق عن انفسهم . انهم ما زالوا يفضلون ان يرتاحوا فى احضـــان الاشـــكال التى تعودوها .

أما المسارح ودور النشر التى تحتضن هذه الأعمال الجديدة فهى مسارح الجيب التى يذهب اليها خاصة الخاصة أو المسارح التقدمية مثلا . ففى انجلترا يقدم هذه الاعمال مسرحان مسرح تقدمى يضطر الى التحايل على الرقابة الانجليزية العتيقة بأن يجعل كثيرا من مسرحياته مقصورا على الأعضاء حتى لا يمكن للورد تشامبرلين أن يتدخل . والمسرح الثـــانى هو مسرح فرقة شاكسبير وادارة هذه الفرقة تقدمية الى أقصى حد وكان من أهم ما قدمته فى العـــام الماضى مسرحية عن فيتنام انتهت بمونولوج موجه الى الجمهور الانجليزى تقول فيه الممثلة مامعناه : أريد أن أرى هذه الحرب هنا حتى لاتستطيعون الجلوس على مقاعدكم الوثيرة وكأن الأمر لا يهمكم أريدها هنا حتى يجلس آخرون على مقاعدهم الوثيرة ويتفرجوا على عذابكم على شـــاشـــة التليفزيون . « (وبالمناسبة فان المسرحيـــة ليست واقعيـــة فى طريق العرض) . أما فى فرنسا فان المسرح الكبير الوحيد الذى يتعهد المسرح الجديد هو مسرح الأوديون وهو مسرح كانت له مع الحكومة الفرنسية معركة فى العام الماضى اذ هددت وزارة الثقافة بقطع الاعانة عنه لأن الادارة عرضت مسرحية جينيه عن الجزائر وفيها يهزأ فيما يهزأ بالحكومة والجيش الفرنسى وبالفرنسيين المستوطنين بالجزائر .

كل هذا له دلالة واضحة وهى أن مدرسة العبث والاشكال الجديدة الفنية لاتحتضنها فى الغرب قوى الرجعيـــة بل قوى التقدميـــة ولا يهاجمها الا المحافظون وأصحاب القيم الطبقية والبرجوازية العفنة التى لا تريد أن يهـــدد استقرارها شىء . والمدارس الجديدة سواء فى المسرح أو فى العرض تحدث قلقا فى النفوس لا يرضاه رأس المال الذى يريد أن يقنع عامة الناس بأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان فى الادب كما فى غيره من الأمور .

في الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر

الأدب الروسي .. المفترى عليه!

فتحى خليل

مرت على دوائر المثقفين المصريين فترة كان التندر فيها على الأدب السوفيتى من امارات الأصالة الأدبية واقتناء الذوق الفنى الرفيع • وكانت النسخة الانجليزية من رواية « دكتور زيفاجو » لبسترناك • فى يد المثقف من شارات الذود عن الحرية الأدبية حيثما كان هناك قهر واستبداد .

وبشكل عام ـ وهذه ظاهرة أكثر جدية ـ كان بين أغلب المثقفين ندم على أدب ما قبل الثورة الاشتراكية فى روسيا • ورثاء يتحول الى جفاء لأدب ما بعد الثورة •

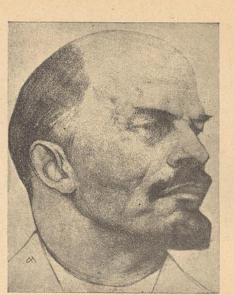
ولقد قتلت الثورة ، فيما قتلت ، الأدب الروسى العظيم ، أدب جوجول وبوشكين ودستويفسكى وتولستوى وتشيكوف . تلك كانت مسلمة من المسلمات فى بعض الحلقات الأدبية .

حتى مكسيم جوركى • الذى راجت أعماله بين المثقفين فترة طويلة كان لها أثرها، انحسرت موجته وتحمل جانبا من اللوم . فقد بدا للمثقفين كأنه جسر ماتت حركة روسيا الأدبية على بنيانه وهى تعبره، وفوق ذلك كان جوركى هو صاحب « التعاليم » التى تلقفها جيل الثورة من الأدباء . فكيف يحاسب على ثمرة تعاليمه ؟

هذه هى القضية التى أريد أن أتعرض لها ـ فحصا ـ لا هو بالدفاع ولا هو بالهجوم .. لأنها قضية معقدة لا تكسب بخطبة حماسية ، وانما تكسب بتقليب الرأى فى جوانبها بقدر المستطاع •

وأحب ان ابدأ بازاحة مغالطة ينبغى أن تبارح المسرح فورا ، وهى القول بأن الثورة تجنى على الأدب ، لأن الثورة فى جوهرها تحرير ، والحرية تضيف الى طاقة الأدب ولا تنقصها • فاذا كان هناك ما يجنى على الأدب فى مرحلة ثورية فليس الثورة ، ولكن قوة مضادة لها ، أو سلبية من سلبيات الثورة لا تدخل فى تركيبها الأصيل وانما تتعلق بها كالأوشاب الغريبة •

وبالنسبة للثورة الروسية خاصة ، فان الأدب كان له وضع خاص منذ مرحلة التمهيد لها .. وليس فى وثائق الثورات ، ما فى وثائق الثورة الروسية من اهتمام بالحياة الأدبية



لينين

قبل وصول تنظيم الثورة الى الحكم . وتضم كتابات لينين التى حفرت لثورة اكتوبر طريقها النظرى والفكرى ، دراسات ادبية موجزة ولكنها غنية بالأفكار ، تربط بين الأدب والثورة ربطا عضويا . وقد كتب لينين فى عامين سبع مقالات عن ليوتولستوى ، تحس من خلال سطورها بأوار معركة سياسية ضارية يخوضها ذلك السياسى الفذ ليحتضن ليوتولستوى ، حتى وهو جثمان ، ويقاتل ليذود عنه ضد هجمات خصومه الذين يستميتون ليضموا جثمان تولستوى الى مقابرهم الطبقية .

ولم يكن ليوتولستوى من دعاة الثورة ، بل كان من دعاة الاستسلام . ولكن لينين رأى انه ابن الثورة فى ساعة اليأس وكيف يتركه فى لحظة الحزن العظيم ؟

لقد رسم تولستوى فى اعماله الادبية بمقدرة خارقة وعبر خمسين سنة من العمل الأدبى الشاق ، صورة روسيا وهى تخرج جريحة من مرحلة الرق لتستقبل خناجر أصحاب المصانع ، صورتها وهى تستغيث من الرمضاء بالنار . وكانت صياغته انتقادية لهذه الصورة تعبيرا عن جانب القوة فى حركة الفلاحين ، بينما كانت دعوته الفلسفية الى الاستشهاد فى غير معركة هى التعبير الدقيق عن جانب الضعف فى حركة الفلاحين ..

فكيف لا يكون تولستوى فى معسكر الثورة حتى ولو لم يكن من دعاتها ؟

كان ذلك هو منطق لينين وهو يقيم تراث ليو تولستوى .. ولقد رأى فى تجاوز انتاج تولستوى لحدود روسيا تعبيرا قوميا عن الأهمية العالمية لثورة روسيا المقبلة ، فقد كتب لينين مقالاته السبع بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٠ أى قبل قيام الثورة بسنوات .

ولا ريب أن الحماسة التى يبديها قائد الثورة الروسية دفاعا عن مكان تولستوى وموقعه من المعترك ، ورفضا لمحاولات خصوم الثورة ان يعمدوا أديب روسيا الكبير فى معسكرهم ، تنم عن اهتمام أصيل بدور الأدب فى الثورات . وهو اهتمام مبكر يدعو الى التفاؤل المنطقى بمكانة الأدب فى الثورة حين تندلع وتنتصر .

فماذا حدث ؟

ولكن .. يحسن أن نفحص قبل الاستطراد نقطة هامة .

هل كان من الممكن ان يستمر الأدب الروسى فى مجراه القديم بسماته الانتقادية التى صورت ما يمكن ان نسميه « المأساة الروسية » سواء أكان ادبا يدعو الى الثورة أو ينتهى الى التسليم والتطهر بالألم من آثام مأساة روسيا القيصرية . وكيف يستقيم ذلك مع الانقلاب الذى وقع ؟

اذن كان لابد ان يحدث تحول . فقد تغير وجه روسيا ابتداء من عام ١٩١٧ . كان هناك عالم جديد يولد بغير نموذج سابق ولم يكن وضعه قد ورد فى كتاب . وكان منهج التجربة والخطأ فى بناء المجتمع شبه قانون من القوانين الجديدة ، وكان هناك هجوم من الأعداء سواء أكانوا من خارج الحدود أو من داخلها . وكان هناك ارتباك اقتصادى نجم عن التخريب المقصود فى مواجهة الثورة وكانت هناك شبه مجاعة . وكانت هناك دعاية عالمية مركزة على

دولة الثورة الجديدة تحاول مستميتة أن تعزل الرأى العالمى عنها وتوغر صدره عليها بالتشنيع والكذب والتدليس والمبالغة. وكانت هناك تركة الماضى الروسى الطويلة الثقيلة، أى كانت هناك بصمات المأساة الروسية لم تنقلب بين يوم وليلة بل ظلت بحكم الرسوخ الزمنى صامدة تقاوم.

ووسط هذا المعترك كان الأديب الروسى مطالبا بأن يصنع شيئا فى صف الثورة. ولم يكن حزب الثورة حزب مثقفين فى الأساس، بل حزب عمال وفلاحين وجنود وبحارة. ولم يكن مثقفو الحزب هم أعرض الجبهات بين المثقفين ولا كان أدباؤه كذلك. كان له علمان هما جوركى ومایاكوفسكى. ولكن روسيا طويلة وعريضة وعميقة الغور. وكانت الدنيا القديمة تهجم على الدنيا الجديدة بكل ثقلها من الخارج والداخل معا. وكانت الظاهرة الاجتماعية والفردية فى ذلك الخضم معقدة جدا ومضغوطة ومتوترة. كذلك كان التراث الأدبى الكلاسيكى يبدو غريبا ونشازا لا يسهل الارتكاز عليه كقاعدة انطلاق للجديد.. لقد بدا التراث للحظة تاريخية معنية عقيما معلقا فى الهواء رغم كل مافيه من فن وعبقرية. ومن الممكن تصور الغربة التى عاشها التراث الأدبى الروسى لما قبل الثورة، فى سنوات التحول الأولى التى شهدتها روسيا تحت حكم البلاشفة.. فقد كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية تنقلب رأسا على عقب وطبيعة الانسان نفسها تعانى



نيقولا جوجول

من انقلاب ذهنى وتنشأ انماط غير الأنماط وابطال غير الأبطال.

كذلك كان للتراث الأدبى الروسى قبل الثورة روافده الأوربية يتأثر بها ويؤثر من خلالها. أما بعد الثورة فقد بدا التراث الأوربى غريبا كذلك وابن عالم غريب تبتعد صورته بسرعة البرق عن صورة المجتمع الذى ينشأ على حطام روسيا القديمة.

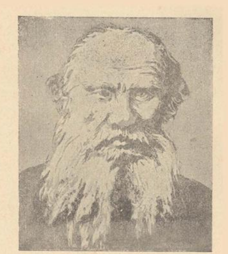
وباختصار.. يمكن القول بأن الأدب الروسى غداة الثورة كان فى مازق معقد وكان عليه أن يشق طريقه على ارض وعرة ومجهولة. وكانت أهدافه جديدة على العالم وعليه.

كانت روسيا «تتناقض» مع ذاتها التاريخية ان صح هذا التعبير، وأيضا تتناقض مع العالم من حولها. وكان هذا التناقض المركب قوة ضاغطة على المجتمع وبالتالى على الأدباء الروس.

كذلك كانت سلبيات الحكم - وليس هنا مكان رصدها فهى معروفة الآن للجميع - قوة ضاغطة اضافية ليست فى جوهر الثورة وإن كانت قد امتدت طويلا كأنها علامة من علاماتها.

فى هذا الاطار ينبغى أن نحكم على الأدب الروسى منذ ثورة أكتوبر وبدون ذلك نكون متجنين عليه عن قصد او عن غير قصد. ومن المفيد ايضا لكى نكون منصفين أن تكون تجربتنا الأدبية بعد الثورة فى أذهاننا ونحن نتأمل التجربة الروسية. ومازالت قضية البحث عن «النغمة الصحيحة» وهى القضية التى فرضت نفسها علينا بعد العدوان الأخير، تقرب صورة ما حدث فى روسيا عبر خمسين سنة من التغيير الاجتماعى والصراع الداخلى، ومع العالم الراسمالى المحيط. وما احتاجه هذا التغيير بل ما فرضه من مسالك قد تبدو لنا غريبة، ومن قلق يبدو لنا علامة اضمحلال.

ان ما عاناه الأديب الروسى بعد الثورة ليس بالأمر السهل ولا يمكن لمنصف أن يحكم



تولستوى

على نتاج الاتحاد السوفيتى الأدبى بالعقم لأن هذا النتاج يبدو له غريبا لأول وهلة ومنفصلا عن الثوب القديم النفيس للأدب الكلاسيكى الروسى .

***

يمكن تقسيم ادب الثورة الروسية الى ثلاث مراحل :

● مرحلة البناء الاشتراكى وتقديس العمل . وهى تمتد عبر العشرينات والثلاثينات .

● ومرحلة الدفاع الوطنى خلال الحرب العالمية الثانية .

● ومرحلة الانطلاق من الضغوط المركبة والنضج الفنى وعودة الروح الانتقادية منذ منتصف الخمسينات .

وكل مرحلة أدبية من هذه المراحل كانت لها أسبابها . وكانت تعبيرا موضوعيا عن التجربة الروسية أو التعبير « الممكن » عن تلك التجربة التى ظلت تسير وحيدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .. وحيدة فى طريق موحش محفوف بالمخاطر والمكائد بل مفترية .

ماذا كان منطق المرحلة الأولى ؟

كان البلاشفة قد تسلموا وطنا كبيرا فقيرا محاصرا من جميع جوانبه وكان « العمل » هو ثروتهم الوحيدة ليخرجوا بشعوب الدولة الجديدة من براثن الفقر والحصار .

كان العمل اذن هو المنقذ وهو البطل الذى تتعلق به الآمال ، وكان على العمل الأدبى أن يشعل جذوة الحماسة الى وقدتها القصوى فى قلوب الرجال والنساء لينشئوا من العدم أحيانا هيكل الانتاج ، وكان فى بعض جوانبه يبدأ من الصفر . ولم يكن هناك من يمد يد المساعدة الى الدولة الاشتراكية الجديدة بل كان هناك من يمد يد العدوان دائما .

كانت ظروفهم أقسى من ظروفنا .

وقد كان ذلك بابا جديدا من ابواب الأدب ينبغى أن يخلق خلقا وهو باب نظرت اليه أوربا شذرا وتندرت به وهذا أمر طبيعى . ولكنه كان ضرورة اجتماعية وقومية وبالتالى ضرورة أدبية لروسيا وكان على هذا الباب أن يتحمل ضريبة الجديد .. وهو أن يبدو متعثرا وفجا وغليظا حتى تتأقلم أدواته وتشذب عدته بالتجربة والخطأ والوقت .

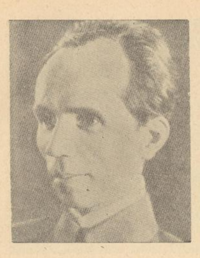
ولقد شق مكسيم جوركى بنفسه لهذا الهدف طريقه وصاغ نظريته . وعلى هذا الطريق أنتج أدباء مثل الكسندر سيرافيموفتش ومزجوا صورة البناء بصورة المقاومة خلال فترة الحرب الأهلية ، كذلك صنع الكسندر تودورسكى فى كتابه « عام .. مع بندقية ومدفع » . فقدم قصة منطقة نائية معزولة عن مركز الثورة تبنى وتدافع عن نفسها . وتلك الأعمال كانت باكورة ولكنها سرعان ماصارت التراث الوحيد لما جاء فى اعقابها من روايات دخلت بحكم الضرورة مصانع المعادن ومحطات الكهرباء وفرق العمل الجماعى .

ولقد ضحكت أوربا عن عنوان قصة « الأسمنت » لفيودور جلادكوف التى صدرت عام ١٩٢٥ ولكن العمال الروس الذين كانوا قد تعلموا القراءة فى فصول محو الأمية لم يضحكوا فقد كانت تلك ملحمتهم . وكذلك كانت قراءتهم الأدبية الأولى .. ولقد كتب

تولستوى عن الفلاحين ولكن الفلاحين لم يقرأوه فقد كانت القراءة حراما عليهم . وكان على المثقف الأوربى أن ينتظر طويلا ليقرأ ما يمتعه من ادب روسيا الجديد . فقد كانت الباكورة تكفى فقط ، الاحتياجات المباشرة للقارىء الروسى ، الذى كان عمله هو الأمل الوحيد لتوطيد الثورة . وكان هدف الأدب فى تلك المرحلة ان يلهب حماسته لينتج بكل قواه وطاقته ويستشعر البطولة فى ذلك ، وبالبهجة رغم قسوة التجربة .

ومع دخول الصناعة فى ارجاء الريف الروسى كان على الأديب الجديد أن يحرك ركود الريف وكان عليه ايضا أن يرصد حركته. وعلى هذا النهج كتبت حناكارافاييفا، ليونيد ليونوف عن العلاقات الجديدة التى دخلت الأكواخ العتيقة ، والقيم الجديدة ، رغم بقاء الآلات العتيقة جنبا الى جنب مع الآلات الحديثة التى كانت تنحدر من المدينة الى الريف العميق . لتقيم المصانع جنبا الى جنب مع المزارع الجماعية .

فى تلك الفترة من العشرينات وحتى منتصف الثلاثينات كان مكسيم جوركى يقود الحركة الأدبية الجديدة ، ينتج النماذج وينظم الطلائع ويرسى التقاليد . ولقد جاب أرجاء الاتحاد السوفيتى بين عامى ١٩٢٨ — ١٩٢٩ يتفقد مواقع البناء الاشتراكى ويكتب عن الانسان الجديد .. ولم تكن تلك نكسة فى رصيده الأدبى على أى حال . من وجهة نظر ثورية كانت تلك مسئولية وضرورة . لقد كان عليه ان يؤسس فن النقد الجديد ، ويضع نماذج الانتاج الأدبى للمرحلة ، ويخطط حتى لأدب الأطفال . فقد كان حقل الأدب الاشتراكى مثل مزرعة عذراء تحتاج الى تخطيط كل شبر من البداية . وتحتاج لتثمر الى جهد جهيد . وكان العاملون فى الحقل أيضا ، خليطا من جيل ما قبل الثورة وجيل الثورة ، وكان فيهم من لم يكن الأدب هوايته وحرفته أصلا ، ولكن حتى من بين هذا النوع من الطلائع ازدهرت ثمار ادبية مثل قصة «والفولاذ سقيناه» لأوستروفسكى، التى تقدم النموذج الحى لميلاد الانسان



نيكولاى استروفسكى

الجديد ، ولادة عسيرة ولكنها رائعة. والرواية رغم أنها من انشاء كاتب لم يكن الأدب حرفته من البداية الا أنها كتبت بحرارة وصدق يقفان بها فى صف الأعمال الممتازة لتلك المرحلة ، مثل كتابات اليكسى تولستوى وشولوخوف .

لقد شق الأدباء الروس فى تلك الأيام عصا الطاعة على فلسفة العالم القديم وبالذات فى الغرب . حيث كان العمل الذهنى للمفكرين ينزه عن الالتفات الى العمل اليدوى ومنذ أفلاطون كانت هذه المثل قائمة لا تمس . والجريمةالتى ارتكبها أدباء ثورة أكتوبر كانت هى « تلويث العقل » بالزيت والتربة ، و « الانحدار » الى مستوى العاملين بأيديهم لتمجيدهم .

تلك كانت « الجريمة الفلسفية » التى لا تغتفرها الحضارة الغربية ابتداء من تعاليم الهيلينيين . ومن هذا المنطلق كيلت التهم وانهمر السباب على هؤلاء « الأجلاف » الذين جعلوا من العمل بطلا .

هى مسألة طبقية اذن .. ومن هنا فنحن نختلف فى نقطة الانطلاق مع النقد الغربى حين نقيم أعمال تلك المرحلة . نحن معها من حيث المبدأ .. والخلاف فى التقييم يكون

حول الأصالة . وهذه مسألة تندرج تحتها جميع آداب المجتمعات ، راسمالية كانت أو اشتراكية .

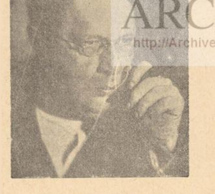
ان أعمالا مثل السفينة « ديربنت » ليورى كريموف ، والدون الهادىء لشولوخوف ، و « الأرض العذراء » لالكسى تولستوى و « الفولاذ سقيناه » لأوستروفسكى .. هي أعمال مفعمة بالحرارة ولها مستواها الفنى رغم ريادتها لآفاق كان اقتحامها حراما من قبل وكانت تمثل لقيم النقد الغربى خرقا وكفرا وزندقة . ولكنها من وجهة نظر ثورية — وفى اطار مجتمعنا — أعمال ذات اصالة وفعالية .

لقد كان للأدباء الروس شجاعة الاقدام على المنطقة المحرمة حسب عرف الأدب التقليدى ، منطقة العمل . وتكاد وطنيتى تمنعنى أن أقول « انهم كانوا أكثر اقداما وشجاعة من معظم أدبائنا » ولكن ، هذه هى الحقيقة . فان قلة من كتابنا وشعرائنا هم الذين اجترأوا على المنطقة المحرمة وغامروا بتجربة البحث عن الشكل الجديد الملائم لهذا المضمون الجديد . وقد كتبنا عن السد العالى والأرض الجديدة مقالات كثيرة ، ونشرنا اعلانات مدفوعة الأجر عنها .. ولكن قليلين هم الذين كتبوا عن السد والأرض الجديدة أدبا .

وحين ننتقل الى المرحلة الثانية من مراحل الأدب السوفيتى مرحلة الحرب ، فان نفس المقارنة تفرض نفسها ونفس الحرج الوطنى يعود بتأنيبه وعذابه . ويكفى أن نقول ان تسعمائه من كتاب روسيا وشعرائها عاشوا فى ميدان القتال لا كمراسلين حربيين بل كمقاتلين ، وفى نفس الوقت لكى ينتجوا أدبا للمعركة . ولقد استشهد منهم كثيرون . وحين تقرأ الترجمة العربية لرواية « الباخرة ديربنت » تذكر مؤلفها يورى كايموف بكلمة تبجيل فقد استشهد وهو يقاتل كبطل . ولكن الحرب ايضا انتجت أدباءها الذين لم يكن الأدب حرفتهم كما حدث فى مرحلة البناء الاشتراكى .

ولقد بدأت الحرب بنكسة كبرى للاتحاد السوفيتى فقد تراجعت جيوشه أمام الغزو الهتلرى المفاجىء وتركت أرضا سوفيتية عليها اربعين فى المئة من سكان البلاد وخمسين فى المئة من انتاج الحبوب والمواد الخام الأساسية . وكان على الشعب أن يبنى ما فقده فى مناطق جديدة ، وان يستصلح أرضا كانت صحارى وأن يرد العدو على أعقابه فى نفس الوقت . وكان على الأديب الروسى أن يعيش الحياة المركبة للجندى والفنان معا . أو العامل والفنان معا ..

فى تلك المرحلة كان للتراث القديم قيمته المباشرة .. « الحرب والسلام » لتولستوى هنا تكتسب قيمة جديدة فى الوطن الجديد وتفادرها غربتها ، كذلك كانت مرحلة العشرينات والثلاثينات قد أصبحت ارضية



الكسى تولستوى

صالحة لها ثمارها . ومن هنا جاءت خصوبة الانتاج الأدبى لمرحلة الدفاع عن الوطن . لقد امتزج الدفاع عن النظام الاشتراكى بالدفاع عن الأرض الوطنية ، وتسللت الى سماء التجربة الجديدة لأول مرة ، نسمات صديقة من العالم الغربى بحكم ضرورات الحرب

والسياسة . وكل ذلك كان له نصيبه فى بوتقة المرحلة .

لقد كتب أدباء روسيا فى تلك الأيام العظيمة أعمالا ما أحوجنا اليوم بالتحديد الى ترجمة مختارات منها . ولقد حشدوا لصورهم الأدبية كل ما كان معروفا من صيغ التعبير واخترعوا صيغا جديدة كرسائل الجنود والتقارير الوصفية للعمليات الحربية والمذكرات السريعة التى اختلس الأدباء الوقت لكتابتها أثناء المعارك . وكان الصدق وليس التنميق هو النغمة المميزة للانتاج . وصدرت « مختارات » مرحلة القتال وهى خليط من كتابات ادباء روسيا المعروفين وادباءها الذين فاتتهم الشهرة وجنودها الذين علمتهم الحرب ان يكتبوا . وكان ذلك فى حد ذاته تقليدا جديدا للحياة الأدبية . وعرف العالم معارك ستالينجراد ولنينجراد وسباستوبول ، وعرف كذلك حركة الهجرة بالمصانع من وجه العدو الى الشرق والشمال .. وعادت الأسماء الروسية الأليفة الى مسامع القارىء الغربى .. وقارىء المستعمرات فى افريقيا وآسيا أيضا .

وسنوات الحرب الأربع تلك التى امتزج فيها القتال بالبناء بالأنفتاح على العالم الخارجى كانت زادا للحياة الادبية فى روسيا .. زادا مركزا يمكن ان نلمس أثره فى الصدق الانسانى لانتاج تلك الأيام .. فلم يعد الأبطال بغير سلبيات او بقليل من السلبيات كما قضت مرحلة البناء الأولى على العمل الأدبى أن يكون .. بل كان الأبطال هنا لحما ودما فيهم ضعف الانسان وقوته . كانت صورة الباسل تتحرك الى جانب صورة المرتد والخائن والجبان . وكانت متاعب النفس البشرية ومشاكل الحياة تجرى فى نفس النهر الصاخب المجيد .. مجد النضال الوطنى .

لقد أكسبت المعارك الحقيقية ومواجهة الموت والخطر أدباء روسيا صدقا وكرامة .. كما انضجت النار ملكتهم الفنية .

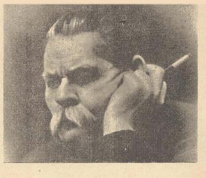
ولا ريب ان بذور مرحلة الانطلاق التى أعقبت الحرب كانت قد وضعت فى صميم مرحلة القتال . ولم تكن مرحلة « ذوبان الجليد » بعيدة عن حرارة المرحلة السابقة عليها . كذلك علمت الحرب فيما علمت .. الاعتداد والنقد ، وانه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

بعد الحرب .. حدث انقلاب .

وأصل هذا الانقلاب ينبغى أن يعود الفضل الكبير فيه الى جيل الثورة الذى صمد وحافظ على حياة التجربة رغم كل شىء . وهذه سياسة ولكنها فى صميم المسألة الأدبية . وبعد الحرب لم تعد حياة الانسان الروسى غربة عالمية . فقد اصبحت الاشتراكية نظاما وليس دولة واحدة محاصرة . وبعد الحرب .. أصبح الاتحاد السوفيتى قوة وكان قد أفلت من الضياع وأفلت من المجاعة وأفلت من الحصار وأفلت من الهزيمة. وكان طبيعيا أن يفلت من عبادة الفرد « وعبادة النصوص » أيضا . ولكن .. كان هناك من يحب أن يفلت من النظام نفسه أى من التجربة الكبيرة فى ظل موجة الافلات تلك .



بوشكين



مكسيم جوركى



شولوخوف

ومنذ المؤتمر العشرين الذى انعقد عام ١٩٥٦ وطرح قضية عبادة الفرد وقضية الحرية . والدوائر الغربية نشطة فى محاولة يائسة للاستفادة من موجة الحرية والانفتاح على العالم . ومن الانصاف أن يتخذ المثقف العربى موقفا مختلفا . ولقد أثار الغرب قضية باسترناك ونفخ فيها وحملها فوق ما تحتمل . وحاول أن يلعب نفس اللعبة تجاه انتاج الجيل الشاب من الشعراء . وجعل من قضية سينافسكى واديبيل وتارسيس ملحمة استشهاد أدبية . ولكن الحركة الأدبية فى روسيا تسير قدما وسرعان ماتهدأ الزوابع الزائفة من حولها . ومازال مبدأ صيانة المبادىء الاساسية للاشتراكية يسير جنبا ألى جنب فى الاتحاد السوفيتى مع المرونة الكبيرة فى صياغة الأدب والفن . ومازال الهجوم على المجتمع أمرا منكرا ولو تستر تحت راية الحرية . وهذه قضية يفهمها الوطنيون هنا ولا يجدون فيها ارهابا .. وحين شبه شولوخوف « سينافسكى» وزميليه بالذى يصفع أمه حين يهاجم وطنه كان تشبيهه دقيقا من وجهة نظر وطنية ..

نحسها نحن وندرك سلامتها .

ان الانفصال عن التجربة الوطنية الاشتراكية هو المأخذ الوحيد الذى يحاسب عليه الأديب السوفيتى .. وفيما عدا ذلك فهو حر .. تلك هى خلاصة تجربة الانطلاق التى بدأت بالمؤتمر العشرين ونضج قانونها منذ عام . ولعل قصيدة « نيكولاى جريبا شوف » التى يخاطب بها الجيل الجديد المأخوذ بجاذبية القيادة الغربية للحضارة .. تلخص الاحساس بالقلق القائم هناك الآن .. وهو قلق مفهوم :

يقول جريبا شوف :

« **تأتون الينا بالترجمة الأجنبية لكتبكم** »

« **كأنما هى صك الخلود** »

« **ولكنى أقول لكم : سيأتى زمن تحسون فيه باليتم** »

« **وبأن العلم الأحمر لم يعد يظللكم** »

« **يومها يشمئز منكم أهلكم** »

« **ويأتى زمن تندثر فيه أعمالكم وذكراكم** »

« **ويموت صدى أغانيكم** »

« **يومها لن يرثى أحد لما تذرفون من دمع** ».

مصر
فى
البرديات اليونانية

٢ التربية والتعليم

فاروق فريد

ظلت مصر طوال الفترة اليونانية ـ الرومانية التى استغرقت تسعة قرون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنظم اليونانية الرومانية • وقد تخلل هذه الفترة صراع قصير الأمد بين النظم اليونانية وبين النظم الرومانية عندما وفد الرومان الى مصر عام ٣٠ ق•م ، وسرعان ما حسم ذلك الصراع أصالة التراث اليونانى وتفرده لا سيما فى ميدان الآداب والفنون ، وكان نتيجة ذلك أن دمغت تلك الآداب والفنون بطابعها كل مناهج التربية والتعليم وأساليبها ، ليس بمصر وحدها وانما شمل ذلك كل منطقة البحر الابيض المتوسط ، وروما نفسها فى زمن كانت الغلبة فيه للرومان • وربما كان حظ مصر فى الافادة من النظم اليونانية أوفر من غيرها ، اذ استطاعت تلك النظم أن ترسخ على مدى الثلاثة القرون التى قضاها البطالمة فى حكم مصر بعد أن تسربت الى أوجه الحياة المختلفة وخاصة فى مجال التربية والتعليم • فقد عمل بطليموس الاول على منافسة مراكز الحضارة القديمة، وجعل عاصمته الاسكندرية أجمل عواصم العالم وأكثرها اجتذابا لمفكرى ذلك العصر • فانشأ بها المتحف الذى كان بمثابة مركز للبحوث الادبية والفنية ، وأقام بها مكتبة هائلة احتوت على شتى مخطوطات مفكرى اليونان ، وانتقل تبعا لذلك مركز الثقل الى الاسكندرية لتصبح أرقى مراكز الحضارة طوال هذه القرون الثلاثة، ولتعرف هذه الفترة من تاريخ الادب «بالعصر السكندرى» وانتهج الملوك البطالمة الذين خلفوا بطليموس الاول سياسته ولم يحيدوا عنها حتى أصبحت كل مدينة بل وكل قرية من قرى مصر خلية نشطة تعج بالمهتمين بالعلوم والفنون اليونانية ، وكان من الطبيعى أن يمتد تأثير الثقافة اليونانية مباشرة الى مجال التربية والتعليم فى المدن والقرى على السواء •

وكلمة التربية والتعليم فى اليونانية *Paideia* تعنى العناية بالنشء منذ الطفولة الى الشباب عناية فائقة من الناحية الجسمانية والعقلية والنفسية • وكان من مظاهر ذلك الاهتمام بالنشء ان كان الطفل يبدأ فى تلقى دروسه فى سن السادسة بالمدرسة الاولية ليتعلم القراءة والكتابة ومبادىء الرياضيات والموسيقى الى أن يبلغ سن الرابعة عشر عندئذ ينتقل الصبى الى مرحلة الشباب التى يستهلها بقص شعره ، وكان الطفل لا يقص شعره طوال فترة الصبا والى ان يبلغ الرابعة عشر ، ويتم ذلك فى احتفال صاخب تقدم فيه الهدايا (١) • وببلوغ هذه السن يبدأ الصبى مرحلة ثانية من التعليم الراقى يتلقى فيها دروس الرياضيات والبلاغة والآداب والقواعد اللغوية والاوزان الشعرية • وكان التعليم قاصرا على فئة معينة تتمتع ببعض الامتيازات وتنحصر فى اليونانيين دون سواهم ، اذ كان الانخراط فى «منظمة الشباب» *Epheboi* وحده هو الذى يكفل للشاب *Ephebes* تلقى دروس هذه المرحلة من التعليم ، ولم يكن بوسع الشاب أن يلتحق بتلك المنظمة ما لم يثبت أنه من أصحاب الامتيازات ، فيتقدم بطلب الى المسئولين مرفقا بالشهادات وغيرها مما يثبت جنسيته وجنسية آبائه وأجداده • وبعد فحص تلك الشهادات والتحقق من صحة ما جاء بها يصبح الشاب عضوا فى تلك المنظمة ويبدأ فى تلقى دروس المرحلة الثانية من التعليم التى أشرنا اليها • ولدينا البردية

---

(١) تشير الى ذلك بردية من القرن الاول الميلادى يقول فيها صبى لأبيه :

« ••• وعندما يقص أسيدوروس شعره فما هى الهدية التى تقترح على تقديمها ؟ •••••• »

التالية نموذج للطلب الذى كان يتقدم به الى المسئولين ولى أمر الطالب (٢) :

طلب تسجيل شاب فى منظمة الشباب

الى (٠٠) ٠٠٠ لونجينيوس لونجينيوس المسمى كذلك أبوللونيوس ، الكاهن ، وولى الدين ، والراعى الأعظم لمجالس الحكم وسائر المحاكم الاخرى، من ايسيدورا بنت ابوللونيوس ، مواطنة (لها حقوق المواطنة) ومعها كضامن لها ، زوجها الثانى اجاثودايمون بن ثيوكسينوس، من عشيرة سوسيكوزميوس ومن أسرة الثاييس والمسجل فى منظمة الشباب فى العام الثامن عشر من حكم ايليوس انطونينوس المبجل ، أرغب فى أن يسجل فى العام القادم، السابع والعشرين من حكم الامبراطور قيصر ماركوس اوريليوس كومودوس انتونينوس‌بيوس فليكس أوغسطس ارمنياكوس ميديكوس بارثيكوس سارماتيكوس جرمانيكوس ماكسيموس بريتانيكوس (أرغب فى أن يسجل فى ذلك العام) ضمن منظمة الشباب ابنى ديدوموس الذى كان أبوه ثيون ابن ثيون ابن ثيون من‌عشيرة سوسيكوزميوس وأسرة الثاييس ، والذى سجل فى منظمة الشباب فى العام الثالث عشر من حكم ايليوس انطونينوس المبجل، (والذى) أعفى الآن ، فالتمس منكم ان (تتكرموا باصدار) أمركم (الكريم) بأن يحرر خطاب الى الموظفين المسئولين ليأخذوا بدعاوايا الصادقة ولاخبار الموظفين المختصين ليتولوا قضيتى عندما أتم الأوراق المطلوبة لتسجيل اسم ابنى السالف الذكر ديدوموس ضمن (شباب) المنظمة ولاخبار المشرف ورئيس الجمنازيوم الحاليين أن يستقبلوه بين أعضاء المنظمة (وأملى) أن يشملنى عطفكم ٠

وقد انتشرت هذه المنظمات بارض مصر ، وكان العضو فيها يصبح تلقائيا عضوا فى كتلة المواطنين *Politeuma* ٠ وعليه آنذاك أن يحضر المناسبات العامة ويشارك فيها كاقامة الولائم الرسمية وتنظيم مواكب النصر والاشتراك فى المهرجانات والأعياد ٠ غير أنه شيئا فشيئا تحررت تلك المنظمات من اشراف الدولة وخاصة فى العصر الرومانى ، واقتصر دور أعضائها على حضور المهرجانات الرياضية وتلقى الثقافة ودراسة الديانات ، ولكن بقى من أهم مزايا المنظمة أنها تكفل لعضوها دخول الجمنازيون (باللاتينية : الجمنازيوم) ٠ والجمنازيون هذا من أشهر المؤسسات التربوية اليونانية وقد انتشر انتشارا واسعا بأرض مصر فلم يبق وقفا على المدن الكبيرة وحدها ، بل انتشر كذلك فى القرى الصغيرة ٠ وكان الجمنازيون أشبه ما يكون بالاستاد فى عصرنا الحديث فهو عبارة عن سور يحيط بارض فضاء واسعة خارج المدينة أو القرية ، ومن أهم أقسامه مكان واسع يتدرب فيه الشباب على مختلف أنواع الرياضة : العدو والقفز ورمى الرمح والقرص وغيرها ، وداخل

(2) J.E.A. *(Journal of Egyptian Archaeology)* XIII, p. 219.

الجمنازيون كان يقام بناء يسمى «البلايسترا» *Palaistra* وهو عبارة عن بناء صغير يقيمه المدرس داخل الجمنازيون وبه حمامات عديدة ، وغرف لخلع الملابس ومخازن للزيت الذى يدهن به الشباب أجسامهم وغرف للتمرين على الملاكمة يتدلى منها أكياس من الرمل يمارس عليها الشباب تدريباتهم وغرف للمصارعة يغطى أرضها رمل ناعم ٠ وكان لكل مدرس « بلايسترا » يستقبل فيه تلاميذه الخاصة به ، فهو أشبه بمدرسة خاصة تحت اشراف ذلك المدرس ، ومعه مدربون محترفون يتولون تدريب الشباب ٠ وعلى الرغم من أن اهتمام تلك المدرسة الرياضة كان منصبا فى المكان الاول على تربية الاجسام فقد اهتمت الى جانب ذلك بتدريس الآداب والفنون واللغات ٠

ومن المجموعات البردية التى تخلفت لنا - من العصر البطلمى - مجموعة ضخمة من‌البرديات كانت ضمن أرشيف شخص يدعى زينون عاش فى القرن الثالث‌ق٠م٠ وكان زينون هذا ناظرا أو وكيلا لرجل يونانى ثرى يسمى ابوللونيوس ويعمل وزيرا لبطليموس فيلادلفوس (الثانى)٠ وقد أشرف زينون على ادارة ضيعة لأبوللنيوس فى بلدة فيلادلفيوس بمنطقة الفيوم ٠ وكرجل من رجال الأعمال كان لديه أرشيف يحتوى على الكثير من ايصالات الضرائب والحسابات وتقارير المحاصيل واحصاء بسكان الضيعة وما الى ذلك ٠ وقد نشر عدد كبير من هذه البرديات فى أماكن متفرقة من جامعات العالم ومتاحفه(٣) واذا كان لمجموعة زينون هذه اهمية قصوى لمعرفة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر أثناء العصر البطلمى ، فما يهمنا منها الآن هو ما يتعلق بالتعليم ٠ فقد أرسل زينون صبيا يدعى بيروس الى الاسكندرية ليتعلم فى بلايسترا مدرس يسمى هيراكليس ، وقد ظلت الخطابات متبادلة بين زيون وهيراكليس المدرس غير أن ما عثر عليه فى مجموعة زينون هى خطابات هيراكليس فقط ٠ ومنها نستشف موضوع المراسلة بينهما ٠ فقد أرسل زينون الى هيراكليس يطالبه بالاستمرار فى تدريب‌الصبى تدريباً رياضياً ان كان واثقاً انه سيحرز نصرا رياضياً فى احدى المهرجانات التى عرفت باسم الـ « بطوليما *Ptolemeia* » واذا كان غير واثق من نصره فليدعه يستذكر دروسه ولا داعى لصرف مبالغ طائلة على تدريبه٠ وقد رد عليه هيراكليس المدرس بخطاب تسلمه زينون يوم ٥ مايو عام ٢٥٧ ق٠م٠ (٤) يقول فيه ان الآلهة

(3) E. and H., No. 299.
(4) P. Cairo Zen., No. 59060.

P. Cairo Zen. *(Catalogue générale des antiquités égyptiennes du Musée du Caire : Zenon Papyri*, by C.C. Edgar, Cairo 1925.
P. Col. IX *(Accounts in Zenon Papyri*, by E. Grier, New York, 1934.
P. Col. Zen. (Zenon Papyri : *Business Papers of the 3rd. Century B.C. dealing with Palestine and Egypt*, Vol. I by W.L. Westermann, 1934.
Vol. II by W.L. Westermann, C.W. Keyes and H. Liebesny.

وحدها هي التي تضمن النصر للصبي – وان كان بطليموس مدربه يرى انه يبشر بالخير ، بل ويعتقد انه سيفوق اقرانه في الألعاب الرياضية كما ان الصبي لا يكرس كل وقته للألعاب مهملا دراسته • فهو يستذكر دروسه ومتفوق في دراسته • وينهي هيراكليس خطابه بعدة مطالب يحتاجها الصبي من زينون مثل اغطية للسرير وفطر وبعض الملابس ، وقد عثر في ارشيف زينون على خطاب آخر ارسله هيراكليس له بعد الخطاب السابق بعام (اى عام ٢٥٦) وفيه يقول هيراكليس ان الصبي ان احرز نصرا فلن يكون ذلك النصر الا تكريما لمقام راعيه زينون ، كما انه سيكون في مقدوره أن ينتفع به بعد اتمام دراسته في أعمال سكرتاريته • ويتضح من هذه الخطابات ان التعليم العالي كان يتم جنبا الى جنب مع التربية الرياضية في الجمنازيوم ، أو ان شئت فسمه المعهد العالي للتربية الرياضية والتعليم •

وقد أثارت علاقة ذلك الصبي بيروس بالثرى زينون جدلا طويلا بين العلماء • فقد اعتقد البعض انه عبد كان لديه فارسله ليتعلم ، وهو أمر شاع بين اليونان والرومان • فكثيرا ما كانوا يعنمون العبد ليفهموا اليه بعد ذلك باولادهم • ولكن طالما ان الصبي كان يتلقى علمه في الجمنازيون ، فلا بد انه كان عضوا في منظمة الشباب ، وبالتالي كان حر المولد ويوناني الجنسية • أما لماذا يهتم زينون بامره ، فهذا ما نستطيع ان نستنتجه من خطاب آخر (٥) اذ أرسل رجل يدعى «بيرو» خطابا الى زينون يذكره فيه بوعوده له • فقد وعده زينون أن يبذل قصارى جهده ليساعده والآن قد حان وقت مساعدته له • « فلترسل اذن ابنى الى مدرسة صغيرة (بلايسترا) وتتولى شئون ملبسه ومأكله » • ثم يطلب منه بيرو أن يرسل له الطعام والملبس « كى أظهر بالمظهر الذى يليق بى كرجل يونانى ولا تعاملنى مثل الشحاذين وتتركنى أنتظر على بابك لأقابلك ••• وان كانت عباءة من الصوف غلية الثمن فلتعطنى بدلا منها قطعة من التيل الى أن يتسنى لى الحصول على الملابس اليونانية » •

ونلاحظ من لهجة هذا الخطاب أن بيرو يطالب زينون بقضاء حاجاته وكأنها حق له عنده • وهمه الأكبر هو أن يتلقى ابنه التعليم فى « البلايسترا » ثم المحافظة على مظهره كرجل يونانى ، وهذا أمر طبيعى لأنه يعيش فى مجتمع غريب عليه • أما مدى التزام زينون بالوفاء بهذه المطالب فقد كان التزاما أدبيا • فهو كرجل يونانى يصبح راعيا لليونانيين من بنى جلدته ويعمل على أن يكفل لهم حياة شريفة • وامتدت هذه الرعاية الى مجال التعليم • فقد كان الأثرياء اليونان من أمثال زينون وأبوللونيوس صاحب الضيعة يتولون رعاية أبناء الفقراء وينفقون عليهم فى تعليمهم •

***

وقبل أن ننتقل الى مناهج التعليم ، علينا أن نشير بسرعة الى مواد الكتابة . فتلميذ العصر الحديث سعيد بما يقدمه له العلم من مواد تسهل عليه استذكاره لدروسه أو تدوينها • • أما تلميذ العصر القديم فقد كان يعانى معاناة بالغة • فمادة الكتابة الوحيدة كانت أوراق البردى ، وهذه الاوراق باهظة الثمن ، ولا نتوقع أن يشتريها التلميذ يتدرب فيها على الحروف الابجدية أو ليحل فيها مسائل الحساب وقواعد اللغة ثم يلقيها• لذا اتجه التلاميذ الى المواد الاخرى المتوفرة والأرخص ثمنا . وكان أول ما صادفه هو الشقافات المتخلفة من بقايا القدور والاوانى الفخارية المكسورة يلتقطها التلميذ ليكتب عليها بقلم من الصلب ، أو بالأرجح مجرد قطعة من سلك رفيع قد تسميه ريشة . وعلى التلميذ أن يحفر الكلمة التى يذاكرها على الشقافة وهذا ليس بالامر اليسير . كما كانت هناك لوحات من الشمع.وهى عبارة عن اطار مربع من الخشب يصب بينه شمع جامد يحفر عليه التلميذ بريشته الصلب مايريد ، ثم يستطيع أن يمحوه وقتما يشاء . هذه اللوحات أشبه ماتكون بألواح الاردواز «التى كانت تستخدم بمدارسنا منذزمن ليس ببعيد . أما التلاميذ الميسورون أو المدرسون فقد كانوا يستعملون الألواح الخشبية . وهو نوع من الكراريس الدراسية ولدينا فى المتحف البريطانى بعض النماذج لهذه الكراريس فهناك مثلا لوح
Brit. Mus. Add. MS. 37516.
يبلغ طوله قدم واحدة ٤ ١/٢ بوصة وعرضه ٥ ١/٤ بوصة عند الحافة اليسرى ٥ و ٤ ٣/٤ بوصة عند الحافة اليمنى وبه ثقب يعلق به فى المدرسة • وأركان هذا اللوح مستديرة وليست حادة ، مسطر من احد وجهيه بخطوط افقية والوجه الآخر بخطوط راسية تقطعها خطوط افقية، (مربعات) ومحتويات ذلك اللوح نحوية ، فقد وجد مكتوبا عليه جملة طويلة مكررة أكثر من مرة يضع التلميذ فى كل مرة الأسماء فى تلك الجملة فى حالة اعراب مخالفة للاخرى ، (فاعل ثم مفعول ثم مضاف اليه ثم قابل) ومن الجدير بالملاحظة أن اليونانيين فى هذه الفترة كانوا قد أدركوا ان اللغة اليونانية تزخر بحالات اعراب كثيرة ، صحيحة من الناحية النظرية لكنها لا تستخدم فى الحياة اليومية فاهملوا استعمالها ، لكن النحاة رأوا الاستمرار فى دراستها فنجد فى اللوح السابق الذكر أن التلميذ قد استخدم المثنى على الرغم من أن الجمع كان قد أصبح يستعمل للدلالة عليه فى ذلك الوقت • ولدينا فى المتحف البريطانى أيضا كراسة مدرسية اخرى Brit. Mus. Add. MS. 37533. كانت ملكا لمدرس ميسور الحال أو لتلميذ بالغ الثراء فهو يتكون من ٨ ألواح خشبية مربوطة بخيوط حريرية تمر من خلال ثقبين على طول كل لوح وهى تشبه الى حد كبير الكراسة الحديثة ، وكل صفحة تحمل رقما فيما عدا الأولى والأخيرة اللتان كانتا بمثابة غلاف الكراسة ، ومحتويات ذلك الكراس – أو قل الكتاب المدرسى – نحوية أيضا • وهناك عدد آخر من تلك اللوحات فى المتحف

(5) No. 418 in P.S.I. (*Papyri Greci et Latini*), Publicazione della Societa Italiana, by G. Vitelli and M. Norsa.

البريطاني أيضا وفى مجموعات خاصة لدى المهتمين بالدراسات القديمة ، قد لا يعنينا ان نعددها هنا الآن . وكان التلميذ يستخدم الحبر للكتابة على مثل هذا اللوح . اما أوراق البردى فقد كان التلميذ يلتقط المستنفد منها ليكتب على ظهره الخشن وقد عثرنا على عديد من التمرينات المدرسية على ظهر خطاب او شهادة ميلاد او تعداد للسكان او غيرها، والفترة التى تفصل بين ما كتب على الوجه وما كتب على الظهر قد تصل الى الخمسين عاما ، اى كان التلميذ يبحث بين المهملات ليجد ما يستطيع كتابة تمريناته المدرسية عليه ولابد وان تلاميذ ذلك العصر قد واجهتهم صعاب كثيرة حتى يصلوا الى ماوصل اليه تلاميذ اليوم فى سهولة ويسر. وجدير بالذكر أن هذه الألواح لا تحمل مادة ذات قيمة علمية كما انها لا تنم عن منهج تعليمي طموح ، حقيقة ان تلك الألواح لم تجمع من مراكز ثقافية أو تعليمية مهمة بل جمعت عفــوا من القرى النـــائية الا انه يبقى فى أذهاننا سؤال يفرض نفسه فى الحاح ، هل اقتصر التعليم على مجرد معرفة اللغـــة أم ان الألواح المذكورة لم تكن تستعمل الا فى المرحلة الأولية ثم يواصل التلميذ بعـد ذلك ـ وقد نضج ـ الاستماع الى محاضرات أستاذه شفاها بسبب صعوبة الحصول على شقافة او حمل لوح خشـبى يستوعب محاضرة كاملة فى البلاغة مثلا ؟ وهنا ينبغى ان نسقط من حسابنا استخدام أوراق البردى لهـذا الغرض بسبب أسعاره الباهظة مما أقصره على الرسائل والمكاتبات الرسمية والشهادات والعقود أو قل على كل مايراد تسجيله وحمله للرجوع اليه بين آن وآخر او للاحتفاظ به . فلم يكن من الممكن ارسال خطاب على شقافة بلاص مثلا او تقديم شهادة ميلاد على نصف قلة .... الخ .

***

وعلى الرغم من ان الشقافات والألواح لا تعطينا فكرة واضحة عن مناهج التعليم ومستواه فانه يمكننا بمقارنة ما عليها بما نجده فى بعض البرديات أن نكون فكرة أكثر وضوحاً عن التعليم فى ذلك الوقت ونعرض لتدرج مناهج التعليم مع التلميذ فى مراحل تعليمه المختلفة .

نستطيع من خلال عدد من الشقافات اشتراه عالمان انجليزيان هما : (C.T. Currelly and J.G. Milne). من الاقصر والكرنك ويبدو انه كان قد عثر عليها فوق كوم من التراب حيث كان المعلم فى طيبة يلقى دروسه فى الهواء الطلق وكان من اليسير على التلميذ أن يجد احدى هذه الشقافات ملقاة فيلتقطها ليكتب عليها ثم يلقى بها ثانية ، وترجع معظم هذه الشقافات الى القرن الثـــانى الميلادى . غير انه ينبغى التنبيه الى أن هذه المناهج كانت سائدة قبل هذا التاريخ وبعده . نجد على الشقافة الأولى الحروف الأبجدية وقد كتبت فى أربعة أعمدة بطريقة غير مرتبـة . (٦) ويـبدو ان التلاميذ كانوا يتعلمون كيف يعرفون اشـكال الحـــروف بغض النظر عن ترتيبها فى الأبجدية . كما يبدو أن من كتب هذه الشقافة هو المدرس، وذلك لوضوح الخط وتحديده . فقد كان المدرس يكتب هذه الحروف ويطلب من التلاميذ نسخها عدة مرات حتى يعرفوا أشكالها .

وفى الشقافة الثانية ، نجد بعض الأسماء يبـدأ كل اسم منها باحد الحروف الأبجدية على التوالى مثل أخيليوس بيون ، جايو ديون الخ وتكون الحروف الأولى من الأسماء الست الأحرف الأولى من الأبجدية اليونانية اى ان المعلم يطلب من التلميذ أن يكون عدة أسماء تبدأ بحـرف من الأبجدية .. وبعد أن يجيد التلميذ معرفة الأبجدية يبدأ فى تكوين المقاطع فيتمرن على استخدام كل حرف من الحروف الساكنة مع جميع الحـروف المتحركة مثل :

ZA.ZE.ZH.ZI.ZO.Z[ω].
PA.PE.PH P[I] etc

ويبدو ان المعلم كان يستعين بالترديد الجماعى بصوت غنائى مرتفع لتحفيظ نطق المقاطع وحركات الحروف كما كان الحال فى الكتاتيب وفى مدارسنا الأولية الى زمن غير بعيد (الف فتحه أ ، الف كسرة اى ، الف ضمة أو الخ) فقد عثر على شقافة للتمرين على حرف البيتـة بحركاته المختلفة مكتوبا عليها :

βῆτα ἄλφα βα , βῆτα εἶ βε ,
بيته الفا بَ ، بيته إى بِ ،
بيه فتحة بَ ، بيه كسرة بِ ،

βῆτα ἦτα βη , βῆτα ἰῶτα βι ,
بيته ايته بيه ، بيته ايوتا بى ،
بيه كسرة ممالة بِـ ، بيه كسرة ممدودة بى ،

βῆτα οὖ βο , βῆτα ὖ βυ ,
بيته أُ بُ ، بيته أو بُو ،
بيه ضمة بُ ، بيه ضمة ممالة بو ،

βῆτα ὦ βω ,
بيته أوو بُو ،
بيه ضمة طويلة بو ،

والشقافة التالية تمرين على كتابة الكلمات فقـــد وجدت مكتوبا عليها : (٧) .

NOYC
ZAP
OYC
Π ους
------ etc.
T αμους
Y ους
Φ ιλους

(6) G. (Grafton Milne), No. 5.

(7) G. 19.

والحرف الأول من كل كلمة واضح ودقيق بينما الحروف الأخرى كتبت بايدى رقيقة غير راسخة فقد كتب المدرس الأبجدية فى عمود رأسى وطلب من التلميذ أن يكمل كل حرف ليصبح كلمة واشترط عليه أن تنتهى كل كلمة بالمقطع *ous* وقد أخطا التلميذ فى الكلمة الثانية ، ولابد وان المدرس قد عاقبه على ذلك مما الجا تلميذنا النجيب الى التخلى عن كلمات المقطع الواحد اللعينة ، فاستبدل بها كلمات ذات مقطعين .

وهناك بعض لوحات من الشمع كتب على أولها جملة طويلة باليونانية ومعها ثلاثة الواح اخرى نسخت عليها تلك الجملة بحروف صغيرة وبها الكثير من التصحيحات وتصويب الأخطاء وفى أول كل لوحة من اللوحات الثلاث اسم « أوريليوس ثيودوروس ابن أروبيون » ونستشف من هذه اللوحات التى ترجع الى عام ٢٩٤م . ان المدرس قد كتب الجملة الطويلة على أول لوحة ثم طلب من التلاميذ أن ينسخوها على الألواح الباقية وهذه لوحة تلميذ يسمى أوريليوس كتب اسمه على اللوحة وقدمها للمدرس ليريه الأخطاء التى وقع فيها . وبعد أن يجيد التلميذ القراءة والكتابة ، ينتقل الى مرحلة الاملاء فقد كان المدرس يملى عليهم مقطوعة شعرية او نثرية من أعمال المفكرين اليونان . وقد عثرنا على كثير من البرديات والشقافات التى تحمل بضعة اسطر من الياذة هوميروس أو أودسته ، أو من مسرحية يونانية او قصيدة غنائية . وبجانب هذا التعليم اللغوى نجد التعليم الرياضى فقد عثر على شقافات بها مسائل حساب من جمع وطرح وقسمة وغيرها . كما كانوا يتعلمون التاريخ الطبيعى ثم يسالهم المدرس أسئلة فى شكل الغاز . وهناك بردية بها أسئلة عن التاريخ الطبيعى جاء بها (٨) : من من ذوات الاربع لا يرى ضوء النهار ؟ .. من من الحيوانات ذات الأجنحة يرضع أولاده ؟ وقد يخطىء التلميذ فيعاقبه المدرس بطريقة ما وهناك شقافة (٩) كتب عليها اسم وبجواره كلمة (مذكر) عشرات المرات . فقد اخطا التلميذ وكتب الكلمة مؤنثا .

على أن اغلب الجمل التى وجدت على الشقافات والبرديات كانت فى شكل حكم وارشادات للطالب كتلك التى كانت وزارة المعارف تطبعها على ظهر الكراسات ، فهناك مقطوعة صغيرة كلها جمل لها طابع الحكمة الأخلاقية جاء بها : (١٠) .

« الحروف هى أسمى بداية الحكمة
لتكرم الرجل العجوز فهو صورة من الهك
الحب أعرق الآلهة الخالدين قدما
الامتلاك هو أحب ما فى الوجود

(8) P. Rein, Les papyrus Theodore Reinach, by Reinach and P. Collart, No. 87.
(9) O. Tait : *Greek Ostraca in the Badleian Library at Oxford*, by J.B. Tait and Ch. Breuux, No. 413.
(10) P. Collart, *Les papyrus Bauriark*, No. 1.

عندما تأخذ اعطى فبهذا تنال ماربك
الأب هو من يربى لا من ينجب
عقولنا أعظم الآلهة قدسية
انت وحدك من فى مقدوره أن ينقذ نفسه من الأزمات»

وهناك جملة أخلاقية كتبت على ظهر شهادة وفاة تقول (١١) « لا تاتى عملا حقيرا أو مجهولا لا مجد فيه ولا شجاعة » كما انتشرت الأشعار الصغيرة التى تقدم ارشادات للتلاميذ وغيرهم فهناك مقطوعة ترجع الى عام ٢٠٠ ميلادية جاء بها : (١٢)

على الصبى الصغير أن ياكل الخبز
وان يزامل طعامه بالملح والا يقرب السمك
اعطه عقلة أصبعك ان طلب الخمر

وقد نشر جود سبيد عدة الواح مدرسية تزخر كلها بالحكم منها هذا اللوح :

ὅταν παθὼν πονηρὰ χρηστά τις λαλῇ
καὶ τὸν παρόντα πλησίον μὴ λανθάνῃ
διπλάσιος αὐτῷ γίνεται ἡ πονηρία.

عندما يقع المرأ فى تجربة مؤلمة فليأخذ منها عظة
ولتبقى تجربة اليوم (حية) فى ذهنه لاينساها أبدا
وليعلم ان الحزن (سلاح) له حدان

والأمثلة ساحقة فى نسبتها وهى تزكى فى نفوسنا الاعتقاد بان المدرسين كانوا يسيرون فى ذلك على مبدأ كوينتليانوس Quintilianus الذى يطالب بضرورة انماء النوازع الاخلاقية فى نفوس الشبان . (١٣)

وكان التعليم الخلقى يلجا الى أساليب مباشرة كالحض على الفضيلة والنهى عن المنكر او يلجا احيانا أخرى الى أساليب غير مباشرة كالقصة التى نقرأها فى بردية نشرها جرنفيل وهانت (١٤) والتى تحكى قصة صغيرة لرجل ذبح أباه وهرب الى الصحراء حيث لقى عقابه من أسد وثعبان فى وقت واحد ، كذلك نجد فى الألواح الشمعية التى نشرها فيل أحد المعلمين يلجأ الى ابتداع قصص شعرية هادفة أجراها على لسان شخصيات أسطورية وفى احدى البرديات (فى هيدلبرج) أشعار فى الوزن السداسى (٦ سطور) تجرى فى شكل حوار بين فوينيكس واخيليوس هى فى مجملها أقوال مأثورة يهدىء بها الاول من غضب الثانى . وفى بردية اخرى قصة لأب يقدم ابنه للمحاكمة لأنه لم يهب لمعونته . وامتد نطاق التعليم الخلقى ليشمل اغلب واجبات المواطن الصالح ويبدو ان اغلب هذه

(11) P. oxy. 79.
(12) P. oxy, 1185.
(13) (Quint. *inst, or.* i 1-35) «ii quoque versus, qui ad imitationem scribindi proponentur, non otiosas uelim sententias habeant, sed honestum aliquid monentis».
(14) B.P. Grenf and Hunt, *Greek Papyri*, Series II, 84.

البرديات والألواح كانت تمرينات على كتابة الانشاء . وبمقارنة البرديات والشقافات بعضها ببعض نستطيع أن نلحظ ظاهرة هامة هى ان التعليم فى مصر كما كان فى روما - قد تنازعه اتجاهان أساسيان ، أحدهما نحوى يهتم بقواعد اللغة ويغفل ماعداه ، والآخر بلاغى يهتم بالأسلوب والصياغة وشاعرية التعبير .

***

وكما ذكرنا لم يكن التعليم ضمن الخدمات العامة فى الدولة بل كان الآباء يرسلون التلميذ الى مدرسة خاصة يديرها مدرس - كما سبق الاشارة - أو يعهدون به الى معلم خاص وبالتالى توقف مدى التعليم على مدى ثراء الأسرة واقتدارها . ولم يكن التعليم مقصورا على الصبية وحدهم بل نالت الفتيات كذلك قدرا كبيرا منه ، فقد أرسل أبو للونيوس وهو حاكم من حكام الاقليم رسالة الى عائلته فى القرن الثانى الميلادى يقول (١٥) « ... أما عن الحمام والفراخ الصغيرة التى لست معتادا على أكلها ارسلوها الى (فلان) مدرس ابنتى هيرايدوس .. وكل ما لست معتادا على أكله ارسلوه الى هذا المدرس حتى يولى ابنتى رعاية فائقة » فقد اهتم أبو للونيوس بارضاء مدرس ابنته ولكنه فى نفس الوقت يرسل اليه ما ليس بحاجة اليه ، أى كان الانفاق فى حدود الامكانيات الاقتصادية وبلا تبذير وقد أرسل رجل يدعى هيرمايوس خطابا الى أبو للونيوس هذا (١٦) ويبدو انه كان المشرف على تعليم ابنه أبوللونيوس اذ كتب يقول : « .. كما أرجوك أن تأمر خادمك أن يمدنى بالمواد الدراسية المقررة ومناهجها ومن ضمنها كتاب محاضرات ودروس لابنتك هيرايدوس ... »

هذا ما كانت عليه التربية والتعليم بين طبقة اليونان أصحاب الامتيازات أثناء حكم البطالمة الذين ظلوا كذلك فئة مميزة الى حد ما أثناء العصر الرومانى . أما بالنسبة للمصريين فقد ظل الوضع على ما كان عليه أثناء الفراعنة . اذ اقتصر التعليم على فئتين هما طبقة الكهنوت والعائلات المصرية الثرية ، فقد كان المصرى الذى يؤهل نفسه ليصبح كاهنا يتلقى تعليمه فى مدرسة المعبد حيث يتعلم اللغة الهراطيقية والديموطيقية وذلك بالاضافة الى معرفته السابقة باللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية . وبعد انتهاء فترة تعليمه يتقدم لامتحان يعقده له كبير الكهنة ويكتب تقريرا عنه ، ولدينا بردية بهذا الصدد ترجع الى عام ١٦٢ ميلادية (١٧) حررها كبير كهنة معبد « سبكوبتونوس » (أى معبد الآلهة سبك) فى بلدة تبتونيس (وهى حاليا قرية أم البرجات بالفيوم) عن امتحان عقده لأحد المرشحين لمنصب كهنوتى جاء فيها (١٨) .. ان مارسينوس ...

(15) P. Giss, *(Griechische Papyri in Museum des Oberhessishen Geschichtsvereios °zu giessen)*, by O. Egar and P. Meyer, I, No. 80.
(16) P. Giss, I, 85.
(17) P. Teb. *(The Tebtunis Papyri)*, by B.P. Grenf. and A.S. Hunt, No. 291.
(18) P. oxy, 1029.

ابن تنكيكيس قد برهن على معرفته باللغة الهراطيقية والكتابة المصرية (الهيروغليفية) وذلك بقراءته من كتاب هيراطيقى نسخة الكهنة المصريون . وكانت طبقة الكهنوت المصرى تشكل حلقة مغلقة على نفسها وتمنع غيرها من معرفة أسرار تلك اللغات ورموزها ويبدو ان الجهات المسئولة قد شجعت هذا الاتجاه ففى عام ١٠٧ كتب كاهنان من كهنة المعابد المصرية تقريرا الى الجهات المسئولة عن عدد الكهنة العاملين بهذه اللغات قائلا فيها : « ونحن نقسم اننا قد قدمنا لكم هذه القائمة بكل أمانة وصدق . وما من أحد غير هؤلاء الكهنة يعرف الكتابة الهيروغريفية كما أننا لا نعلم صبية أو غرباء لينقلوا عنا هذا الفن » .

أما العائلات المصرية الثرية فقد كانت تستأجر معلما يونانيا خاصا ليعلم أطفالها ويثقفهم وكان على المدرس اليونانى أن يكون على علم باللغة المصرية العامية (الديموطيقية) مما شجع الكثير من اليونان على تعلم هذه اللغة . فقد أرسلت أم يونانية خطابا فى القرن الثانى قبل الميلاد (عصر بطلمى) تقول : « ... وسمعت انك تتعلم اللغة المصرية (الديموطيقية) . لذا أهنئك وأهنىء نفسى لأنك سوف تأتى الى البلدة وتستطيع أن تعمل مدرسا فى منزل الطبيب فالو لتعلم أولاده ... وبهذا يصبح لك سندا وحصنا يقيك قسوة الشيخوخة » فقد كان هذا الطبيب « فالو » رجلا مصريا ثريا ، ومعرفة هذا الشاب اليونانى باللغة المصرية ستؤهله ليعمل مدرسا لأولاد هذا الطبيب . أما الرجل المصرى فان أراد أن يتبوأ مكانة مرموقة فى المجتمع عليه أن يتقن اليونانية طالما انها اللغة الرسمية وقد كانت معرفته لليونانية تؤهله لأن يصبح كاتبا عموميا وهى مهنة مربحة كان من الطبيعى أن تنتشر فى بلد يتكلم لغتين ، المصرية الأصلية واليونانية الرسمية . فقد كانت شتى المعاملات الرسمية والخاصة تتم باليونانية ، وكان الكاتب يقوم بكتابة الوثائق للمصريين الذين لا يعرفون اليونانية نظير أجر معين . ومثل هذه البرديات عديدة . وقد يلتحق صبى مصرى بخدمة أحد الأثرياء اليونان أو الرومان . ويلمس هذا الثرى لمحات الذكاء فى الصبى فيرسله ليتعلم شيئا يستفيد هو منه . فقد أرسل الثرى الرومانى جيميلوس عام ١٥٥ ميلادية صبيا مصريا يدعى خيرمون ليتعلم الاختزال والبردية التالية هى نص التعاقد بين ولى الامر ومعلم ذلك الفن . (١٩)

وثيقة تلمذة لدراسة الاختزال

«من» بانيخوتيس المسمى أيضا باناريس من العاملين بأدوات الزينة بمدينة أوكسيرونخوس (البهنسا) - واسطة صديقة جيميللوس - الى أبوللونيوس ، كاتب اختزال ، تحياتى .

لقد أودعت عندك عبدى خيرأمون لتعلم تلك العلامات التى يعرفها ابنك ديونيسيوس (وذلك) لمدة عامين

(19) P. oxy, 729.

(ابتداء) من الشهر الحالى برمهات من العام ١٨ من (حكم) الوالى (الراعى) انطونينوس قيصر ، وذلك مقابل الأجر المتفق عليه فيما بيننا ١٢٠ دراخما من الفضة فيما عدا أيام الأعياد ، ومن هذا المبلغ قد أخذت (وصلك) القسط الأول ٤٠ دراخما ، ولسوف تتسلم القسط الثانى ٤٠ دراخما عندما يحفظ الولد التعليق كله عن ظهر قلب (٢٠) ، وسوف تتسلم القسط الثالث آل ٤٠ دراخما الباقية فى نهاية المدة عندما يستطيع الولد الكتابة والقراءة فى النثر من كل نوع دون خطأ ، فان أتممت تعليمه فى خلال المدة لن أنتظر الى التاريخ المحدد قبل ، وان كان لن يكون لى الحق فى استعادة الولد فى خلال المدة ، ولسوف يبقى معك بعد انتهاء المدة عدد الأيام أو الشهور التى يكون قد انقطع فيها عن العمل ٠

العام ال ١٨ من (حكم) الامبراطور قيصر تيتوس ايليوس هادريانوس انطونينوس أوغسطس بيوس ، برمهات ٥ ٠

على أن الالتجاء الى التدريب المهنى كان هو الظاهرة الغالبة بين العائلات المصرية فى تربية أولادها ، اذ كانت الاسرة ترسل بهم الى صانع ماهر ليتعلموا منه فنه ، ويتم ذلك باتفاق مكتوب بين ولى الأمر والصانع ينص فيه على مدة التعليم وعلى الأجر والجزاءات والتغيب عن الدراسة وغيرها ، والبردية التالية نموذج لهذه العقود(٢١)

وثيقة تعليم مهنى عند نساج

يقر كل من تريفون بن ديونيسيوس بن تريفون وأمه هى ثامونيس بنت أونيفريوس ، وبطليموس بن باوزيريوس ابن بطليموس وأمه هى أومفيليتوس بنت ثيون ، وهو (بطليموس بن باوزيرين) نساج ، وكلاهما من مدينة أوكسيرونخوس (البهنسا) ، يقر كل منهما أن تريفون قد عهد الى بطليموس بابنه تونيس الذى تدعى أمه سارايوس ابنة ابيون ، والذى لم يبلغ بعد من العمر أشده ، لمدة عام واحد يبدأ من اليوم الحالى ، ليعمل وليتبع كل التعليمات التى تصدر اليه من بطليموس فيما يتعلق بفن النسيج الى المدى الذى يعرفه بطليموس نفسه ، ولسوف يطعم الولد ويكسى طوال المدة كلها « على » نفقة أبيه تريفون الذى سيكون مسئولا أيضا عن كل الضرائب (المستحقة) عليه ، على شريطة أن بطليموس سوف يدفع له مقابل الأكل ٥ دراخمات شهريا ، (كما انه سيدفع) فى نهاية المدة ١٢ دراخما مقابل الكساء ، ولن يكون مسموحا لتريفون (لن يكون له الحق فى) أن يسترد الولد من بطليموس الى أن تستوفى المدة ، وسوف يكون مسئولا عن ارساله للعمل بعد نهاية المدة عدد الأيام التى يكون قد تخلف فيها الولد ، والا دفع غرامة (قدرها) دراخما واحدة من الفضة كل يوم ، وسوف يدفع غرامة عن استرداده قدرها ١٠٠ دراخما ومثلها لبيت المال ٠ واذا فشل بطليموس فى تعليم الولد باتقان فسوف يكون عرضة لنفس الجزاءات ٠ هذه الوثيقة التعليمية نافذة ٠ العام ال ١٣ من (حكم) نيرو كلوديوس قيصر أوغسطس جرمانيكوس الامبراطور ، الموافق ٢١ من شهر أغسطس (سيباستوس) = (توت) ٠

(خط آخر) (الموقع) أنا بطليموس باوزيريون بن بطليموس واوفيلوس بنت ثيون ، سوف افعل كل شىء فى عام واحد ٠

انا زويلوس بن هورس بن زويلوس وابن ديووس بنت سوكيوس قد حررت (هذا) نيابة عنه اذ انه أمى ٠

العام ال ١٣ من حكم نيرو كلوديوس قيصر جرومانيكوس الامبراطور ٢١ من أغسطس (سيباستوس) ٠

من الظواهر الملحوظة فى البرديات المتعلقة بالتربية والتعليم ـ بشكل خاص ـ أن المرء لا يكاد يجد بينها الا عددا ضئيلا كتب باللغة اللاتينية ، فان الرومان الذين استطاعوا أن يرسوا دعائم لغتهم فى المناطق الشمالية والغربية من امبراطوريتهم لم يستطيعوا مناهضة الاغريقية فى الشرق ، والحق أنهم لم يبذلوا جهدا كافيا لاقرار اللاتينية لغة رسمية فى الشرق (٢٢) ، وعندما القى ايميليوس باولوس خطابه فى أمفيبوليس باللاتينية تلته ترجمة يونانية ألقاها البرايتور أوكتافيوس(جايوس)(٢٣)٠ وعلى الصعيد الجماهيرى كان الرومان يتحدثون اليونانية عندما تضطرهم ظروفهم أن يتعاملوا مع أناس لا يتكلمون غير اليونانية ، وطالما أنه كان من السهل على الرومانى أن يجيد اليونانية فانه لم يفكر فى فرض تعليم اللاتينة ـ عندما آلت مقاليد الأمور اليه ـ على من لا يتحدثون غير اليونانية ، أضف الى ذلك أن الرومان الذين لا يعرفون اليونانية كان من السهل عليهم التعامل مع اليونانيين مستعينين على ذلك بالمترجمين الذين كثر عددهم فى هذه الفترة ٠ لم يكن ثمة مشكلة اذن تقوم على استحالة أو صعوبة ما فى التعامل بين الناطقين باللاتينية وبين الناطقين باليونانية تلح على ساسة الرومان أو تدفعهم الى التفكير فى فرض اللغة اللاتينية أو جعلها لغة رسمية للبلاد ٠ وبالتالى تلقينها فى دروس التعليم ٠

ومن الناحية الأخرى لم يفكر الناطقون باليونانية فى تعلم اللغة اللاتينية ، لان اليونانيين بما عرف عنهم من كبرياء واعتزاز بالنفس كانوا يستنكفون أن يكونوا تلاميذ لمن كانوا يوما تلاميذاً لهم، ففى عقيدة اليونانى أنه صاحب الفضل فى تهذيب روح الرومانى وعقله ، فان نسى ذلك لحظة سرعان ماذكره بهذه الحقيقة الرومانى نفسه ، وكان نتيجة لذلك أن انكمشت اللاتينية وتضاءلت بينما سادت اليونانية وانتشرت فى مصر مثلما رسخت فى بلاد اليونان نفسها وفى آسيا الصغرى ، ولا عجب بعد ذلك ان وجدنا أن البرديات اللاتينية كانت قليلة جدا ٠

والشذرات التى نعرض لها هنا هى بقايا تمرينات مدرسية ، اثنان منها تحملان ترجمة يونانية لبعض الكلمات

(٢٠) مجموعة من الرموز المستعملة فى الاختزال عند الكتابة السريعة ٠

(21) P. oxy, 275.

(22) Class. Phil., Vol. 19, 1924, pp. 317-328, *Latin exercises from a Greek Schoolroom* by Clifford H. Moore.

(23) Livy, XIV, 29-3.

اللاتينية المقابلة لها وترجع الى القرن الخامس ، الأولى (البهنسا ١٠٩٩) نقلت كلماتها من الانيادة (آخر الكتاب الرابع وأول الخامس) •

وقد تكشف الحفريات يوما عما يغير من زعمنا عن تضاؤل الدراسات اللاتينية فى مصر القديمة وتقدم لنا ما يعيننا على التعرف على مناهج دراسة تلك اللغة وآدابها •

واخيرا نود لو اشرنا الى بعض الخطابات المتبادلة بين التلاميذ وأولياء امورهم ـ ولدينا عدد هائل من هذا النوع من الخطابات ـ فقد يلقى ذلك بعض الضوء على العلاقة بين التلميذ وولى أمره •

هناك خطاب ارسله صبى الى أبيه (القرن الثالث الميلادى) يقول فيه : (٢٤) « الى أبى الوقور اريون من ابنه ثونيس • تحيات طيبة • قبل كل شىء أسجد أنا كل يوم من أجلك أمام آلهة أجداد هذا المكان الذى أعيش فيه واصلى لهم كى اجدك فى تمام الصحة والعافية ، أنت وكل اقرباؤنا ، والآن هذه هى المرة الخامسة التى اكتب فيها اليك ، دون ان تكتب انت ولو مرة واحدة فقط ، ولا حتى لكى تخبرنى عن حالك وصحتك • كما انك لم تات بالرغم من أنك ارسلت لى كلمة تقول انك آت • انك لم تات لترى ما اذا كان المدرس يولينى اهتمامه ورعايته ام لا • وهو نفسه يستعلم عنك أيضا كل يوم ويسالنى : « ألم يحن بعد وقت حضوره » ؟ أما أنا فامامى كلمة واحدة اجيبه بها وهى « نعم » ارجوك ان تسرع فى المجيء وتاتى فى اقرب وقت حتى يبدأ فى تعليمى • فهو أيضا يتطلع الى هذا • ولو انك كنت قد أتيت معى لكان قد لقننى العلم منذ زمن طويل • والآن عندما تاتى تذكر ما ذكرتك به فى خطاباتى السابقة • لتاتى بسرعة اذن قبل أن يرحل المدرس الى المناطق العليا (الجنوب) • تحياتى الحارة الى أقاربنا وأحبائنا كل باسمه ولكل المدرسين الذين علمونى (فى البلدة) سلاما يا أبى الوقور وأتمنى ان تظل فى صحة جيدة أنت واخوتى بعيدين عن عين الحسود •• » • « ملحوظة (كتبها بين السطور) لا تنسى طيورنا » • لقد أرسل اريون ابنه ثونيس الى مدرسة خاصة تحت اشراف المدرس بعد أن تلقى تعليمه الأولى على أيدى مدرسى القرية • ويبدو انه على الأب أن يلتقى بالمدرس قبل أن يشرع فى تعليم الابن وذلك لكى يعقدا اتفاقا فيما بينهما يتعلق بالأجر وطريقة دفعه • فقد كانت هناك اجور عينية فى صورة غلال أو طيور ودواجن وأجور نقدية يتسلمها المدرس بالنقد • وكتب شاب من بلدة أخرى (من بلدة فيلادلفيا) فى القرن الثانى الميلادى (٢٥) الى أبيه وكان هذا الشاب قد أنهى تعليمه وأصبح جنديا فى البحرية الرومانية • أرسل الى أبيه خطابا من ميناء مسينوم بايطاليا ليطمئنه على وصوله ثم يقول له : « ••• لتكتب لى عن صحتك حتى اقبل يدك ، لانك علمتنى فاحسنت تعليمى وربيتنى فاحسنت تربيتى ، وبفضل هذا أتوقع أن أنل الترقية بمشيئة الآلهة » •

(24) P. Lond, *Greek Papyri in the British Museum*, by Kenyon and Bell, Vol. I, No. 43, p. 48.

ولدينا خطاب من أب رحل ، ترك وراء ابنه التلميذ فى البلدة فكان القلق على ابنه يتسرب الى نفسه فكتب اليه خطابا (البهنسا) القرن الثالث الميلادى (٢٦) يقول : « من كورنيليوس الى ابنه هيراكيس الأحلى من العسل » ثم يسترسل فى خطابه ليعطيه بعض التعليمات ويطمئنه على نفسه ويعده بارسال بعض الملابس والنقود ثم يقول : « فان شاءت الآلهة سوف أصل قريبا بمجرد انتهاء شهر امشير • فانا فى الوقت الحالى مشغول فى عدة موضوعات عاجلة لا أستطيع تركها • والآن يابنى لتكن حريصا على الا تسيىء الى اى فرد من أفراد المنزل • أولى اهتمامك باكمله لكتبك ودراستك مكرسا وقتك ونفسك لتتعلم وتتثقف • فسوف يجلب هذا لك الثراء والسعادة فى حياتك •

لقد كان الآباء كما رأينا يتتبعون سير ابنائهم فى مدارسهم وقد يكون الصبى يتيما فتتولى أمه أموره ، وقد كتبت أم لا نعرف اسمها الى ابنها بطليموس الذى ذهب بعيدا ليتلقى العلم على يد أحد المدرسين : (٢٧)

رسالة الى طالب من أمه

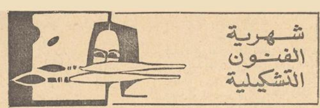
••• (••••) ولا تتردد فى أن تكتب الى عما تحتاج اليه من هنا ، لقد ساءنى أن أعرف من ابنة معلمنا ديوجنيس انه قد أبحر جنوبا (حرفيا الى أسفل النيل)، فقد كنت هادئة البال فيما يتعلق به بعد أن عرفت انه كان ينتوى (أن يرعاك) وأن يبذل غاية جهده فى رعايتك (أن يرعاك ماوسعه الى ذلك سبيلا) • لقد حرصت على أن ابعث اليك واستفسر عن صحتك ، وأستعلم عما تقرأ ، ولقد قال : « انه الكتاب السادس (من الالياذة) » ، وأدلى بشهادة عرفان فى حق مربيك (٢٨) ، لذلك يابنى، ينبغى عليك وعلى مربيك أن تكونا حريصين على أن تلحق بمعلم عليم • لك عظيم التحيات من اخواتك ومن أولاد ثيونيس ، محفوظين من الحسد ، ومن كل أصدقائنا كل باسمه ، بلغ تحياتى الى مربيك المحترم ، روس • (فى الهامش الأيسر) « •• ان (••) •• (••) هاتور (؟)

ظهر البردية الى ابنها بطليموس • •

هذه عجالة سريعة عن التربية والتعليم فى مصر القديمة كان الهدف منها أن تدل الباحث الى مصادر دراسة هذا الجانب من الحياة فى مصر فى العصر اليونانى الرومانى ، ومع ذلك فقد أودعنا هنا أقصى ما استطاعت أن تصل اليه أيدينا فى هذا الصدد ، وحرصنا على التركيز والايجاز لنترك للباحث فرصة استخلاص ملاحظاته الخاصة عند الرجوع الى المصادر الأصلية ، فلا نقطع عليه هذه الفرصة بايراد آراء خاصة ، ولكى لا يتسرب الملل الى نفس القارىء •

(25) P. Teb. II, No. 383.
(26) P. oxy, 724.
(27) P. oxy, 930.

(٢٨) هو مرب (اعبد عادة) ، يصطحب الطفل الى المدرسة ، ويؤدى له خدماته •



يقدمها : بدر الدين أبو غازي



احتفل متحف الفن الحديث بباريس ببلوغ الفنان كيزفان دونجن تسعين عاما من حياته فنظم معرضا شاملا لأعماله التى تمثل وجها من الحياة فى عصر كان فان‌دونجن شاهده وشاعره الحسى كما وصفه الناقد الكبير ايلى فور .

ولقد عرف كيزفان دونجن رائدا من رواد الفن الحوشى الذى يمثل اول ثورة فنية فى القرن العشرين بعد ثورة التاثرية على القواعد التقليدية فى القرن التاسع عشر .

ولم تكن الحوشية مدرسة ولا تنظيما بذاته ولكنها كانت التقاء موقوتا بين مجموعة من الفنانين المستقلين تاثروا بمناخ عصرهم وبحثوا عن صيغة ملائمة للتعبير عنه ، وكان بحثهم مطلقا طليقا فتباينت أساليب تعبيرهم ولم يجمع بينها الا هيامهم المغرق باللون كعنصر اساسى فى التعبير وخروجهم عن المألوف فى استخدامه فلا التزام بالقيم اللونية والتقليدية ولا بتدرجات النور والظل ولا بالوان الاشياء فى الطبيعة فالوجه قد يكون اخضر أو أزرق والبحر متوهج الحمرة والشفق ضرام من البنفسجية والصفرة والزرقة ، تشبيهات لونية اقرب الى الشعر الحديث فى ولعه بغريب الرؤى واجتماع اوصاف وتشبيهات غير متوقعة .



باريسية ـ فان دونجن

وقد خرج الحوشيون من مراسم بعض الفنانين التقدميين فى ذلك العصر . من مرسم المصور جوستاف مورو ومن أكاديمية كاريير وانضم اليهم بعض الفنانين الاحرار الهائمين على ربى مونمارتر وكان كيزفان دونجن واحدا منهم قدم من مسقط رأسه (روتردام) بهولندا بعد سياحات هائمة على البواخر وعرف حياة التشرد على أرصفة باريس فعمل بائعاً للصحف وعاملا فى سوق الخضار وسكن الباتو لافوار مجاورا لبيكاسو فى أيام شقائه وارتاد ملاهى الليل ومواخير باريس ... ومضى خلف خطى لوتريك وقدم فى بداية حياته أعمالا لفتت اليه أنظار تاجر اللوحات الشهير فولار فاقام له معرضا خاصاً سنة ١٩٠٤ .

وفى سنة ١٩٠٥ زحف الى صالون الخريف مع



رجال الثورة .. نحاس مطروق ـ للمثال كلينسكاس

ماتيس وماركيه وديران وفلامانك واحدثت معروضاتهم هزة عنيفة للرؤية حتى ان جوستاف جيفروى الذى وقف الى جانب حركات التحرر فى الفن تردد فى تأييدهم ووقف موقف التساؤل من هذا « النزق اللونى » الذى صدمه فى أعمالهم .

ولكن هؤلاء الفنانين الذين كانت تجمعهم وشائج فكرة غامضة لم يلبثوا أن لقوا الوضوح والتكريس حين شهد الناقد لويس فوكسيل أعمالهم بين تمثالين من النحت صيغا على الطراز الفلورنسى فاطلق صيحته الشهيرة « دوناتللوبين الضوارى » وبهذا سك للحركة اسمها واصبحت عملة متداولة فى عصرها .

ولم تلبث حركة الضوارى أو الحوشيين ان وجدت امتدادها فى ألمانيا وتمركزت فى درسدن وميونيخ وكان فان دونجن حلقة الصلة بين الحركة فى فرنسا ونظيرتها فى ألمانيا ذلك لانه كان متقدما عن معاصريه كما ان أصله الهولندى ورؤاه الخاصة جعلته اقرب الضوارى الفرنسيين الى الألمان .

وقد استطاع فان دونجن أن ينتقم لسنى شقائه وبؤسه وان يستخدم ذكاءه الى جانب عبقريته الفنية فى ان يتخذ مكانه كمصور لطبقة الأثرياء ولنجوم السينما ولعالم البذخ فى القصور ونوادى القمار وحياة عصر من الجمال والتهور واغتنام متاع الحياة .

وهو يعبر عن عالمه حين يقول :

« اهيم بالبريق .. بالاحجار الكريمة وبالثياب الفاخرة وبالنساء الجميلات اللاتى يوحين بالمتعة الحسية .. ان التصوير يتيح لى امتلاكا كاملا لكل هذا العالم » .

وقد تنافس مشاهير العصر وخاصة سيدات المجتمع على ان يحظوا بشرف التصوير بريشة فان دونجن ، واستطاع هو ان يفرض شروطه وان يغالى فى اثمانه حتى أصبح أسطورة من أساطير العصر ، وعينا نافذة مليئة بالنهم والسخرية فى تعبيرها عن وجه عصر وقسماته .

وقد زار فان دونجن مصر فى العشرينات ليقيم بها شهرا يتعرف خلاله على حضارتها ويستمتع بمناخها ولكن انبهاره بها أطال مقامه لستة أشهر .. وخلال هذه الفترة أقام معرضا لاعماله بمقر جماعة الخيال وكانت ملتقى للفنانين والادباء من المصريين والاجانب ومنخلال تلك الاقامة توثقت صلاته بالمثال مختار الذى أطلعه على أعماق مصر وملامحها الصادقة وكان يصحبه الى الريف والشواطىء الآثار يرسمان معا .. كان مختار يرى فى كل شىء القوام والشكل وكان فن دونجن يرى اللون وفى احدى هذه الجولات فى طريق القناطر لمح مختار فلاحة عائدة من السوق تشق وسط اتربة الطريق مسارها ومعها حملها الثقيل فاوقف فجأة سيارته ودعا الفلاحة الى ركوب السيارة بجوار فان دونجن مصور ارستقراطية العصر الباذخة ... وكانت مفاجأة لفان دونجن ولكنه تقبلها بروح الفهم لمشاعر الفنانين

وروحهم الطليقة .. وكانت هذه الفلاحة وحيا لتمثال مختار « العودة من السوق » .

وترك فن دونجن فى كثير من البيوت المصرية آثارا من أعماله كما ان بعض لوحاته التى صورها بمصر قد بيعت أخيرا فى لندن بأسعار خيالية ...

وما زال فان دونجن وهو فى التسعين من عمره وفيا للعصر الذى كان شاهدا له ومصورا لملامحه .

الفن السوفيتى :

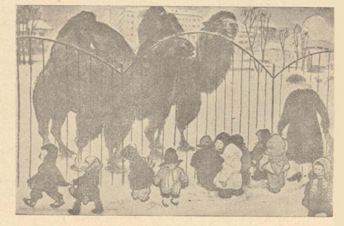
يمثل معرض الفن السوفيتى الذى افتتح بالقاهرة خلال الشهر الماضى مجمـــوعة من النحاتين والمصورين والحفارين الذين تفتح فنهم فى ظل ثورة اكتوبر عـدا النحات اندريف نيـكولايس (١٨٧٣ - ١٩٣٢) الذى ينتمى الى الحقبتين حقبة ما قبل الثورة وما بعدها وان كان العمل الذى عرض له تمثال « لنين بالمنصة » يمثل انتاجه فى ظل الثورة .

والاعمال المختارة تنتمى جميعا الى التشخيصية فهى قد خلت من نزعات التجريد ومن الاتجاهات التحررية التى تسود مدارس الفن فى أوروبا بل ان غالبها يستمد موضوعاته من واقع المجتمع ومن صور العمل فى الحقول والمصانع أومن انعكاسات الأوضاع الســياسية على الفن وان كانت هناك أعمال تتمثل فيها حرية الفنان فى التغنى بطبيعة بلاده او بملاعب الطفولة او بالأجواء الانسانية الأليفة ، وهذه الاعمال هى التى تربط المشاهد بوشائج من وجدان الصدق وهذه تبدو فى بعض اللوحات الزيتية وفى أعمال الحفــر للفنانة كالينتشيفا كـلارا والفنان سيدروكين الفجينى الذى فازت احدى لوحاته بجائزة فى البينــالى وكذلك فى المنحــوتات الخشــبية للفنانة فسكرينسكاى التى يبدو فى تمثالها « فتاة من ريزنو » أفادتها من التقليد الروســية القديمة وكذلك تمثـال سيمرتوف « رقصة » .

النظرة العامة للمعرض تشير الى أن للفن السوفييتى حاضرا لا يمضى فى تطلعه الى أبعد من المدرسة التأثرية الفرنسية ولكنها لا تشير الى ارتباط بأعماق ماضى الفن الروسى الذى أثرى عالم التشكيل بروائعه خلال خمسة قرون متصلة من العصر الوســـيط حتى القرن السابع عشر . حقبة حافلة بروائع الايقونات وباللوحات الجدارية فى الكنائس . وقد تتصل المعروضات الى حد ما بالحركة الحديثة فى روسيا التى تميزت معالمها مع بدايات القرن التاسع عشر وتأكدت فى منتصفه من خلال أعمال ثلاثة من كبار المصورين ميخائيل فروبيل (١٨٥٦ - ١٩١٠) شاعر الرؤية وساحر اللون واسحق ليفيتان (١٨٦١ - ١٩٠٠) أكبر مصورى المنظر الطبيعى وفلاتفان سيروف (١٨٦٥ - ١٩١١) مصور الاشخاص .

غير انها منبتة الصلات بأعمال الطليعيين فى أوائل القرن العشرين حين كانت موســكو أكثر مدن أوروبا ترحيبا بأعمــال المدرسة التأثرية الفرنســية وبأعمال الوحوشيين والتكعيبيين ففى هذه الحقبة جمع استوشكين وايفان موروزوف وديباجيليف رائد نهضة الباليه أكبر مجموعة من آثار الفن الحديث ما زالت متاحف موسكو تزهو بها على متــاحف العـــالم فهى من أغنى المتاحف بأعمال رينوار وسيزان وجوجان وفيها عشرات من لوحات بونار وماتيس وموريس دينيس جمعها موروزوف فضلا عن أكثر من مائة لوحة لبيكاسو تمثـــل بخاصة انتاجه قبل الحرب الاولى .

ومن موسكو انبعثت الثورات التشكيلية الاولى على التشخيص والموضوع معا بظهور المصــور ماليفتش الذى أنكر بقاء الفن فى خدمة الدين أو الدولة وقاد تمرده على



جمال فى آسيا - كلارا كالينيتشيفا



غزو الفضاء - سيف وانلى

مجرد تسجيل التاريخ والعادات والتقاليد بل هو تمرد على الموضوع عامة ليحقق التصوير بقاءه فى حدود ذاته ومن أجل غايته الجمالية البحتة .

كذلك استقبلت موسكو ثورة الشاعر الايطالى مارينيتى ونداءه من أجل فن المستقبل كما تجمعت فيها خيوط الحركة الحديثة التى كان من أقطابها كاندينسكى ومارك شاجال وجابو وارشبينكو ولكن الارض لم تبق طويلا لمكتشفيها فانزوى ماليفتش فى وظيفة مدرس بلينينجراد وحمل كاندينسكى دعوته الى مدرسة الباوهوس فى ألمانيا بينما رحل شاجال الى باريس .

وتحكم اتجاه الواقعية الاشتراكية فى أعمال الفنانين وبخاصة فى عهد ستالين وأصبحت اللوحة وثيقة اجتماعية وسياسية قبل أن تكون عملا فنيا .

ولكن أعمال هذا المعرض القائم بالقاهرة تحمل دلالات تشير الى بوادر خروج الفنان التشكيلى من هذا الاطار للبحث عن قيم الجمال فى الفن .

معرض سيف وانلى :

منذ أكثر من اثنى عشر عاما لم يتحقق للقاهرة مثل هذا العطاء الوفير من أعمال الفنان سيف وانلى مصور المسرح والباليه ... مصور الجو الخارجى بحياته اللونية الزاخرة ومصور الجو النفسى الذى تعبر عنه وجوه الممثلين والعازفين والراقصات .

وقد لقيت هذه الاعمال التقدير حتى كتب الناقد الفنى لمجلة الموند الباريسية .

« لم نكن نتوقع اطلاقا منذ وفاة ديجا أن يقتحم احد ميدان رسم الباليه ... وقد سد سيف وانلى هذا الفراغ باقتناع ... وتشهد أعماله فيما تترجمه من مشاعر وما تعبر عنه من تحليل للحركة وما تستوعبه من النور المسرحى بموهبة قديرة ... »

وبعد هذه الحقبة أتيح لسيف وانلى أن يرحل مع شقيقه الى النوبة ليصور معالمها خلال سنتى ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ بتكليف من الوزير الفنان / دكتور ثروت عكاشة فبدت فى لوحات المرحلة النوبية رؤية استحضرا فيها القرى والمعابد والسكان استحضارا مسرحيا ... كما تجلت مواهب سيف اللونية من خلال طوافه بمواقع النوبة ووقوفه عند بيوتها وتطلعه الى سمائها المتالقة .

ولكن النور خبا من لوحات سيف وانلى بعد وفاة ادهم واكتظت الوانه بقتامة الألم الموجع والاستسلام للقدر وخرج من هذه المحنة الى عالم التجريد فى بحث عن الهندسة الداخلية والموسيقى الكامنة وراء الخطوط والمساحات وفى دراسات فكر متالق شغوف باللون وترانيمه .

ومن أعمال هذه الفترة نشهد فى معرض سيف الاخير لوحات ارتقى فيها قمة تعبيره كلوحته « الكنارى يغنى للقمر » بما حققته من رهافة اللون والتكوين وشاعرية الجو العام للوحة ولوحة فاجنر التى تعد تعبيرا واعيا بالخصائص المميزة لموسيقى الفنان العظيم وكذلك لوحته « غزو الفضاء » .

غير أن سيف وانلى يعود الينا مرة أخرى فنانا تشخيصيا تجمعت لديه خبرات تجربة طويلة طليقة فى لوحته الاخيرة « المتادور » من رؤى رحلته الاخيرة الى اسبانيا ولكم عولج هذا الموضوع فى التصوير ولكن تناول سيف له يتسم بالجدة وبجسارة فى التكوين وابداع فى بلاغة الايجاز اللونى .

وهذه اللوحة تعود بنا الى لغة سيف المميزة وخصائصه التى تفوق بها كفنان تشخيصى ، وتطرح سؤال المفاضلة بين سيف الفنان التشخيصى وسيف المصور التجريدى .

وتبقى بعد هذا عجالات الفنان من رحلة النوبة القديمة فمن خلال خطوطها القوية فى بساطتها ومن لمسات اللون التى بثها فى اقتدار وبراعة تتاكد قيم اخرى لهذا الفنان الكبير ... ابن الاسكندرية الذى يلتقى فى فنه طابعها الحر الطليق واستيعابها السمح للحضارات التى شارفت ضفافها .

مسابقة السد العالى .. والبحث عن حل تشكيلى

كانت هذه المسابقة جديرة بان تتلاقى حولها مواهب المثالين المصريين سواء من حيث أهمية رمزها ودلالته أو من حيث الشكل الفنى الذى تمثله .

على هضبة صخرية من الهضاب المحيطة بموقع السد قريبا من محطة الكهرباء رؤى اقامة لوحة من النحت تمثل جهاد الشعب من أجل اقامة السد العالى وأعلن عن مسابقة مفتوحة بين المثالين ، وعن جوائز مالية ضخمة تتناسب مع أهمية المشروع .

غير أن عدد المشروعات المقدمة لم يتجاوز ثمانية عشر مشروعا شارك فيها بعض المثالين المرموقين أمثال / منصور فرج وجمال السجينى وفتحى محمود وصالح رضا ومحيى طاهر ومحمد لائق وصادق محمد .

والفنان ازاء هذا المشروع يواجه عديدا من المشاكل أولها مشكلة اختيار الرموز المعبرة عن الأحداث وفق مطالب النحت وما يقتضيه من ايجاز وتركيز للغة التشكيل . وايحاء عميق بالمعنى من خلال الشكل المنحوت دون أن يغرق فى السرد أو يهوى الى استخدام الدارج من صور التعبير فلكل فن لغته ومقتضياته وما يصلح للغة الكلمة لا يصلح للغة الشكل وحتى فى اطار التشكيل



السد العالى للمثال صادق محمد

فان مطلب النحت يختلف عن مطلب التصوير ومطالب الفنون الأخرى .

والمشكلة الثانية هى مشكلة ضخامة المساحة واختيار اكثر الأشكال ملاءمة لها وهى مساحة لم يسبق للنحت المعاصر فى مصر مواجهتها اذ يبلغ مسطح اللوحة ٦٠ مترا طولا ، ٢٧ مترا ارتفاعاً .

أما المشكلة الثالثة فهى مشكلة موقع المكان وأبعاد الرؤية فيه اذ أن اللوحة بطبيعة موقعها تتطلب المرأى البعيد، فضلا عن أن مساقط النور الساطع على المكان تقتضى معالجة خاصة للأشكال والا تلاشت خطوطها واحجامها تحت وطأة شمس أسوان .

وثمة ملاحظة عامة نبديها بعد ايضاح وجوه المشكلة هى أن النحت فى مصر المعاصرة يعانى أزمة ابداع ، فبعض نحاتينا الذين قدموا فى مطلع طريقهم عطاء مبشرا قد فقدوا شيئا من ايقاعهم الخاص وسدت على أساليبهم المميزة أسباب النماء تحت ضغط ظروف من الحياة ، وبعضهم قد استهلك رموزه التى عرف بها أو جنح الى تعبير مباشر أفقد النحت رمزه وسحره ونثر ما فى الشكل المنحوت من طاقة الشعر .

وبمراعاة ما قدمه الفنانون من حلول تشكيلية للموضوع وقع اختيار لجنة التحكيم على المشروع المقدم من المثال صادق محمد فنال الجائزة الأولى وقدرها ١٥٠٠ ج وأحرز المثال منصور فرج الجائزة الثانية بينما نال مشروع محيى طاهر ومحمد لائق الجائزة الرابعة ، ومشروع المثال فتحى محمود الجائزة الخامسة ، وقد تميز بعناية فى التنفيذ انتقص منها عدم مراعاة مقتضى المكان فى الاجسام الطائرة التى وضعها فى مقدمة مشروعه وكذلك فى الفراغ المائل فى سطح اللوحة رغم قدرته فيما شكله عليها من نحت غائر ونحت بارز ... وبين الحائزين على جوائز تشجيعية يتميز مشروع المثال صالح رضا بسمات نحتيه اكيدة .

ويتميز المشروع الأول بتوفيقه فى حلول مشكلة السطح الهضبى وفى التكوين العام للتصميم والمواءمة بين مطالب النحت ومقتضيات العمارة مع ادخاله مساقط النور على المكان فى حسبانه .

وليست هذه هى المرة الأولى التى يفوز فيها المثال صادق محمد فى مسابقة عامة فقد كان له من قبل سبق الحصول على جائزة مختارة للنحت كما أن المنحوتات البارزة التى زين بها احدى واجهات مجمع المحاكم بشارع الجلاء تعد من المشروعات الموفقة التى روعى فيها مقتضى المكان واختيار الشكل المناسب له ..

وقد قدم المثال صادق محمد مشروعه فى نموذج مصغر يبرز التصميم العام وفكرة التكوين ومؤدى مااختاره من رموز ولكن مفردات نحته وقد صيغت بأسلوب العجالات ما زالت تتطلب أناة فى الأداء ومعاناة فى معالجة الشكل وتقنينا فى الصياغة يضفى عليها الثبات والصمود حتى تخرج الى ضخامة العمل الكبير وما يتسم به من مشخصات .

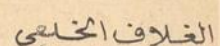
وذلك كله فى مكنة المثال صادق محمد فان له من اخلاصه الدائب على العمل دون ضجيج وادراكه لابعاد المشكلة النحتية التى يواجهها ما يكفل لعمله أن يستوعب فى التنفيذ مطالب النحت الكبير .



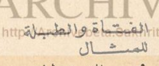
العودة من السوق
للفنان
سيد عبد الرسول

فنان جمع طاقة من الامكانيات والقدرات فى التصوير والخزف والحفر .. أهم مايستوقف النظر فى أعماله حاسة اللون المتيقظة ومذاق شرقى يلمح فى الوانه وادراك للبيئة عن طريق اللون قبل الشكل ، واقتراب من النظرة الشرقية للتكوين فى تجمعاته ومشاهده الريفية وفى طريقة تصويره للبيوت والمساجد .. وهى نظرة تجمع فى أطرافها مزاجا من نهج المصور المصرى القديم .. ورسوم الفنان الشعبى على الجدران الى جانب تأثيرات وافدة فى أسلوب معالجته للملامح والوجوه .

ولوحة الغلاف تتجلى فيها قدرة الفنان اللونية كما انها تستدعى الينا على البعد المواكب المصرية القديمة على اللوحات الجدارية فى تكوينها الهندسى .. وهى من أعمال الفنان المميزة التى عرف بها بين جيله من الفنانين المعاصرين .



الغلاف الخلفى



الفتاة والطبلة
للمثال
محيى الدين طاهر

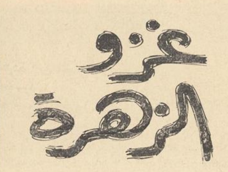


المثال محى الدين طاهر من شباب الجيل الفنى الذى استطاع بمثابرته وجهده الخاص أن ينمى مواهبه التشكيلية ويضيف الى النحت المعاصر تماثيل فيها رقة الحركة والف الموضوع المستمد من صور الحياة اليومية وبخاصة فى أحياء القاهرة الشعبية .

وقد أتاح نظام التفرغ للمثال محى الدين طاهر مجالا لمتابعة ابداعه الفنى دون ضغط من قيود وبهذا قدم فى المرحلة الاولى من تفرغه أعمالا محورها الاساسى الطفولة واللعب .. قبل أن يتجه الى معالجة موضوع الحرف والصناعات أو يتصدى للرموز القومية .

وفى مجموعة هذه الاعمال التى ينتمى اليها تمثال الغلاف نلمح رقة محببة واحساسا بالانس والمسرة .. وهى جميعا فى رشاقتها وانطلاقها تقدم مثلا من امكانيات ربط جمهور الناس بعمل فنى يجمع الموضوع والبساطة ويستطيع أن يلقى مكان الترحيب فى البيوت المصرية .

بدر الدين أبو غازى





د. سيد رمضان هدارة

شاء العلماء السوفييت أن يستقبلوا العيد الذهبي لثورتهم بسبق جديد، فى حلبة سباق الفضاء ، اذ تمكنوا من انزال أول معمل علمي على سطح كوكب الزهرة بعد رحلة دامت مائة وثمانية وعشرين يوما منذ اطلاقه من الأرض ولقد كان لهذا الحدث التاريخى العظيم دوى هائل فى جميع بقاع العالم ، اذ أنه فتح آفاقا جديدة فى التحدى العظيم الذى بدأه علماء القرن العشرين لاستكشاف الفضاء ، وفض أسراره ، بل واستعمار ما يمكن استعماره .

وتقع أهمية غزو الزهرة فى أنها ، فيما يعتقد العلماء ، توأم لكوكبنا الأرض ، ففى تصورهم أن كوكبى الارض والزهرة تكونا من سحابتين متساويتين فى الكتلة تقريبا ، ومتماثلتين فى التركيب ، وكان لكل منهما ، كما كانت الحال لباقى الكواكب ، جو يحتوى الايدروجين والايدروكربونات والنشادر والماء. ولكن الزهرة غلفت نفسها بغلاف سميك حجب عنا رؤيتها ، واثار الفضول فينا ، فظل الفلكيون يدرسونها قرونا عديدة ، ولكن كان كل ما توصلوا اليه مجرد استنتاجات تعوزها المشاهدة المحسوسة والأدلة القاطعة . وذلك هو حال الانسان فى جميع أموره فهو قادر على التصور والاستنتاج ولكن لا يرتاح له بال الا اذا تأكد استنتاجه بالدليل المادى الناصع الذى لا يتسرب اليه شك .

من هنا جاءت أهمية الوصول الى كوكب الزهرة ، فلقد استعصى على العلماء طيلة القرون الماضية معرفة ما يقع وراء غلافها السحابى الكثيف ، عن طريق جاسوسهم التقليدى الذى أتاهم بالوفير من المعلومات عن أغوار الفضاء ، وكشف عن الكثير من أسراره وغوامضه فقد كان الضوء ، ولا يزال ، جاسوسا كفءا يحمل بين طياته العديد من البيانات والمعلومات عن مكونات الفضاء . ولكن الزهرة أحاطت نفسها بكل التحصينات التى أعجزت الضوء وحالت بينه وبين النم عنها . ومن ثم كان ضروريا ارسال رسول من الارض ليأتينا بما يرضى فضولنا ويؤكد حدسنا .

كانت المحاولة الاولى لتحدى تحصينات الزهرة ، هى ارسال شعاع رادارى اليها فى يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٥٨ ، فعاد ذلك الشعاع فى أقل من خمس دقائق ينبىء بأن أقرب مسافة يمكن أن تقترب بها منا هى ٤٤٫٠٤٨٫٠٠٠ كيلومتر ، وأن الغلاف السحابى يخفى تحته أرضا صلدة . وتبعت ذلك محاولات ارسال مجسات فضاء على متن صواريخ توجت بالمعمل العلمى الذى هبط على سطحها أخيرا .

وقبل أن نصف الرحلة من الأرض الى الزهرة يجدر بنا أن نستعرض الصورة التى

كونها العلماء لهذا الكوكب من البيانات الشحيحة التى أمكنهم الحصول عليها ٠

يبلغ حجم هذا الكوكب حجم أرضنا ٠ لكنه أقرب منا الى الشمس بحوالى ثلث المسافة ، ومن ثم فانه يتلقى ضوءا فوق بنفسجي وحرارة أكثر مما تتلقاه الارض ٠ والضوء فوق البنفسجي هام للغاية فى كثير من التفاعلات الكيميائية الضوئية ، فهو يفتت المركبات البسيطة ، ويؤدى الى تكوين مركبات جديدة ٠ ومن المعقول ان نفترض أن ثانى أكسيد الكربون تكون على كل من كوكبى الأرض والزهرة نتيجة للتفاعلات الكيميائية الضوئية بين الأيدروكربونات والماء ، الا أن جو الزهرة يحتوى الآن على ثانى أكسيد الكربون بكمية تفوق ما يحتويه جو الأرض بعدة مئات من الأضعاف ، كما أنه يفتقر الى الأكسيجين الطليق ، وربما كان مرجع ذلك الى عدم وجود حياة نباتية على سطح الزهرة اذ أن النبات يمتص ثانى أكسيد الكربون وينتج الأكسيجين فى عملية التمثيل الضوئى ٠

وتشير القياسات اللاسلكية الى أن درجة الحرارة السطحية تبلغ نحو ٣١٥ ْ مئوية فمن المحتمل اذن أن يكون سطح هذا الكوكب مغطى بالمستنقعات الراكدة التى يتصاعد منها البخار ٠ وهذا هو السبب المحتمل للغطاء السحابى الدائم الذى يحول دون رؤيتنا لسطح الزهرة على الدوام ٠ وربما يكون هذا الكوكب محاطا بحزام اشعاعى شبيه بما يحيط بأرضنا ، بل من الجائز جدا أن يكون حزامه أشد من حزامنا ، اذ أنه أقرب منا الى الانفجارات الشمسية التى تولد تلك الأحزمة وهذا يتوقف على وجود مجال مغنطيسى يحيط بالكوكب كما سنفصل فيما بعد ٠

رحلة الشهور الأربعة :

ليس ثمة شك فى أن انزال مركبة فضاء على سطح الزهرة ، دليل قاطع على أن العلم والتكنولوجيا ، بلغا فى عصرنا الحاضر مبلغا ما كان يتصوره عقل بشر من الأقدمين أو المحدثين ٠ فحساب خط السير ومراعاة ظروف الرحلة ، والقوى المختلفة التى تؤثر على الصاروخ طوال مسيره ، وتصميم الآلات الحاسبة والأجهزة الموجهة والعقول اللابشرية التى تتلقى البيانات وتصدر التعليمات الصحيحة فى اللحظات الصحيحة ، كلها أمور تدل على أن الانسان كان على حق عندما تصدى لتحدى الطبيعة ، وانه لمدرك غايته فى التعرف على ما شاء الله له أن يتعرف عليه من أسرارها ٠

وسوف لا نتناول فى مقالنا هذا ، تفاصيل آلية الصاروخ الناقل لمركبة الفضاء ، أو تفاصيل أجهزة التحكم المزود بها ، فتلك أمور تناولها كثيرون من العلماء فى مقالات وكتب مبسطة عديدة ٠ ولكن الامور التى نود ابرازها فى هذا المقام هى :

١ ــ المسار التى تتبعه مركبة الفضاء فى رحلتها من الارض الى الزهرة أو الى أى كوكب آخر ٠

٢ ــ البيانات والمعلومات التى يطلب من المركبة ومعمل الفضاء البحث عنها والافضاء بها ٠ ومن هذه المعلومات ما هو خاص بالفضاء الذى تسبح فيه الكواكب ، مثل قياس المجالات المغنطيسية فى فضاء ما بين الكواكب، وقياس كثافة الاشعة الكونية وطاقتها والكشف عن أحزمة اشعاعية تحيط بالكوكب المقصود ، وهو الزهرة ، والكشف عن الغبار الكونى ، وغير ذلك من الظواهر الطبيعية التى يحتمل حدوثها فى الفضاء ٠ ومن المعلومات ما هو خاص بكوكب الزهرة نفسها مثل الكشف عن طبيعة جوها ، وأرضها ، والبحث عن أى أثر للحياة عليها ٠

واننا لا نستطيع مما حصلنا عليه من معلومات عن الرحلة السوفييتية أن نعرف طبيعة المهمة التى أنيط بها معملهم الكونى ، ولكن هذا لا يمنع من تخمين طبيعة تلك المهمة واستعراض بعض النقاط استعراضا يلقى بعض الضوء عن الهدف الذى يرمى اليه علماء هذا الجيل من غزو الكواكب الواحد تلو الآخر ٠

خط السير :

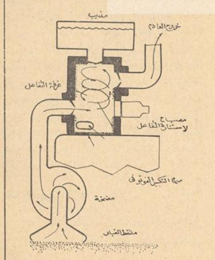
تمر مركبة الفضاء المنطلقة من الأرض صوب الزهرة ، بثلاثة مجالات ، تؤثر فى خط سيرها ، فتقع تحت تأثير مجال الجاذبية الأرضية حتى مسافة ١ر٦٠٠ر٠٠٠ كيلومتر من الأرض فى الفضاء ثم تدخل مجال الشمس ، وأخيرا تجد نفسها أسيرة مجال كوكبها المقصود ـ وأول الشروط الواجب توفرها لبلوغ المركبة مقصدها النهائى هو الافلات من مجال الأرض ، وهذا يعنى أن تصل سرعتها الى ٤٠ر٠٠٠ كيلومتر فى الساعة على الأقل فاذا تم لها ذلك سارت فى مسار قطع زائد حتى تصل الى المنطقة التى يسود فيها مجال الشمس وحينئذ يصبح خط السير قطعا ناقصا يتحدد شكله باتجاه المركبة وسرعتها لحظة الافلات من الأرض . فالأرض ذاتها تتحرك بسرعة ١٠٥ر٦٠٠ كيلومتر فى الساعة تقريبا حول الشمس ، وتكتسب المركبة هذه السرعة ذاتها عند تركها الأرض، فاذا كانت سرعتها عند الافلات خلفية أى نطرح من سرعة الأرض ، فانها تسقط نحو الشمس فى مسار قطع ناقص يجعلها تقطع مدار الزهرة فى طريقها الى الشمس .

والطريقة الاقتصادية للقيام بهذه الرحلة هو اتباع مسار يعرف بمسار النهاية الصغرى للطاقة وهو أفضل توفيق بين الزيادة فى السرعة واتجاه السير وزمن الطيران بحيث تكون كمية الوقود المستخدمة أقل ما يمكن ـ ومسار النهاية الصغرى للطاقة ، هو فى الواقع أطول مسار للوصول الى الهدف ،ويتم الاتصال بين الكوكب والمركبة عندما يكونان فى الجانب الآخر من الشمس ـ أما اذا أريد اختصار زمن الرحلة ، فيتحتم أن تزود المركبة بزيادة هائلة فى الدفع . وهذا ما لم تبلغه تكنولوجية الفضاء فى الوقت الحاضر.

وعلى ذلك فلقد اتبعت مركبة الزهرة خط سير اقتصادى يكون مفتوحا بضعة أيام فقط كل ثمانية عشر شهرا (شكل ١) .

طبيعة الطريق واخطاره :

لا ندرى ، كما سبق أن ذكرنا ، الهدف الأساسى من الرحلة السوفيتية للزهرة ، ولكن ليس ثمة شك فى أنها رحلة استكشافية للتعرف على طبيعة الطريق الذى سوف يسلكه بنو البشر من سكان الأرض ، عندما يعقدون



(شكل ٢)

احدى وحدات التفاعل فى معمل الفضاء للكشف عن الحياة ، وتختص هذه الوحدة بالكشف عن انزيل الفوسفاتاز الذى تقوم عليه عمليات الايض ونقل الطاقة فى جميع العمليات الحيوية التى تجرى فى الكائنات ذات القاعدة الكربونية المائية . ويرتكز الكشف عن تفاعل ذلك الانزيم على انبعاث ضوء فلوريسى يتحول فى صمام التكبير الفوتوتى الى نبضة كهربائية يمكن ارسالها لاسلكيا الى الارض .

العزم على زيارة ذلك الكوكب أو استعماره • ومن ثم فمن المرجح أن تكون مركبة الفضاء التى حملت المعمل العلمى الى محطته النهائية قد زودت بالاضافة الى ذلك بأجهزة ومعدات تتحسس معالم الطريق وتتعرف على أخطاره، حتى يمكن توقى هذه الأخطار عندما تصمم مركبات الفضاء البشرية التى سوف تسير على خط « الأرض ــ الزهرة » • ومن أهم البيانات التى يجب معرفتها شدة الاشعاعات الذرية كالأشعة الكونية ، والأحزمة الاشعاعية الشبية بحزام « فان آلن » المحيط بالارض، وهو عبارة عن حلقة من الاشعاع تحيط بالارض وتبعد عنها بمقدار ١٫٦٠٠ كيلومتر ويبلغ سمكها نحو ٣٫٠٠٠ كيلومتر وتحتوى على ألكترونات اندفعت من الانفجارات الشمسية وحبست فى المجال المغنطيسى للأرض • ومعرفة شدة تلك الاشعاعات وطبيعتها أمر ضرورى لتأمين سلامة زائرى الزهرة ومستعمريها •

وتقع فى المكان نفسه من الأهمية دراسة الغبار الكونى ، فمن المعروف جيدا أن الفضاء ليس فراغا تاما واقعا فى برودة درجة الصفر المطلق • ولدينا الآن الأدلة القاطعة على وجود صفوف من الموجات والجسيمات التى تشكل الموت الكامن للمسافرين من البشر • والمعتقد أنه الى جانب الاشعة السينية والأشعة فوق البنفسجية توجد ذرات ايدروجينية متأينة موزعة توزيعا منتظما الى حد كبير ، كما توجد أيضا جسيمات أخرى متعددة أقل تنظيما فى التوزيع كالالكترونات وأحيانا ذرات متأينة لعناصر أثقل من الكربون والحديد وتصبح كلها مجتمعة قذائف يكمن فيها الموت ، لذا وجبت دراسة تلك الظواهر من حيث الشدة والتغيرات لامكان توفير الدروع الواقية منها ، هذا الى جانب زيادة المعرفة بالكون الذى نعيش فيه •

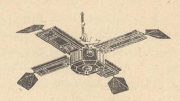
وماذا عن الكوكب نفسه ؟ :

لم تنشر بعد تقارير علمية مفصلة عن نتائج المشاهدات التى أرسل بها المعمل العلمى السوفييتى من سطح الزهرة • ولكن تدل التقارير الأولية التى تناقلتها الصحف السيارة على ان جو هذا الكوكب أكثف ١٥ مرة من جو الأرض وأنه يتشكل أساسا من غاز ثانى أكسيد الكربون ولا تبلغ نسبة الأيدروجين والأبخرة الا نحو ١٫٥ فى المائة ولا يوجد فيه أثر للنتروجين على الاطلاق •

كما بينت تلك التقارير أيضا أن كوكب الزهرة معدوم المجال المغنطيسى ولا يطوقه حزام اشعاعى شبيه بحزام « فان آلن » الذى يطوق الارض • واذا تفحصنا تلك التقارير نجد أنها تؤكد ما استنتجه العلماء من مشاهداتهم الشحيحة ، كما أنها تؤكد أيضا نتائج رحلة مرصد الفضاء الأمريكى « مارنير الثانى » الذى أطلق من قاعدة كيب كندى (كيب كانيفرال) فى السابع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٦٢ ، ليمر بكوكب الزهرة على بعد ٣٣٫٤٤٠ كيلومترا منها ، فوصل نقطة اللقاء فى الرابع عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٦٢ • ولكن تفيد الأنباء التى أعلنتها الصحف السيارة حديثا ، أن بعض تلك النتائج يتعارض مع التقارير الأولى لنتائج لقاء المرصد الامريكى « مارنير الخامس » مع الزهرة على بعد ٤٫٠٠٠ كيلومتر منها فى العشرين من شهر اكتوبر ١٩٦٧ •

فلقد أدى تحليل البيانات التى أرسلها «مارنير الثانى» أثناء لقائه مع الزهرة أوفينوس (اله الحب) الى استنتاج عدم وجود مجال مغنطيسى مماثل للمجال الذى يحيط بأرضنا ، اذ لم يعط المغنطومتر الذى كان على متنة أية قراءة تدل على وجود هذا المجال • وهذا يتفق مع ماتناقلته الصحف عن نتائج المرصد السوفيتى الأخير ، ولكنه يتعارض مع ما جاءت به أنباء « مارنير الخامس » •

ومهما يكن الأمر فان نظرية أصل المغنطيسية الأرضية ترجع عدم وجود مجال مغنطيسى حول الزهرة • اذ تعزو تلك النظرية المجال المغنطيسى الأرضى الى وجود تيارات حمل فى قلب الأرض الحديدى ناتجة عن دوران الأرض السريع حول محورها والمعتقد ، كما أنبأت به القياسات الردارية الحديثة أن كوكب الزهرة يدور حول محوره بمعدل بطىء جدا ، حيث يتم دورته فى ٢٢٥ يوما من الايام الأرضية • وعلى ذلك ينعدم



شكل ١
صورة لمجموعات المجسات التى حملها مارينر الثانى الامريكى وتحتوى مغنيطومتر وجهاز للكشف عن الغبار الكونى ، وتلسكوب للاشعة الكونية ، وغرفة تاين وجهاز للكشف عن الاحزمة الاشعاعية ·

أو يكاد ينعدم ، المجال المغنطيسى · أما اذا كان ما نقلته الصحف عن نتائج «مارينر الخامس» بتأليد وجود المجال المغنطيسى ، صحيحا ، فيحتمل ان يكون مرجعه الى التاثيرات الشمسية ومع كل فمن الممكن ترجيح كفة اى من النبأين بالبحث عن وجود حزام اشعاعى شبيه بحزام « فان آلن » فان تأكد وجود مثل هذا الحزام حول الزهرة ، رجحت كفة وجود مجال مغنطيسى يحيط بها · وان نفى وجوده دل ذلك على انعدام المجال المغنطيسى ، اذ أن هذا المجال هو الذى يأسر الجسيمات المشحونة ويجعلها حبيسة فى ذلك الحزام ·

ومن البيانات الغريبة التى نسبت الى مرصد الزهرة السوفييتى نفى وجود النتروجين فى جو هذا الكوكب · فالمعتقد – كما ذكرنا من قبل – أن تركيب الزهرة مماثل لتركيب الارض ويحتوى الاثنان على النشادر ، وحيث أن النتروجين يتصاعد بالحرارة ، فلقد كان أحرى أن يعم وجوده فى جو الزهرة ، نظرا لارتفاع درجة حرارتها ·

انها بحق أنباء متضاربة ، تثير الحيرة ، ولكنها أمر طبيعى عند رجال العلم بل انهم سعيدون جدا بها · ففيها برهان أكيد على اقترابهم من هدفهم الذى طالما صبوا الى تحقيقه · ولقد تعود رجال العلم أن يعيشوا تلك اللحظات القلقة كلما اجتازوا حدا جديدا من حدود المعرفة · وهم يعلمون تمام العلم أنهم بالصبر والمثابرة والمناقشة الحرة لجميع الاحتمالات ، المرجع منها والمستبعد ، سوف يصلون الى الحقيقة · انه لطريق طويل شاق ، ولكنه يؤدى بهم الى بغيتهم فى جميع الأحوال · فما علينا الآن الا أن ننتظر ما سوف تسفر عنه التحليلات الدقيقة للنتائج الحالية والمستقبلة ·

بنو آدم يبحثون عن انباء عمومتهم على الزهرة:

كان وجود الحياة من قديم الزمان مثار جدل بين رجال الفكر من الفلاسفة والعلماء فأنكر بعضهم وجودها فى مكان آخر غير الارض واعتبروها ميزة اختص الله الارض بها · وارتأى فريق آخر انه ليس هناك من سبب فى عدم وجودها على اجرام كثيرة من الاجرام الكونية التى لا يحصيها عد · وظلت المسألة مسألة تأملات فكريه واستنتاجات من شواهد غير مباشرة حتى لاحت للانسان بارقة أمل فى الفكاك من سجنه الأرضى وجوب أرجاء الفضاء لزيارة جيرانه من الكواكب والأقمار · ووجد أن عليه قبل القيام بتلك الزيارات أن يستعلم عن مضيفيه وهل سيجد منهم ترحيبا أم أنهم سوف يلقونه بالصد والعداء ·

وتحقيقا لما تمليه علينا تقاليد الشهامة وحسن الجوار ، بدأنا بالقمر والزهرة ، فالقمر تابع أرضنا ، والزهرة توأمها ، وأقرب جيرانها · وكان أن أرسل العلماء معاملهم اللابشرية الى كل من القمر والزهرة يجسون نبض سكانها ان كان يعمرها سكان ·

ولكن قبل أن نتقدم فى مناقشة احتمال وجود حياة على الزهرة وهى موضوع دراستنا علينا أن نتوقف قليلا عند كلمة الحياة ذاتها · فنحن لا نعرف فى الواقع ما هية الحياة أو الصور الممكنة لها غير تلك الصور الموجودة على الأرض · ومهما يبلغ بنا الخيال والتصور فلن يصل بنا الى صور للحياة بعيدة كلية عما خبرناه وعرفناه ، وعلى ذلك فليس فى مقدورنا أن نبحث عن شىء نجهله ، وعلينا أن نقنع بالبحث عن حياة مماثلة للحياة الأرضية ان لم تكن مطابقة لها · فعلينا اذن أن نبحث عن

كائنات قادرة على تحويل الغـــذاء (الابيض) والنشا والنشوء ، وهذه الكائنات طبقا لما نعرفه عن الارضية منها مركبـــات كيميائية معقدة ، مكونة أساسا من أربعة عنـــاصر هي الأيدروجـــين والاكســـيجين والنتروجـــين والكربون • فأينما وجدت هذه العناصر وجد احتمال وجود الحيا •

وتتحد هذه العناصر في الكائن الحي لتكون مجموعتين من الجزيئـات : الاحماض النووية والأحماض الامينية المكونه للبروتينات ، فاذا وجدت تلك المجموعتان في مكان ازداد احتمال وجود حياة شبيهة بالحيـاة الارضـية فيه • وهذا بالفعل هو الأساس الذى بنى عليـــه العلماء أسـلوبهم في البحث عن الحيـــاة • فتحتوى معامل الفضـــاء المصـممة لاستقصاء الحقائق في هذا الميدان ، وسائل لجمع العينات من جو الكوكب وسطحه عن طريق سحب بعض من غازات الجو ، وبعض تربة السطح ، وتجرى على تلك العينات اختبارات فيزيقية وكيميائية ، وبطريقة أتوماتية للكشف عن جزيئات أحماض أمينية ، وترسل النتائج لاسـلكيا الى القاعدة الأرضية • فان تأكد وجود هذين النوعين من الجزيئات رجحت كفة الرأى المنـادى بوجود الحياة ولو في أدنأ صورة لها • وانا لفى لهفة لتلقى ما سوف تسفر عنه استقصاءات معمل الزهرة السوفييتي في هذا الشأن •

ولكن هل تسمح ظروف الزهرة باعالة الحياة وازدهارها ؟ ان المنطق والاستدلال يشجعاننا على الاجابه على هذا السؤال بالايجاب ، والا لما حملنا أنفسنا مشقة البحث وعناء التفكير • فالشروط الواجب توافرها لازدهار الحيـــاة بصورة مماثلة للصور التي نألفها على الأرض هي وجود العناصر الأربعة السابق ذكرها ، ثم اعتدال درجات الحرارة ، بحيث لا تزيد على درجة الغليـــان ولا تقل كثيرا عن درجة تجمده وعدم وجود غازات سامة كالميثان الذى تتشبع به أجواء الكواكب الخـــارجية الثقيلة كالمشترى وزحل وأورانوس ونبتون •

ان جو الزهرة شبيه بجونا ، وتوجد دلالات أكيدة على توفر الماء عليهـا بكميات مناسبة ، وعلى الرغم من ارتفاع درجة الحرارة هناك ، فليس ثمة سبب يجعلنا نتوقع أن تكون درجة الحرارة والرطوبة أسوأ منهمـــا في المنـــاطق الاستوائية الأرضية الحارة الرطبة ، وعلى ذلك فمن المحتمل أن نجد حياة على سطح الكوكب •

ولكن هناك من الاسباب ما يقلل من هذا الاحتمال ، بل ربما يجعله قاصرا على احتمال وجود الحياة في صورتها الدنيئة • فنحن نعلم أن الفصائل المعقدة للحياة بدأت نشوءها على الأرض بعد وجود الحيـــاة النباتية عليهـــا • والوظيفة الرئيسية للنباتات هى تحليل ثانى أكسـيد الكربـون الموجـود في الهواء حيث تسـتهلك الكربون في عملية نموهـا وتحرر الأكسـيجين • والأكســيجين الطليق من أهم مقومات الحياة الأرضية الراقية • ولكن تشير المعلومات التي لدينا الى عدم وجود أكسيجين طليق في جو الزهرة ومن ثم فلا وجود للحياة النباتية هناك ، وبدون مزروعات تكاد الحياة الحيوانية تكون معدومة •

وهكذا يضعف احتمال وجود الحيـاة على الزهرة بصورها الراقية كما نعرفها على الأرض ولكن ذلك لا يسـتبعد احتمال وجود أنواع أخرى من الحياة تستطيع البقاء بدون أكسيجين طليق ، وبدون ضوء الشمس وأشـعتها فوق البنفسـجية التي هى في الواقـع الأصل في وجود الحياة على الأرض ، التي حرمت منهـا الزهرة نتيجة للحجاب الكثيف من السـحب التي تغلفها •

ولكن اذا ثبت حقيقة أن ظروف الزهـرة مواتية لنشوء الحياة وأن الحياة النباتية أخفقت لسـبب أو لآخر في النشؤ ، أفلا يسـتطيع الانسان ، وقد قدر الله له أن يصل اليها ، أن يبدأ من جديد ببذر الحب واستزراع تربتها ومعاونة الحياة على معاودة نشـوئها على ذلك الكوكب الشقيق ؟

أن صـمود الانســـان لتحديات الطبيعة واصراره على قهرها يجعلاننا نتردد في الاجابة على هذا التساؤل باستبعاد الاحتمال •



اسيللو هو الرجل اليونانى الذى كان يعمل نادلا باحدى حانات الاسكندرية وكرس حياته للبحث عنقبر الاسكندر الاكبر ومات دون أن يجده .

قال الصوت التاريخى الصدىء النغمات ..
منطلقا من خلف البحر الأبيض فى جوف الليل
– استيللو ..
استيللو يا ابن الحانات
بددت الجهد..ومالك.. فى حفر الأرض الصلبة
عمن تبحث ؟
قال ابن أثينا المغترب الخطوات
– ابحث عن قبر الاسكندر
قال الصوت الأجوف
– ماذا يجديك البحث ..
هل تطمع فى أن تحتل مكانا فى كتبى الصفراء.
هل تطمع فيما أسماه الناس : المجد ؟
قال الرجل المجهد :
– لا
قال الصوت الملتف الأصداء
– هل تطمع فى كسب مادى
قال الرجل العادى
– لا
قال الصوت الرطب :
– هل ترغب فى ملء فراغ
قال الرجل المتعب :
– لا

قال الصوت المخرون
– هل ترغب فى أن تفعل شيئا ما لمجرد أنك ترغب
هل لوثت بروح العصر الحاضر
هل تعبث ؟
قال الرجل المحزون :
– لا
قال الصوت المتثائب
– أستيللو ..
فيم البحث اذن ؟
قال الرجل الغائب :
– لا أعرف ..
لكن هنالك شيئا ما يدفعنى للبحث ..
شيئا كالحلم ..
شيئا أستشعره فى عمق الأعماق ..
شيئا عابر .. كالذكرى ..
كلقاء ..
كفراق ..
شيئا لا أعرفه ..
لكن .. قد يعرفه هذا البحر ..

* * *

أستيللو مات .. ولم يجد القبر ..

بهيج اسماعيل



الفكر العربى ومكانه فى التاريخ

ديلاسى أوليرى

عرض ونقد
مصطفى لبيب عبدالغنى

دين طال به الأمد وعز علينا الوفاء به ، وحقيقة افتقدت من معالمها الكثير بين افتئات الطامعين وغفلة الجهلاء ، ونهضة فكرية ناخذ اليوم بنواصيها فى يقظة ظافرة ـ أسباب اجتمعت لتوجب علينا أن نراجع بوعى كل محاولة تتصدى لتقويم الفكر العربى ومكانه فى التاريخ على اختلاف مقاصد ذلك التقويم وأبعاده .

وما هو بالهوى الجامح أو الاعجاب الذى يبلغ حد الشطط وشواهد التقدير للتراث حاضرة . فالبحث والتمحيص كفيلان باظهار ما هو نافع وجليل فيه ، وما قد أصبح معبرا عن حقيقة منتهية تجاوزها العصر . وانا لواجدون فى نهاية الأمر ـ برغم صيحات الانكار والتشكيك أو دواعى الغفلة والقصور ـ مع حسن الظن وتلمس المعاذير ـ دروسا باقية ومضيئة هى جزء من زادنا فى مسيرتنا الراهنة ، وعدة فى نضالنا القوى لتثبيت الكيان الفكرى ودعمه ، ذلك أن مانراه واضحا حينما نلقى نظرة الى الوراء يجب أن يكون واضحا حينما تمتد نظرتنا الى الامام فيهدى خطانا الى المستقبل .

وفيما يختص بترجمة ماكتبه كبار الباحثين الأجانب ـ وهو خلاصة التاليف الحديث فى ميدان الاسلاميات سواء فى الشرق أو الغرب ! ـ فاوجب ما تكون عليه الترجمة الى جانب النقل الأمين للمادة العلمية ـ أن تحوى تفنيدا لمايرد بها من آراء ومحاولة جادة لاظهار مقاصد المؤلف المستورة ، وبخاصة ما اتصل منها بصميم العقيدة أو نوازع الأخلاق ، فضلا عن النظرة الشاملة الى التراث الفكرى فى مجموعه .

و « الفكر العربى ومكانه فى فى التاريخ » كتاب للمستشرقى الانجليزى « ديلاسى أوليرى » ـ يؤرخ للفكر العربى فى مجموعه وهو مثال حى لوجهة من النظر الى تراثنا ظاهرها الالتزام الموضوعى بسرد وقائع التاريخ وظواهر الفكر المتصارعة ، على نحو يدعو الى الاعجاب ، وان كانت تحمل فى طياتها الشىء الكثير من نيات المؤلف الخفية والموجهة ضد التراث العربى .

وفى عرضنا النقدى هنا ـ نحاول أن نثبت مافى الكتاب من أفكار أساسية تضمنتها فصوله العشر معقبين على ذلك ـ فى النهاية ـ ببعض الملاحظات على ترجمته العربية التى أنجزها الدكتور « تمام حسان » وراجعها الدكتور « محمد مصطفى حلمى » .

يعرض المؤلف ـ فى مقدمة الكتاب ـ للثقافة الاسلامية باعتبارها جزءاً من المادة الهيلنستيةالرومانية أساسا وان أعظم اثر لها انما يظهر فى عرضها المادة القديمة فى شكل جديد ، فى حين يزعم أن الثقافة الأوربية الحديثة مشتقة كلها من الثقافة الرومانية التى هى ثمار لنتائج عدة أقواها الحياة العقلية الهيلينية .

ومقصد المؤلف ـ منذ البداية ـ هو تتبع الفكر الهيلينستى فى انتقاله عن طريق المسلمين واليهود الذين عاشوا فى كنف الاسلام ، وذلك لبيان أثر ذلك الفكر فى الثقافة المسيحية اللاتينية ، بعد أن تطور فى المجتمع الاسلامى وعدل الأفكار الاسلامية ولكن ما هى تلك العناصر المشتركة بين الفكر الاسلامى فى العصر الوسيط وبين تعاليم المسيحية ؟ ثم ماهى علة

الخلاف بينهما ؟ . ان فصول الكتاب كلها محاولة للاجابة على هذا السؤال من وجهة نظر لا تخلو من حيدة عن التزام الموضوعية أحيانا ومن التسرع فى الحكم أحيانا أخرى ، وهى برغم هذا وذاك تفصح عن جهد هائل فى الاحاطة الموسوعية بجوانب التراث الاسلامى المتشعب .

فى الفصل الاول – وهو من أمتع فصول الكتاب وأقيمها بالنسبة لتاريخ الفلسفة – يبين لنا المؤلف قسمات الفكر الهيلنستى فى الوسط السريانى ثم فى الوسط الاسلامى بعد ذلك . فحينما ارتبطت – من قبل – شعوب ودول بعضها ببعض فى الامبراطورية الاغريقية التى كانت متماسكة عقليا ، وكذلك الحال فى الوحدة الوثيقة فى الامبراطورية الرومانية بعد ذلك ، اضطرت الفلسفة أن تسلك بالتدريج مسالك اللاهوت النظرى تخلقت لنفسها الوظائف الخلقية والمذهبية التى تنسبها عموما الى الدين على حين قصرت الديانات المحلية همها على الشعائر فاتخذت الفلسفة الهلينستية فى القرون الاولى المسيحية صورة نوع من الدين ذى نغمة عالية ومذهب وطرى واضح ، وكانت هذه الفلسفة تلفيقية منبنية على أساس من الافلاطونية . وحين بدأت النهضة المسيحية أعيد تشكيل هذه الديانة تحت ضغط المؤثرات الهيلنستية وأعيد وضع لاهوتها فى اصطلاحات فلسفية .

وعندما نلتقى بمدرسة الاسكندرية نجدها قد تحولت عن الصبغة القديمة ، ولا شك أن أفلوطين والافلاطونيين المحدثين كانوا تلفيقيين أخذوا بلا حساب من مصادر شرقية اختفى بعضها تحت ستار نسبته الى فيثاغورس . ثم يبين المؤلف – بعد ذلك – الطابع العام لأنظار فيلون اليهودى السكندرى ، وكيف كان معبرا عن الاتجاهات الفلسفية لعصره ، كما عمل على اختمار الفكر اليهودى خارج الدوائر اليهودية . وفى مدرسة الافلاطونية المحدثة نلتقى بمؤسسها « أمونيوس ساكاس » و « أفلوطين » الذى يمثل الصورة النهائية لها . فعنده نجد صورة عن الاله مفارقة غاية فى التجريد تند عن الوصف والتعريف وتعلو على الادراك ومفاهيم الارادة والمعرفة الانسانية ، كما تتضح فى فلسفة معالم فكرة الصدور أو الفيض عن الواحد . أما « فورفوريس » تلميذ « أفلوطين » فانه يتابع عمله ويتم فرج العناصر الافلاطونية والارسطية . ومن بعده يأتى تلميذه « يمبيخوس » الذى يتخذ من الافلاطونية المحدثة أساسا للاهوت وثنى . وكان « بروكلوس » آخر تابع وثنى للافلاطونية المحدثة . وأول مسيحى حاول التوفيق بين اللاهوت المسيحى ونظريات الفلسفة الافلاطونية هو « كليمان » الاسكندرى . والزعيم العظيم التالى فى الفكر المسيحى هو « أوريجن » الذى لم يجد صعوبة كبيرة فى التوفيق بين الفلسفة المعاصرة والفكر المسيحى . ولم ترض الكنائس المحافظة عن ذلك التطور الفلسفى للعقيدة . ولكنه كان واضحا أن عبارات المذهب المسيحى لا بد أن تجارى النظرية السائدة فى الفلسفة . ويبدو علينا النقص فى تصور التاريخ حين نسخر من تنازع المسيحيين على الكلمات وكيف دلت على النتاج الثابتة فى تلك الايام . فى ذلك الوقت أثيرت مجادلات حادة وكان من نتاج النقاش الذى أثاره آريوس السكندرى حول علاقة المسيح بالله أن اعترفت الكنيسة الشرقية بأن الفلسفة الاسكندرية تشرح المذهب الارثوذكسى وتبعها فى ذلك الجزء الاكبر من الكنيسة الغربية ، فلما جاء القرن الخامس استبعد المذهب الاريوسى تماما من كنيسة الدولة . ومن أشهر المجادلات التى حدثت فيما بعد مؤتمر « نيقيا » ما تعلق من ذلك بشخص المسيح المتجسد .. وفى عام ٤٣١ م عقد مؤتمر أفسوس حيث نجحت الطائفة الاسكندرية فى الوصول الى اتهام نسطور وأتباعه بالالحاد لقولهم بكمال الناسوت فى المسيح وأنه لم يصر الها الا بعد دخول « الكلمة » فى جسده . على حين رفض النساطرة على أساس من المنطق الكنيسة الرسمية ومن ثم وقعوا تحت قبضة الاضطهاد ولم تنتشر تعاليمهم بحرية الا بين المسيحيين الذين كانوا يتكلمون السريانية . وقد أصبح كل مبشر نسطورى الى حد ما داعية للفلسفة اليونانية . على أن الكنيسة النسطورية حين انقطعت عن الحياة الهيلينية الرحبة أصبحت اقليمية خالصة . ومن الصعب أن نبالغ فى خطورة النسطورية فى التمهيد لايجاد صورة شرقية للثقافة الهيلنستية فيما قبل الاسلام . وتبدو أهميتها الحقيقية فى أنها كانت تمهيدا للاسلام الذى جعل اللغة العربية وسطا عالميا لتبادل الفكر فجعل المادة السريانية تستخدم فى حقل أوسع وأكثر نفعا .

وبعد مؤتمر « خلقيدونيا » طرد المدافعون عن نظرية الامتزاج بين الكلمة والنفس الناطقة من كنيسة الدولة . واتبعت الكنيسة المصرية مذهب القائلين بالامتزاج أو « اليعاقبة » نسبة الى يعقوب السروجى وكان لها أتباع كثيرون فى سوريا . وكان عهد ما بين الانشقاقيين عهد ترجمة مثمرة وشروح وتعليقات . والى جانب الفلسفة واللاهوت نجد اهتماما عظيما بالطب والكيمياء والفلك لصلتهما الوثيقة بالطب فى ذلك الوقت . وكانت دراسة الطب شديدة الارتباط بمدرسة الاسكندرية التى ظلت تتطور به دون انقطاع وأصبحت قبيل الفتح الاسلامى دارا كبرى للبحث العلمى ، الا أن التقليد السائد فى مصر قد حول هذه الدراسات الى اتجاهات مضادة ومال الى احداث انحراف تنجيمى بها ، وأصبح ذلك فيما بعد عيبا فى الطب العربى كما يبدو فى عصر متأخر . ولم يكن ذلك خطأ الاسلام وانما كان ارثا من الاسكندرية . وقدشهدت القرون التى سبقت الاسلام مباشرة انتشار المؤثرات الهيلنستية انتشارا واسعا ثابتا فى كل شكل من أشكال العامة وظل المجتمع الذى يتكلم السريانية مجدا فى دراسة المنطق الارسطى والميتافيزيقا والدراسات الطبية والعلمية ، وان لم يكن ذلك نشاطا عبقريا وأصيلا ولا يتعدى الترجمة والشروح . ولقد كانت الاهمية الكبرى للمجتمعات المسيحية التى تتكلم السريانية باعتبارها

واسطة لنقل الفلسفة والعلم الهيلنيستى الىالعالم العربى ·· ولم يكن ثمت تطور مستقل لها فى الجو السريانى · وكان انتقال هذه الثقافة من طرق خمس : النساطرة معلمو المسلمين الاول وأهم من نقل الطب ـ اليعاقبة الذين قدموا اساسا أنظار الافلاطونية المحدثة ونصوصها ـ الزرادشتيون الحرانيون وأخيرا اليهود الذين لم يكن لهم أى اتصال بتقاليد الفلسفة الارسطية ولكنهم شاطروا النساطرة الميل الى الدراسات الطبية ·

وفى الفصل الثانى ينتقل المؤلف الى بيان جوانب الحياة الثقافية منذ العصر الاسلامى المبكرحتى نهاية الدولة الاموية · وهذا الفصل من الفصول الهامة التى تضمنت آراءه فى كثير من اساسيات الثقافة الفلسفية والعلمية والدينية فى الاسلام · وهو يرى أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) جهد فى أن يخلق مجتمعا منظما من القبائل العربية فى الحجاز · ومرجع ذلك اعتقادالنبى بأن تعاليمه لا يمكن أن تلقى انتباها جديا الا فى المدينة التى كانت ظروفها متقدمة جدا عن ظروف مكةوورثت تقاليد دستورية من المستوطنين الآراميين واليهود · وفى المدينة التقى النبى بأناس يعطفون على المبادىء التى تعلمها من مصادر تشبه شبها كبيرا ما أخذوا عنه · ولقد أصبح الاسلام دينا ذا طابع عسكرى لأنه انتشر بين العرب فى الوقت الذى بدأوا فيه يشتغلون بالفتح والتوسع · ويبدو أن السبب الوحيد فى الجهود العربية لم تلحقها الجهود الاخرى مباشرة أن العرب دهشوا لنجاحهم فلم يكونوا على استعداد لجنى ثماره ·

ويتحدث المؤلف ـ بعد ذلك ـ عن التنظيم الطبقى للمجتمع الاسلامى فىالقرن السابع وما صاحب هذا التنظيم من انقسامات داخلية اشتدت باستيلاء « على » على مقاليد الخلافة وظهور فتنة التحكيم وطائفة الخوارج · وبتولى معاوية الحكم أصبحت الخلافة الاموية عربية أولا ثم اسلامية ثانيا وتوارى دين النبى فى الخلف · وكان العرب باعتبارهم حكاما لسوريا على صلة بثقافة مكتملة تأثروا بها من طرق مختلفة · وكانت البنية السياسية للدولة الى حد ما ذات طابع تجريبى حتى سقط الامويين ثم أصبح النفوذ الفارسى بعده غالبا · وليس من التحامل القول بأن العرب فى العصر الاموى لم يتعلموا شيئا من فن الحكومة تقريبا ولا من عمل الادارة · وفى عهد الاسلام الاول لم يوجد فاصل بين القانون الشرعى والقانون المدنى · وعندما واجه العرب فى الاقاليم الاغريقية والفارسية أمورا لم يتكلم عنها الوحى وان اشتمل على ما يمس الموضوع مباشرة اضطروا الىالتوسع فى القانون السماوى · وقد حدث هذا باضافة عدد ضخم من الأحاديث المصطنعة التى تروى ما قاله النبى وفعله فى ظروف لم تخطر له أبدا · والكثير من هذه الاحاديث يبدو منه دافع واضح هو الزيادة فى امتيازات الفئة الحاكمة او تاكيد التفوق القبلى لقريش ، ويذهب المؤلف الى انه حينما طرأت مسائل جديدة فى الاجيال اللاحقة لم تكن هناك صعوبة فى افتراض أن النبى كان سيرضى الحل العادل المعقول الذى افترضه المشرعون الرومانيون ، واشتملت الشريعة الاسلامية فى النهاية على جزء كبير من القانون الرومانى الذى أصبح المصدر الرئيسى فيما يختص بالحاجات الفعلية للقانون المدنى · وكان الفقهاء فى العصر الاموى يلحقون أى خطا يشاءون تحت اسم « الرأى » الذى كان يقصد به تطبيق حكم جاء ممن تمرس بظروف القانون الرومانى ليميز ما هو عادل ومعقول ·· وتستند فكرة الرأى الى أن هناك مقياسا موضوعيا للصواب والخطا يمكن ادراكه ، وتلك نظرية يبدو منها نفوذ الافكار الاغريقية التى يشتمل عليها القانون المدنى · ولكن العصر العباسى شهد رد فعل سلفى يميل الى الحد من حرية استعمال « الرأى » يبدو عند أبى حنيفة حيث نجده يهتم بكل نص ايجابى فى القرآن الكريم يمكن ان ينطبق على القانون المدنى ولم يستشهد بالحديث الا الى حد محدود ، أما القياس فقد استخدمه الى حد أبعد كثيرا ، واستخدم كذلك ما أسماه « الاستحسان » أى ما يبدو فيه العدل والصواب ولو خالف النتيجة المنطقية التى يمكن استنتاجها من القانون السماوى · وانه وان كان فقه أبى حنيفة أوسع وأسهل وأقرب الى العقل من أية نظرة فى الفقه الاسلامى الا أنه « المستحسن » قد تحجر على مر الزمن فى صورة سوابق فأصبح مذهب أبى حنيفة تعبيرا عن هذه القرارات الثابتة غير المرنة التى وصل اليها الاسلام فى القرون الوسطى · ويبدو فى « الاستحسان » أثر القانون الرومانى والفلسفة الاغريقية · وربما ترددنا فى اقتراح أن الاستحسان ينبنى بالضرورة على أساس هيلنستى · ولا مبرر لافتراض ان أبا حنيفة قد قرأ الفلاسفة الاغريق او القانون الرومانى ولكنه عاش فى زمن بدأت فيه المبادىء العامة المستنبطة من هذه المنابع تتغلغل فى الفكر الاسلامى · ولا نترك رأى المؤلف ـ هنا ـ عن فقه النعمان بن ثابت خاصة والفقه الاسلامى عامة دون تعليق لما فيه من تهافت أحيانا وعدم استيعاب لمصادر التشريع الاسلامى ومقتضياته أحيانا أخرى · فقد كان تعريف القرآن بالاحكام الشرعية أكثره على نحو كلى لا جزئى ، وكان الرسول يتولى تطبيق هذه الآيات القرآنية على الحوادث والاشخاص مع بيان وجوه العمل بها بالقوة او الفعل أو بالاجازة ، وأصبحت السنة ـ التى هى عبارة عما جاء عن النبى من أقوال او أفعال أو اقرار لأقوال أو أفعال صدرت منه أو من سواه أو تطلق علىعمل الصحابة لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل الينا او اجتهادا مجتمعا عليه منهم أو من خلفائهم لضرورة ملجئة ، ـ مصدرا ثانيا من مصادر التشريع · وقام فقه أبى حنيفة على الكتاب والسنة والاجماع والقياس، فكان ان استشكل عليه شيء ولم يجده ظاهرا رده الى النظائرواستشهد عليه بالاصول واتفاق الائمةفيجتهدويدور حول الاتباع ، كما يقول · وهو يرى القياس فى كتاب الله كثيرا كما أن فى السنة اجتهادات وقياسات كثيرة · والقياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودا وعدما ، وعلى ذلك ففى كل ما يمكن أن يحدث حكم للاسلام

سواء بنص او باجتهــاد حيث لا نص • ولم يكن أبو حنيفة ـ كما زعم المؤلف ـ ممثلا لرد فعل سلفي يميــل الى الحد من حرية الرأى بل انه كان يقول دائما : «علمنا هذا راى فمن جاء باحسن منه قبلنـاه » • وهــو يفرض القياس أو الرأى على الفقهاء فرضا ، ويقف مدافعا عن منهجه معلنا ان النقل والعقل هما أساس الفقه وفروعه • أما عدم استشهاده بالحديث الا الى حد محدود فهي مسالة ثبوت للسنة أو عدم ثبوت ، وتحرج من الرواية لأجــل المطاعن التى تعترض فيها فى وقت كثرت فيــه أسباب الاختلاق وأصبح الحــديث الصحيح فى الحديث الكاذب كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود وحتى كان «مالك» يسمى الكوفة دار الضرب اذ تسك فيها الاحاديث كمـــا تسك النقود • فالسنة عنده يجب أن تكون متواترة والا فمشهورة ، واذا وجد النص فيجب أن يكون فهمه عــلى وجه يتفق وعلل الشريعةواحكامها ، اما ما يخالف القرآن من السنة فليس منها ، ولا يقبل حديثا عمل راويه بعــد روايته بخلافه ولا يقبله فيما تعم به البلوى ، أو اذا عارضه آخر بمثله وتأيد المعارض بالقياس • فالحقيقــة ان ابا حنيفة لم يترك النصوص والحديث لأقيســته بل كتبه ملأى بترك القياس للحديث • فمن استبانت له سنة الرسول ـ كما يقول الشافعى ـ لم يكن له أن يدعهــا لقول أحد •• وما يخال من المخالفة عذره عدم وصــول الحديث أو وصوله وعدم الثقة به •

وحيث يكون العجيب لا نجد بنا حاجة الى التعليق على ما يذهب اليه المؤلف من ان فكرة « الرأى » تستند الى ان هناك مقياسا موضوعيا للصواب والخطــا يمكن ادراكه ، وتلك نظرية يبدو منها نفوذ الافكار الاغريقية التى يشتمل عليها القانون المدنى » • وقوله بعد ذلك : « ان المسلمين الاوائل قالوا بان الخير والشر يتوقفان على مشيئة الله فقط وكان هذا أثرا للفلسفة الاغريقة التى قالت بان هذه التفريعات ليست تعسفية ولكنها ترجع الى اختلاف طبيعي يوجد بين الخير والشر وأن الله عادل من حيث تنطبق مشيئته على هذا المقياس » •

ثم يذكر المؤلف بعــد ذلك مدارس الفقه الثــلاث الاخرى مبينا ان «مالك ابن انس» أحل فكرة «الاستصلاح» مكان « الاستحسان » فلم يترك القياس الا حيث كانت نتائجه ضارة بالمجتمع ، وقد اهتم بالحديث واضاف اليه مبدأ « الاجماع » • أما « الشافعى » فيتوســط « ابا حنيفة » و « مالكا » ويفسر الاجماع بأنه الاستعمال العام فى الاسلام لا فى المدينة وحدها • على حين يتخذ « ابن حنبل » موقفا رجعيا خالصا يلزم به القــرآن والحديث لزوما تاما •

وفى ميدان الحضارة العمرانية لا يرى المؤلفللعرب فيه مهارة خاصة اذا اعتمدوا على الاغريق والفرس وعلى القبط بدرجة أقل • ويبدو أن العمــل الحقيقى للفن والعمارة الاسلامية هو الربط بين مختلف أجزاء العــالم الاسلامى فى حياة مشتركة تاثرت بمؤثراتاغريقيــة أو فارسية ـ اغريقية على حين دخل العنصر الهندى الثانوى من طريق الفرس • على أن هنالك وجهة من النظر يبسطها المستشرق « اتيين دينيه » فى قوله : « اننا لننصح من يستريبون فى عبقرية العرب بتصفح مجموعة الرسوم التى تمثل المبانى التى تركوها منثورة فى جميع البلاد الخاضعة لهم • لقد أخذ العربكثيرا عن أثينا وروما وفارس ولجأوا فى أحوال متعددة الى استخدام فنييها وعمالها ولكنهم كانوا دائما لا يحققــون بما أخذوا عنهــا الا أحلاما عربية • والاسلوب المعمارى العربى نجد طابعه الفكرى المبتكر فى انه يسترشد دائما بفن جديد نشأ مع الاسلام ذلك هو فن الزخرفة الخطية • وان هذا الفن حتى فى حالة اقتصاره على وسائله الخاصة وحدها لهو من أروع الفنون الزخرفية التى تمخضت عنها مخيلة الانسان ، ولعله الفن الاوحد الذى نستطيع أن نقول عنه دون مغالاة ان له روحا • وهو لا يستوحى العالم الخارجى مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنميق ـ فى ذلك ، وهــو بذلك ينتسب الى الموسيقى ويبدو وكانه رمز لمعان تجيش فى أعماق القلوب • وأخيرا فان النظام الوحيد الذى يشابه الزخرفة الخطية فى كونه لا يستوحى الطبيعة ـ وهو الزخرفة الهندسية قد دبت فيه على أيدى العرب حياة جديدة حقا • وقد أطلق عــلى هــذا الفن الزخرفى اســـم له دلالته : (أرابيسك Arabesque وراح يتاسى بفن الزخرفة الخطيــة العربية فى البحث عن أعجب ما يبهر الفكر من أشــكال عبقريته »

ويبدو أثر الفكر الهيلنستى ـ فى نهاية العصــر الاموى ـ فى صورة نقد للافكار المقبولة فى علم «الكلام» ، ولا ســيما عن طريق المسيحيين الذين أثرت عنــدهم الدراسات النفسية والميتافيزيقية والمنطقية تاثيرا عظيمــا فى اللاهوت • ويبدو أن من المحتمل أن نظرية « قــدم الكلمة » أو « قدم القرآن » متاثرة بالعقيدة المسيحية فى « الكلمة » Logos • اما المعتزلة فانهم عارضوا القول بقدم القرآن لأن النتائج المستنبطة من ذلك تقر باشخاص متميزة تطابق أقانيم الثالوث المسيحى • أما بالنســبة للاختيار وعدمه فمما لا شك فيه أن عدم تمشى الالتزام والمسئولية الخلقية من جهة مع القوة غير المحدودة من جانب الله من جهة أخرى لم يكن ذلك واضحا فى ذهن النبى • ولا أساس للجدل فيمــا اذا كان الاختيار أو الجبر يرجع الى المعتقدات الفارسية فيما قبل الاســلام • وواضح ان الاستنباط المنطقى فى مذاهب التوحيد فى أى من هذين الاتجاهين قد أنجزه الفرس • ويبدو من آراء « واصل بن عطاء » الذى قاد آراء القدرية الاثر التحليل للفلسفة الهيلينسية • ويبدو أن المعتـــزلة رأوا فى العدل ان الله قد توخى مقياسا موضوعيا للعمل الصائب حتى انه لا يمكن أن ينظر اليه باعتباره قائما بعمل تعسفى وتلك فكرة مستعارة من الهيلنيستية لأن التصورالاسلامى الاول يعد الله فعالا لما يريد وعلى مشيئته يتوقف مقياس الصواب والخطأ •

وان ما يزعمــه المؤلف عن تصــور النبى للارادة الانسانية وصلتها بالمشيئة الالهية انما هى زور وبهتان

يظهر فيها الفساد من وجوه عدة ، ان كانت عن قصد فهى تحمل الى جانب المغالطة دعوى ابطال الوحى النبوى – ضمنا – وان كانت عن غير قصد فهى غلط واضح يبدده أبسط تصور شامل لآيات القرآن الكريم ودواعى التنزيل ومناسبة الخطاب فيها . ولا يتسع المقام هنا لعرض قضية خطيرة ومتشعبة الاطراف كهذه القضية ، ولا يسعنى الا التنويه بالتعليق المستفيض الهام الذى أورده الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده بصدد الرد على ما يذهب اليه « دى بور » بشان علة الآيات المتعارضة فى القرآن الكريم (تاريخ الفلسفة فى الاسلام – الترجمة العربية ط ٤ ص ٧١ – ٩٣) .

لقد كان العصر الاموى عصر الحيوية الدائمة التى اختلطت فيه عناصر مختلفة فى حياة مشتركة وعصرالتاثير غير المباشر . ولقد فعلت فريضة الحج فعلها فى خلق الحياة المشتركة ، كما كان لاستخدام اللغة العربية وسيلة « للحياة اليومية » أو على الاقل للصلاة أو الدراسة آثار بعيدة المدى فى جعل المجتمع الذى يتكلم العربية وسطا صالحا لنقل الثقافة .

ويبدأ الفصل الثالث ببيان موجز لأسباب انهيار حكم بنى امية ويقرر أن الفتح الاسلامى لفارس لم يقض على افكار الفرس القديمة ، فهم لم يرحبوا بنظرية الخلافة وبدت فى نظرهم رجوعا الى البربرية البدائية ، وثارت فرقة غالية من اصل فارسى هى « الراوندية » حينما رفض الخليفة أن يعامل معاملة الاله وألقى بقادتهم فى السجن. ومنذ القرن الثانى الهجرى لم ينقطع سيل أدعياء النبوة الذين زعموا أنهم آلهة ، أو الزعماء الناجحين الذين الههم اتباعهم . وتبدو أوضح صورة لهذه الافكار فى الحركة المعروفة باسم الشيعة . ثم يذكر المؤلف بعد ذلك – أهم معتقدات الشيعة وصلتها بالافكار الفارسية الموروثة . وفى ذكر المؤلف للائمة الاثنا عشر يتكلم عن « جعفر الصادق » ، الامام السادس ، باعتباره متحمسا للمعرفة « الحديثة » وهى الفلسفة الهيلنيستية كما يعتبره بصورة عامة مؤسسا أو على الاقل شارحا لما يعرف باسم آراء الباطنية اى تفسير القرآن تفسيرا لا يصير به معنى الوحى هو المعنى الحرفى ، ولا يدرك المعنى الحقيقى الا الامام المعصوم . ويبدو ان جعفرا كان اول من ادعى من العلويين انه كان محلا للالوهية ومعلما ملهما اذ أن أسلافه لم يذهبوا الى اكثر من السكوت على ادعاء اتباعهم ذلك لهم . وكثيرا ما رفضوا هذه الادعاءات . وهذه الدعوى – من المؤلف – لم أقف لها على سند من كتب السير والطبقات التى أرخت للعقائد الاسلامية ، بل اننا نجد من كتب من أهل السنة عن الامام جعفر الصادق ينظر اليه نظرة خاصة قوامها الاحترام والتبجيل والاعتراف بفضله وصدقه – بدلالة اللقب – فى علوم الدنيا والدين . وليت المؤلف أظهرنا على مصادر فكرته هذه . وبوسع القارىء أن يرجع مثلا الى رسائل جابر بن حيان الذى كان من أخلص أتباعه وتلاميذه الذين ردوا منتهى علمه الى نور النبوة المحمدية . وهذا هو الشهرستانى – أحد كبار علماء السنة ومؤرخى العقائد فى الاسلام – يذكر عن جعفر الصادق أنه ذو علم غزير فى الدين وادب كامل فى الحكمة وزهد بالغ فى الدنيا وورع تام عن الشهوات .. وقد تبرأ عما كا ينسب اليه بعض الغلاة وبرى منهم ولعنهم وبرى من خصائص مذهب « الرافضة » وحماقاتهم من القول «بالغيبة» و «الرجعة» و « البداء » و « التناسخ » و « الحلول » و « التشبيه». لكن الشيعة بعده افترق كل واحد منهم مذهبا وأراد أن يروجه على أصحابه فنسبه اليه وربطه به والسيد برىء من ذلك » . (الملل والنحل ح ١ ص ٣٣٤ – ٣٣٦) والشهرستانى هنا مثال لما كتبه مؤرخو العقائد الاسلامية باجمال عن جعفر الصادق .

ويتتبع المؤلف بعد ذلك تطور الدعوىالشيعية وكيف أنها أصبحت فيما بعد دعوة للهاشميين وبنشاطها سقطت الدولة الاموية فانتهى بذلك طغيان الاقلية العربية ورجحت كفة الفرس الذين تفوقوا على العرب تفوقا سريعا حتى أننا لا بد أن نحترس فنشير الىالفلسفة العربية والعلم العربى لا الى فلسفة العرب وعلم العرب اذ لم تكن من عمل العرب الا فى حالات قليلة جدا .

والفصل التالى عن المترجمين الذين نقلوا تراث الغرب والشرق على السواء الى العربية . فيذكر المؤلف أن الترجمة ارتبطت فى أول عهدها بابن المقفع الفارسى الاصيل . وقد ترجمت مؤلفات أرسطو وبطلميوس واقليدس كما ترجمت كتب فى الفلك والحساب منالهندية وانتقلت الى أوربا الارقام الهندية باعتبارها أرقاماً عربية. وقد انحصر البحث العربى فى الطب مدة طويلة فى ترجمة ما كتبه الاغريق ثم العمل على مثال ما كان يجرى فى الاسكندرية . ومر وقت طويل قبل أن تخرج الجماعة الناطقة بالعربية مؤلفين أصلاء فى الطب . وقد كان استخدام مقدمات الكتابة الهندسية واخضاعها لما كتبه فطاحل الاسكندرية أكبر مساهمة حقيقية قام بها الطلاب العرب فى سبيل التقدم بالعلم . ومما يستحق الملاحظة انه بالرغم من أن العمل قد تم معظمه على يد السريان فان عددا كبيرا من الترجمات كان عن الاغريق مباشرة ويأتى المترجمون اليعاقبة بعد النساطرة فى الاهمية . ولقد ذاع المذهب المكتمل للافلاطونية المحدثة عن طريق ترجمة ما عرف ب « اتولوجيا ارسطوطاليس » وانضم الى تعاليم الاسكندر الافروديسى فكان له أثر قوى على الفلسفة الاسلامية فى اتجاهات مختلفة تطورت فى النهاية حتى صارت افلاطونية محدثة اسلامية عند ابن سينا وابن رشد وكان لها أثر قوى فىالمدرسة اللاتينية وفى التصوف الاسلامى النظرى كما دخلت فى النهاية الى علم الكلام السنى. وجاء الطب من الاسكندرية وعابه زيادات المدرسة المصرية على تعاليم جالينوس وبقراط حيث انطبع بطابع السحر . وجاء التأثير المباشر من النساطرة والزرادشتيين بجنديسابور ثم من المدرسة الوثنية بحران . وهنا يصدر المؤلف حكمه على الكيمياء العربية فيقول : « ان

هدف الطلاب العرب من دراسة الكيمياء لا يهم العلماء المحدثين . وواضح فى الوقت نفسه أنه مع الاعتراف بالقصور عند الكيميائيين العرب لاشك أنهم كانوا باحثين أصلاء ولو أنهم لم يفهموا نتائج التجارب التى قاموا بها فهما صحيحا ... والكيمياء العربية تعيد عرض ما قام به الكيميائيون الاغريق فى الاسكندرية ولكن ربما كان بها عنصر مصرى خفى أصيل » . وهنا يجدر بنا أن نعقب على رأى المؤلف فى حقيقة الكيمياء العربية وأصالتها ، الامر الذى تعرض له فى أكثر من موضع من كتابه . وفى تقديرى أن العبقرية العلمية لدى العلماء العرب ان فى مادة البحث أو منهجه أو فى التطبيقات العملية انما تمثلت أصدق ما تمثلت فى الكيمياء . والعرب ـ وان كانوا قد تلقوا تراث الاقدمين فيها الا أنهم قد استطاعوا بحق أن يجعلوا من المعلومات المتفرقة علما راسخا ذا مكانة حقيقية استطاعت على أساسه أوربا ان تبدأ بحوثها الكيمائية على نحو واقعى سليم وبناء نظرى متسق . وان كان المؤلف قد شايع أمثال « برتلو » فى آرائهم عن الكيمياء العربية فانه غفل أو تغافل عن حقيقة الدراسات الجادة التى قام بها امثال « هولميارد » و « سارتون » و « دامبير » و « ستابلتن » و « كراوس » وغيرهم من العلماء المؤرخين الذين لا يسع قارىء مؤلفاتهم الا أن تستأثر بمشاعره نغمة الود والتقدير الذى يبديه أولئك الافاضل للكيمائيين العرب . والحقيقة ان المؤلف ـ وهو لم يثبت على رأى واضح فى تلك المسالة أحيانا بينما يقطع بعدم أصالة الكيمياء العربية وبعدها عن الطابع العلمى السليم أحيانا أخرى ـ كان متسرعا فى اصدار حكمه لا تدعمه الدراسة المقارنة لما كتبه المؤلفون العرب فى ضوء التراث العلمى السابق واللاحق .

وفى الفصل الخاص « بالمعتزلة » يبدأ المؤلف بتقرير أن العالم الاسلامى تلقى فلسفة ارسطو كما يتلقى الوحى الذى يؤيد القرآن تقريبا ، ولم يكن قد اتضح ما بينهما من خلاف ، ثم يعرض بعد ذلك لآراء المعتزلة فى ايجاز شديد فلا ياتى على اصول مذهبهم جميعا . ويتابع تطور هذه المدرسة الكلامية مبرزا آراء أبى الهذيل العلاف البصرى والنظام وبشر بن المعتمر ومعمر بن عباد السلمى وثمامة بن أشوس وأحمد بن حايط والفضل الحدثى والجاحظ . ويذهب المؤلف الى أن أبا الهذيل يرى أنه لا يمكن للانسان أن يعرف شيئا عن الله الا عن طريق الوحى الذى سينزل أساسا لهذا الغرض بينما المشهور عند المعتزلة الاعتقاد بأن « بعث الرسول بالتكاليف لطف من الله تعالى بالمكلفين بالاحكام الشرعية يقربهم الى الواجبات العقلية ويبعدهم عن المقبحات العقلية ولا مدخل للرسل فى معرفة البارى سبحانه لأن العقل يوجبها وان لم يبعث الرسل » . فالحقيقة أن العلاف يرى أن « المكلف يجب عليه قبل ورود السمع أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر وان قصر فى المعرفة استوجب العقوبة أبدا » . (الملل والنحل . ح ١ ص ٧٤) . ويذكر المؤلف عن « ثمامة بن أشرس » أنه يتخلى تماما عن محاولة العلاف فى التوفيق بين رأى أرسطو فى قدم المادة وبين تعاليم القرآن فيقر صراحة بأن الكون قديم قدم الله . والمؤلف هنا يستند الى رأى « ابن حزم » فى مذهب ثمامة من « أن العالم فعل الله بطبعه » (الفصل ح ٤ ص ١٤٨ ، والى رأى « الشهرستانى » عنه من « أنه أراد ما أرادته الفلاسفة الطبيعيون من الايجاد بالذات دون الايجاد على مقتضى الارادة » (الملل والنحل ح ١ ص ٧٨) غير أن « الخياط » يرفض هذا القول الذى أخذه ابن حزم والشهرستانى عن ابن الراوندى ويقول : « انه لم يسمع عن ثمامة ولا ورد فى كتبه ، ثم أن المطبوع عند أصحاب الطبايع لا يكون منه الا جنس واحد من الافعال كالنار لا يكون منها الا التسخين ، أما من تكون فيه الاشياء المختلفة فهو المختار لأفعاله لا المطبوع عليها » . (الانتصار ص ٢٢ ـ ٢٣) .

ويبين المؤلف انقسام المعتزلة بعد ذلك الى مدرستين احداهما بصرية عنيت بصفات الله والثانية بغدادية وشغلت بالمناقشات الفلسفية حول طبيعة الشىء الموجود . ومن ابرز رجال المدرسة البصرية المتاخرين « الجبائى » وابنه « أبو هاشم » .

ويظهرنا المجرى العام للفكر المعتزلى على أثر الفلسفة الاغريقية فى علم الكلام هذا التاثير غير المباشر والذى جاء خلال وسط سريانى . ونجد أن مناقشات المعتزلة تفرض اتجاهات ثلاثة للتطور الفكرى : نجد الفلاسفة وهم من بنوا عملهم مباشرة على النص الاغريقى ، ونجد أهل السنة من الاشعرى الى آخرين ويمثلون وجهة نظر الكلام معدلا وموجها بفلسفة أرسطو ويحاولون التماس حل وسط بينها . ونجد الحركة الصوفية ثالثا . ولقد انتهت تقاليد المعتزلة الاولى أيام الاشعرى فرأينا من أحسوا أمام قوة مسائل الفلسفة اما أن ينحازوا الى الاشعرى وأهل السنة أو يشايعوا الفلسفة فيبعد بهم هذا عن المعتقدات السلفية فى الاسلام بعدا تاما . وهكذا يصدر المؤلف حكمه باطلاق يبعد الفلسفة الاسلامية عن المعتقدات السلفية تماما ، وهو حكم علينا أن نتقبله بتحوط شديد .. فالنظر الفاحص لمؤلفات الكندى والفارابى وابن طفيل وابن رشد على وجه الخصوص يبين لنا كيف انصرفت عناية هؤلاء الفلاسفة المسلمين الى التوفيق بين الفلسفة والدين ، فلم يكفوا عن توكيد هذا الاتجاه « فالرأى فى الشريعة الذى يعتقد مخالفته للحكمة اما رأى مبتدع فى الشريعة ليس من أصلها واما هو رأى خاطىء فى الحكمة اى تاويل خطا عليها » على نحو ما يذهب اليه ابن رشد فى رسالتيه الهامتين (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ والكشف عن مناهج الادلة فى عقائد الملة) وفيها يعالج المشكلات الفلسفية الكبرى مصطنعا منهج التاويل وبحيث ينتهى الى القطع بأن « النظر البرهانى لا يؤدى الى مخالفة ما ورد به الشرع لأن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له » .

والفصل الخامس يخصصه المؤلف للحديث عن فلاسفة المشرق الذين يعدهم أخطر جماعة فى تاريخ

الثقافة الاسلامية والمسئولين عن ايقاظ الدراسات الارسطية فى الاقاليم المسيحية اللاتينية • واول هذه الطائفة يعقوب بن اسحق الكندى بدأ معتزليا ثم استخدم الترجمات المأخوذة عن الاغريقية • ومما لافائدة فيه – فيما يرى المؤلف – الادعاء بان تاريخ الفلسفة العربية يرينا ضعفا فى اصالة العقل السامى لسبب واحد وهو أننا لا نجد فيلسوفا واحدا من فلاسفة المرتبة الأولى بعد الكندى عربيا بمولده • قد تفرد الاغريق حتى عصر متاخر جدا بمحاولة ايجاد اى شيء يصدق عليه انه دراسة نفسية علمية • ومع ان الكندى هوالذى جاء بمسائل الميتافيزيقا الى العالم الاسلامى الا انه لم يكن يفهم علاج ارسطو لهذه المسائل • هذا ما يراه المؤلف • والحقيقة ان فيلسوف العرب ادرك تماما علاج ارسطو لمسائل الميتافيزيقا وخالفه فيها خصوصا فيما يتعلق بنظرية قدم العلم اذ لم يستهوه مذهب أرسطو فى المادة العاشقة للصورة ولله ، كما لم يقتنع اخيرا بنظرية الصدور المعروفة والتى أريد بها تقريب الشقة بين الاله المتعالى وبين عالم المادة الكثيف• والكندى وقد نبه الى ما فى مذهب ارسطو من ضعف لم ياخذ به كله ؛ فهو يقرر فى وضوح ما ثبت لديه بالدليل الرياضى – ان العالم محدث من لا شيء « ضربة واحدة » فى غير زمان ومن غير مادة ما بفعل القدرة المبدعة المطلقة: الله كما أن بقاء العالم ومدة هذا البقاء متوقفة كلها على الارادة الالهية الفاعلة كذلك •

ثم يعرض بعد ذلك للفيلسوف العظيم أبى نصر الفارابى الذى تبدو خطورته فى اعتباره معلما للمنطق • وقد تكلم الفارابى عن ملكات النفس وأجزائها ، وهو يبدو مسلما متمسكا بدينه ويظهر عليه انه لا يدرك تأثير النظرية النفسية لأرسطو فيما يذهب اليه القرآن• ويجب أن نتذكر فيما يتعلق بالبعث أن العقيدة الاسلامية قد تورطت فى ذكر التفصيلات الفجة أكثر مما تورطت المسيحية• ولكن الفارابى لم يفطن الى الغاية التى ستدفعه اليها تعاليم ارسطو خصوصا وأن مذهبه يبرهن على بقاء النفس• والمؤلف بهذا الاستدراك حول عقيدة البعث فى الاسلام يغفل او يتغافل عن طبيعة العقيدة الدينية عموما فضلا عن الاسلام خصوصا؛ ذلك ان وصف الحقائق بالمحسوسات يفهمه الخواص الذين يرتفعون بمطالب النفس الباقية عن طبقة الجهلاء على حين أن التعبير بالمعانى المجردة والحقائق المثالية غير مفهوم عندهم ، ومن ناحية أخرى فان من الخطا الزعم بان الخطاب بالمحسوسات فى امر البعث أو الثواب الأخروى مقصور على العقيدة الاسلامية – ودع عنك انه مفصل فيها على نحو فج – وبوسع القارىء – مثلا أن يرجع الى اقوال «أشعياء» فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفره فى « العهد القديم » والى أقوال « يوحنا » فى الاصحاح الرابع والاصحاح العشرين والحادى والعشرين من « العهد الجديد » • بل ان من الكتاب المنصفين من يذهب الى « أن القرآن قد أقل جدا من الاسناد الى الحسيات والماديات وأن كل مافيه ايماء وتلميح وان المفسرين هم المسئولون عن اشاعة مثل هذه التصورات الحسية حول امور الآخرة » •

ومع أن المؤلف يسلم بسلطان فلسفة ارسطو على عقل الفارابى الا أننا نلاحظ أن الفارابى – مع تاثره البالغ بارسطو – خالفه فيما يذهب اليه احيانا وساهم تعديل مذهبه احيانا أخرى • فالفارابى يخالف ارسطو مخالفة صريحة فى انكار علم الله بالجزئيات ويقول الله هو المدبر لجميع العالم لا يغرب عنه مثقال حبة من خردل ولا يفوت عنايته شيء من أجزاء العالم •

بعد ذلك يذكر المؤلف فرعا من غلاة الشيعة يسمى بالاسماعيلية وما ارتبط بها من حركة « القرامطة » و « الحشاشين » • ثم يشير الى جماعة «اخوان الصفا» واصول معارفهم وأثرهم فى المشرق ثم فى اسبانيا من بعد • وكان ابن سينا آخر عظماء فلاسفة المشرق اذ يظهر فيه اعظم نتاج لاختمار الفكر الذى ولدته دراسة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية المحدثة •

ويبين المؤلف – بعد ذلك – سببين لانتهاء الفلسفة الحقيقية فى الاسلام فى آسيا : الأول أنها ارتبطت فى الذهن بالحاد الشيعة فساءت سمعتها عن أهل السنة ، والسبب الثانى كان ظهور العناصر التركية الرجعية والسلاجقة الذين كانوا من متزمتى أهل السنة فكرهوا كل ما يتصل بالشيعة أو بالمذهب العقلى •

★★★

ويفرد المؤلف الفصل السادس للتصوف الاسلامى الذى شاع خلال القرن الثالث نتيجة للمؤثرات الهلينية الى حد ما • فيتحدث عن نشأة الزهد فى القرنين الأول والثانى ويرده الى مصادر غير اسلامية ويرى انه فى اواخر القرن الثالث تبدأ القرائن على وجود تصوف جديد أوجدته المثل الدينية المخالفة للاسلام الاول ، ويقذف بالزهد الى مكان التبعية باعتباره تمهيدا للتصوف • ويشارك المؤلف « نيكلسون » و «براون » فى المصدر المباشر للتصوف الجديد كتابات افلوطين كما يميل الى ان ينسب تاثير المانوية والمزدكية فى أوائل الصوفية ممن دخلوا فى الاسلام وهم اصلا زرادشتين أو أبناء لزرادشتين كما يرى أثرا للمؤثرات الغنوصية عن طريق صابئة العراق والمؤثرات البوذية المنتشرة فى غرب فارس وان لم تكن هذه المؤثرات قوية جدا• ومهما كانت النظرية الصوفية مستعارة من الفرس أو الهند فهناك ما يفسرها فى الأفلاطونية المحدثة • وهكذا يجد المؤلف فى فهمه لأصول التصوف الاسلامى • فهذه النظرية – كغيرها – فيها شيء من الحق وان كانت لا تعبر عن الحقيقة كاملة ، فمن الطبيعى ولم يكن بين الشعوب الاسلامية سوى وحدة الدين واللغة ان تنمو بذرة التصوف الأولى متكيفة بالبيئات المختلفة والأحرى أن نعالج التصوف باعتباره نتاج اسلامى اولا وأنه متاثر بمؤثرات خارجية عن الاسلام ثانيا •

ثم يتحدث المؤلف عن تعاليم المتصوفة مبتدئا بذى النون ثم الحلاج وينتقل الى بيان أثر انتقال التصوف الى الشيعة وكيف دخلت آراء الشيعة الى التصوف ولكنها لا تكون جزءا أساسيا منه • ثم يذكر اهم الطرق الصوفية المعروفة ، ويذهب الى أن التعاليم الصوفية تلفيقية فى جوهرها وأن المبادىء العامة التى كانت أكثر تطبيقا هى: أولا : الله وحده الموجود الحق ولا سبيل الى معرفته الا بالعيان المباشر • ثانيـا : الشر سلب للجمال الخلقى للوجود الحق فى آخر فيض ونتيجة حتمية لامتزاج الحق بضده • ثالثا : غاية النفس أن تتحد مع الله • وفكرة الاتحاد فى أسمى معانيها أساس للاخلاق فكل ما يعين عليه فهو خير •

ولم تسلم تعاليم الصوفية - فيما يرى المؤلف - من المعارضة من جوانب ثلاثة : أولا : أن تكون الصلاة اتصالا صامتا لا ينقطع مع الله وترك الصلاة المكتوبة فى مواقيتها وانها فرض على من لم يتقدموا فى حقل المعرفة الروحية • ثانيا : استحداث الذكر وغيره من العبادات غير المعروفة فى الاسلام • ثالثا : فكرة التـوكل وترك التدبير ورفض العلاج والكسب ، مما لا يتمشى مع الاسلام السلفى •

اما قول المؤلف بأن الاعتراض الجدى بأن التصوف يحرف تعاليم القرآن أمر مفهوم ضمنا ان لم يفهم صراحة - هذا القول يجب أن ننظر اليه باحتراس شديد • فهو فضلا عن عدم وضوحه المحدد لا يقدم من الشواهد ما يقنع فى هذه السبيل • والحقيقة أن الجانبين الاول والثانى من جوانب المعارضة لا نسلم بهما باطلاق ؛ اذ مرجع هذه الدعاوى ما روجه المغرضون أو الأدعياء ممن بعدت بهم أفهامهم عن حقيقة المقاصد الصوفية أو ممن تسلط عليهم هوى جامح للتهوين من قيمتها فى مجال العقيدة والسلوك• فالصوفية المسلمون قد جعلوا تنقية العبادات ممـا قد يعلق بها من ضروب الرياء الظاهرة والمستورة غاية من غاياتهم قاصدين بذلك التماس الجوهر من وراء العرض• فمن كلام أبى يزيد البسطامى : « لو نظرتم الى رجـل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة » • وقال رجل للجنيد : « أهل المعـرفة بالله يصلون الى ترك الحركات من باب البر والتقرب الى الله عز وجل» • فأجابه الجنيد : « هذا قول قوم تكلموا باسقاط الاعمال وهى عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » • وفى الاحياء : يذكر الامام « الغزالى » قوله « قد يظن الجهال أن شرط التوكل ترك الكسب وترك التداوى والاستسلام للمهلكات وذلك خطأ لأن ذلك حـرام فى الشرع ••• وليس من الرضـا بالقضاء ما يوجب الخروج عن حدود الشرع ورعاية سنة الله مع بذل الجهد فى التوصل الى محاب الله تعـالى من عباده اذ العلم يورث فى الحال والحال يثمر الأعمال»• « فمن طعن على الاكتساب فقط طعن على السنة ومن طعن على التوكل فقد طعن على الايمان » على حد تعبير «سهل» ورائد الصوفية فى ذلك ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقته الاعمال » • وفى ذلك نفاذ الى دقائق العقيدة التى تشرف الانسان بمكانة سامية تجعله موصولا دائما بعالم الجود الالهى • وصدق على كرم الله وجهـه اذ يروى عنه : من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن • ذلك « أن علاقة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل » •

بعد ذلك يتحدث المؤلف عن « التصوف السنى » المطهر من الشوائب الشيعية على يد الغزالى ثم يتحدث عن انتشار التصوف فى اسبانيا على يد ابن عربى ، ويذكر عبد الحق بن سبعين اهم صوفية الأسبان • ولا يفعـل المتأخرون - بعد جلال الدين الرومى السنى - أكثر من ترديد تعاليم السابقين • ويتحـدث المؤلف عن المصلح الحنبلى ابن تيمية وعن رفضه لعلم الكلام ولنزعة الاتحاد عن الصوفية وهجومه على المظاهر الصوفية عموما فكان بذلك ممهدا للاصلاح الوهابى •

وينهى الفصل بذكر الشعرانى القاهرى وبيان أثره فى الاسلام الحديث واصلاح الصوفية •

★★★

والفصل السابع عن « الاسلام السلفى » الذى بقى بمعزل عن المعتزلة والفلاسفة وعن الشيعة والصوفية قاصرا همه على تفسير القرآن والحديث والفقه على مذهب ابن حنبل • وفى القرن الثالث - قرن الرجعية السلفية - اطرح المسلمون النظـريات العلمية ومنعوا كل نظر لأنه يؤدى الى الابتداع فى العقيدة أو العمل • وفى نهـاية القرن ظهرت محاولة لايجاد كلام سنى على يد المعتزلة بقصد الدفاع عن العقائد التقليدية • وكان « الأشعرى » ممثلا لهذه الحركة فى العراق « والماتريدى » فى سمرقند « والطحاوى » فى مصر • وقد تعرضت الأشعرية لهجوم الفلاسفة والرجعيين من أهل السنة على السواء • وبرغم ذلك فقد حقق المذهب الأشعرى مطالب أهل السنة ؛ فقد رأوا أن القرآن قديم فى الله ولكن التعبير عنه بالكلمات والحروف خلق حدود الزمان فى الأزل السحيق ثم نزل به جبريل الى النبى بعد ذلك • وقد خلق هذا فرصـة للجدل بالنسبة للمسيحيين والعقليين المحـدثين الذين يصرفون انتباههم الى كلمات خاصة جاءت الى العربية من السريانية أو الفارسية أو الاغريقية ثم ظهرت فى القرآن فى القرن السابع الميلادى • والذين رأوا فى لغة القرآن أحد الأدلة على أصله السماوى يرون فى ذلك صعوبة لها خطرها • والمؤلف - بهذا - يغفل عن مضـمون البلاغة الحقيقية التى هى موطن الاعجاز فى لغة القرآن • وهى - كما بين الثقات من اللغويين العـرب وفى مقدمتهم النظام والجاحظ والباقلانى والجرجانى ، بلاغة المعـانى الملتحمة بصـياغة فصيحة انفرد بها القرآن الكريم• وعلى

هذا نستطيع أن نفهم دلالة التحدى فى قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » • أما مايقصده المؤلف ضمنا من أن القرآن كلام محمد فهو على ذلك غير قديم بل حادث ومشتمل على كلمات أعجمية فاننا نقول ان القرآن بلغته التى خاطب بها العرب قد بهر افئدتهم وأفهامهم • هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فاننا لو شايعنا الأشاعرة فى قولهم ان القرآن قديم فى الله ولكن التعبير عنه خلق فى حدود الزمان فى الأزل السحيق ثم جاء به جبريل بعد ذلك الى النبى من غير تغيير لكلمة ولا حرف منه ـ على حد تعبير الجوينى ، ـ فاننا لا نجد غضاضة فى القول بأن علم الله السرمدى قد اشتمل ضرورة على ما ستكون عليه لغة العرب فى القرن السابع أو فى غيره من القرون اللاحقة أو السابقة وما ستحويه من ضروب الاشتقاق اللفظى والزيادة المضطردة لدواعى الاتصال بين العرب وغيرهم ، وليست هذه بالحجة التى تقوم دليلا على انكار المصدر السماوى للقرآن فضلا عن تهافتها فى افتراض جمود المصطلح اللغوى فى أمة العرب • هذا فضلا عن أن مظهر الاعجاز فى القرآن ـ هو كما يقول الجاحظ ـ « ليس فى الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين » بل فى الكلام مجتمع غير متفرق و « لو أراد أنطق الناس أن يؤلف من عباراته سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتاليفه ومخرجه لما قدر عليه ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان » •

ويتابع المؤلف بعد ذلك عرض مذهب الاشاعرة فى الصفات الالهية وينتهى الى أن الاشعرى ينظر الى أسرار الفلسفة على أنها غير ذات نفع روحى لأنها تعرض مسائل ضئيلة الخطر اذا قيست بحقائق الوحى العظمى • وقد تم بناء المذهب الاشعرى على يد « الباقلانى » ولكنه لم يصبح عاما الا بمجىء الغزالى فى الشرق وابن تومرت فى الغرب • ويبين رأى الغزالى فى الفلسفة وانها لا تعدو كونها استخداما منظما للعقل وليست قرينة للوحى ولا مناظرة له • ولا يمكن البرهنة على الحقيقة القصوى الا بتجربة الفرد بطريق الاتصال المباشر • والغزالى خلافا لابن رشد يعترف بسمو الحدس على العقل ، كما يفرض على التصوف صورة علمية • ومن بعده لم تبد فى الالهيات السنية أية أصالة •

★★★

والفصل الثامن يختص بالفكر الاسلامى فى المغرب• فيتحدث المؤلف عن ابن حزم الذى رفض المذاهب الاربعة واخذ القرآن والحديث بأكثر معانيهما تحفظا ورجعية كما طبق قواعد التشريع وطرقه على الالهيات نفسها ، وكان مجادلا عنيفا لآراء المعتزلة والاشاعرة على السواء •

ثم يبين المؤلف دور الوسطاء اليهود فى نقل الفلسفة الشرقية الى اسبانيا وكيف شاركوا فى نهاية الأمر فى الحركة الفلسفية على نحو ما فعل سعيد الفيومى وابن جيرول • وفى بداية القرن السادس ظهر أبو بكر ابن ماجة أول فلاسفة المسلمين فى اسبانيا ـ التى أصبحت بعد ذلك الملاذ الحقيقى للفلسفة الاسلامية ثم يعرض المؤلف لأفكار ابن باجة موضحا العنصر الصوفى بها ثم يتحدث عن ابن تومرت وابن طفيل الذى لا يختلف كثيرا عن ابن باجة •

وكان ابن رشد أعظم فلاسفة العرب وآخرهم تقريبا وأثارت مؤلفاته نقاشا وكانت موجهة ضد الغزالى وكان معظم المعجبين به من اليهود الذين نقلوا تعاليمه الى المسيحية اللاتينية • وهو يرى الفلسفة عملا يقره الدين ويحث عليه ، ولا يشكل خطراً على حرية الفكر سوى تعصب الجاهلين • وللدين معنى تاويلى يكشف فيه عن الحقائق الأعمق • وابن رشد يعارض ابن ماجة فى عزلة التامل وتجنب النقاش الفلسفى • كما يشارك ابن ماجة فى رفض فكرة ابن طفيل فى الوجد • ويعتبر المتكلمين السنيين كمن يهدمون المبادىء الخالصة لفلسفة أرسطو ويعد الغزالى شر هؤلاء المتكلمين «لأنه ارتد عن الفلسفة»•

وقد اشتهر ابن رشد فيما بعد باعتباره شارحا لكتب أرسطو حيث كان آخر شارح عظيم لها • وهو يدخل على دراسة ارسطو للنفس بعض التعديلات الهامة ، ويخالف الاسكندر الافروديسى فى فكرته عن العقل الهيولانى • وبابن رشد ينتهى ذلك النسق الشهير من المشائين العرب • ويمكن أن نذكر من بينهم محيى الدين بن عربى الصوفى القائل بوحدة الوجود وعبد الحق بن سعيد الذى كان صوفيا وتلميذا دقيقا لارسطو •

★★★

ويأتى الفصل التاسع عن « النقلة اليهود » الذين قدموا نظريات ابن رشد الى اللاتينيين • ويبين المؤلف دور اليهود فى تطوير بحوث العلماء العرب • ولم تاخذ الفلسفة اليهودية مكان الصدارة الا بظهور موسى بن ميمون الذى خاصم بدوره المتكلمين واعتبرهم انتهازيين فى تفكيرهم الفلسفى • ولم يكن عمل ابن ميمون ولا أى من كتاب اليهود هو الذى جعلهم ذوى مكانة فى الفكر الغربى الوسيط بقدر ما جعلهم كذلك نشر فلسفة ابن رشد • ونصل الى القرن الرابع عشر فنجد الشروح العبرية لابن رشد ويردد فلاسفة اليهود ما فى الارسطوطاليسية العربية ـ بحرية وصراحة • وشهد القرن السادس عشر الاضمحلال النهائى للرشدية اليهودية • وفيما عدا المنطق بدأت تتضاءل قيمة ابن رشد وتستخدم آراء الغزالى ضد الفلاسفة كما ظهرت دلائل الاهتمام بافلاطون من جانب الذين اطرحوا فلسفة أرسطو •

★★★

وآخر فصول الكتاب عن أثر الفلاسفة العرب فى المدرسة اللاتينية • فيذكر المؤلف أهم من نقل التراث الفكرى العربى الى أوربا وأظهر مدارس الترجمة وخصوصا فى « طليطلة » وفى جامعة نابولى الجديدة وفى صقلية •

ثم يذكر موقف « ألبرت » وتلميذه القديس توماس الاكويني من ابن رشد .

وموقف طائفة الفرنسيسكان منه أيضا وكذلك موقف الدومينيكان . كما يبين أن جامعة « بولونيا » مع شقيقتها جامعة « بدوا » ظلت الدار الحقيقية للرشدية ومنهما انتشر نفوذ ابن رشد حتى القرن السابع عشر وكان هذا بشيرا بالمذهب العقلي والاحساس المضاد للكنيسة في أيام النهضة .

وينهي المؤلف كتابه الممتع ببيان أن الطريق العمل للنقل في القرن الخامس عشر وما بعده انما يتمثل في عدوى الروح المضادة لكنيسته والتي ظهرت في شمال شرق ايطاليا كأثر من آثار الفلاسفة العرب في النهضة الايطالية ، بل ان العناصر الموالية للعرب في أيام المدرسيين كانوا هم الآباء المباشرون للعنصر المتحرر من السلطة الدينية في عصر النهضة ولو في جنوب ايطاليا على الأقل .

***

وتبقى بعد ذلك ملاحظات على الترجمة ، في بعض تفصيلاتها التي بعدت فيها عن المعنى الدقيق لمقاصد المؤلف احيانا او جاءت مغايرة لها احيانا اخرى .

وبدافع من الحرص على تقدير القارئ لآراء المؤلف تقديرا صحيحا نورد هذه الملاحظات ، موقنين - في أول الامر وآخره - بما بذله المترجم من جهد واضح في نقل هذا الكتاب الهام الى اللغة العربية .

وعلى سبيل المثال : -

● ترد في مواضع كثيرة الصفة Hellenistic وتترجم بـ « هيليني » فنجد مثلا عبارات : البيئات الهيلينية » ص ١٩(١)* و «التطور الهيليني » ص٢٠(٢) و « الثقافة الهيلينية » ص ٢٩٥ (٣٠٠) ... الخ ، وصحتها « الهيلينية » ؛ ذلك أن العصر الهيليني هو الذي يبدأ منذ الألف الثاني قبل الميلاد - فيما يرى «توينبي» - ويمتد الى موقعة « خيرونيا » Chearonea التي فقد بها اليونان استقلالهم عام ٣٣٨ق.م او بموت ارسطو عام ٣٢٢ق.م او بموت الاسكندر الاكبر الذي انتهت فتوحاته للشرق بادماج الحضارة اليونانية في الحضارة الشرقية عام ٣٢٣ ق.م. باحد هذه الأحداث الفاصلة المتقاربة ينتهي العصر الهيليني ويبدأ العصر الهيلينستي الذي وان ظلت السيادة فيه للعنصر الاغريقي أيضا في الثقافة الا أنه تميز بتغيير أساسي في منهج البحث ووجهة النظر الى مسائل الطبيعة والانسان وماوراء الطبيعة ، وظهرت فيه من المدارس الفلسفية المتميزة : الرواقية والأبيقورية والأفلاطونية الحديثة (انظر دامبير : « تاريخ العلم وصلاته بالفلسفة والدين » . كمبردج ١٩٢٩ ، وكذلك نهاية الفصل الاخير من كتاب «توينبي» : تاريخ الحضارة الهيلينية » حيث نجد التفرقة قاطعة بين اللفظين . وفي الانجليزية الصفتان Hellenic Hellenist بمعنى « هيليني » والصفتان Hellenistic ، Hellenistical بمعنى هيلينستي . ولا محل للخلط بينهما لا في تاريخ الحضارة اجمالا أو في تاريخ الفلسفة على الخصوص .

● في ص ٤٣ (٤٦) تترجم كلمة Greek « بهيليني » وصحتها «اغريقي» فصفة الاغريقي والهيليني لا تجب كل منهما الأخرى وان كان بينهما علاقة تداخل فثمة فرق من حيث تطور دلالتهما في تاريخ الحضارة . (انظر : توينبي : تاريخ الحضارة الهيلينية » .

● في ص ٧١ من الترجمة ترد كلمة « التنظيم » وصحتها « التنجيم » Astrology ولعلها خطأ مطبعي .

● في ص ١٤٥ (١٣٢) يقول المترجم « ويبدو ان كل انظار المعتزلة أثر من آثار الفلسفة الاغريقية في تطبيقها على التوحيد الاسلامي » . ترجمة للعبارة الآتية :

«The whole course of Mu'tazilite speculation shows the influence of Greek philosophy as applied to Muslim theology».

والأدق من ذلك أن نقول : « ويفصح النظر المعتزل باسره عن أثر الفلسفة الاغريقية على نحو ما طبقت في علم الكلام الاسلامي » .

● وفي ص ١٤٧ (١٣٥) يقول المترجم : « ان الشروح السريانية التي استخدمت خاصة بين السوريين لم تحدد اتجاه الفكر العربي أبدا » . وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«The particular commentaries used amongst the Syrians never ceased to control the direction of Arabic thought».

والترجمة الصحيحة هي : « ان الشروح التي استخدمها السريان خاصة لم تكف مطلقا عن أن تحدد اتجاه الفكر العربي » .

● في ص ٢٠٠ (٢٠٦) تترجم كلمة Mystic بزهاد والأصح أن نترجمها صوفية خاصة وان باللغة الانجليزية كلمة Ascetics بمعنى زهاد . وفرق كبير بين الكلمتين من الناحية التاريخية والموضوعية في الحياة الروحية الاسلامية .

● في ص ١٤١ (١٢٧ - ١٢٨) يقول المترجم : « يقول معمر ان الله يخلق الجواهر والأعراض » . ترجمة للعبارة :

«Ma'mar describes God as creating substances but not accidents».

وصحة الترجمة هي : « يصف معمرا الله باعتباره خالقا للجواهر من دون الأعراض » .

● في ص ١٠٢ (١٠٣) نجد عبارة « الفلسفة الاسلامية الاولى » ترجمة لـ

Older Muslim con ception

وصحتها : « التصور الاسلامي الاول » خاصة وأن المؤلف ينكر أصالة الفلسفة الاسلامية ويختار تعبيرات محددة عن قصد .

* الأرقام الواردة بين قوسين هي أرقام الصفحات في الأصل الانجليزي طبعة سنة ١٩٣٩ نيويورك .

● فى ص ٢٦٣ (٢٥٧) يقول المترجم عن « العقل الهيولانى » : « وهو غير حادث ولكنه قابل للفساد ومن ثم يشبه العقل الفعال فى بعض نواحيه » . وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«It is engendered, it is incorruptible, and so in a sense resembles the Agent intellect».

والترجمة الصحيحة : « وهو غير حادث وغير قابل للفساد ومن ثم يشبه العقل الفعال بمعنى من المعانى » .

● فى ص ٢٣٢ (٢٢٤) يسقط المترجم القسم الثالث والهام من جوانب فكر الغزالى على نحو ما يلخصه « ماكدونالد » وهو : « انه اخضع الفلسفة للعقيدة » .

● فى ص ١٩٩ (١٩٠) يقول المترجم : « وربما لا نستطيع حين لا نتكلم عن الصوفية ان ننسب أى تأثير فيهم للديانة الزرادشتية نفسها » . وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«In connection with the Sufis probably we can not refer any influence to the Zoroastrian religion proper».

وصحة الترجمة ما يلى : «وربما لا نستطيع أن نشير الى تأثير الديانة الزرادشتية ذاتها على الصوفية المسلمين».

● فى ص ٢١١ (٢٠٢) يقول المترجم : « ومحل ذلك مستحدث » ومن ثم قوبل بمعارضة صريحة ، وكان اغلب المعارضة بدون شك يرجع الى ان هذه المستحدثات منسجمة مع النغمة المتزنة التى فى الاسلام السلفى » . وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«All these were «Innovations» and as such met with definite opposition, mostly, no doubt, because they were repugnant to the Sober tone of traditional Islam».

والترجمة الصحيحة هى : « وكل هذه الأمور كانت من المستحدثات » التى قوبلت – من ثم – بمعارضة صريحة تماما ، ذلك انها كانت بغيضة – غالبا – بالنسبة الى نغمة الاسلام السلفى المتزنة دون ما ريب » .

● فى ص ٢٢٥ (٢٥٣) يقول المترجم – عن ابن رشد – « وهو يرى أن مهمة الفلسفة أن تبرهن على حقائق الدين وتؤيدها لأن القرآن يعرض ما امر الله به الناس من البحث عن الحق » . وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«He maintained that the task of philosophy was one approved and commended by religion, for the Qur'an shows that God commands men to search for the truth».

والترجمة الصحيحة هى : « ويرى ابن رشد ان الفلسفة عمل اقره الدين وحث عليه ، فالقرآن يظهرنا على ان الله يامر عباده بالبحث عن الحق » .

● فى ص ٢٩١ (٢٨٦) يورد المترجم ترجمة لرأى يهاجمه القديس توماس الاكوينى ، فيقول : « انه كان ثمت عناية خاصة تحكم هذا العالم وتوجهه » .

وصحة الترجمة : أنه ليس ثمة عناية خاصة تحكم هذا العالم وتوجهه .

● فى ص ١٣١ (١٤٤) يقول المترجم : « لأن الارادة هنا تتوقف على شىء مخلوق » وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«In such case the will exists in time and is created for it depends upon a created thing».

وتمام ترجمة العبارة هو : فى هذه الحالة تكون الارادة موجودة فى الزمان ومخلوقة لأنها تتوقف على شىء مخلوق » .

● فى ص ٣١ (١٣) يقول المترجم – عن افكار « فيلون » اليهودى : « وهى تمثل ايضا اتجاها يهوديا ، ان لم يبدأ من نقطة بداية توحيدية فقد كان حينئذ تحت نفوذ هيلينى » . وذلك ترجمة للعبارة الآتية :

«They represent also a Jewish attitude which starting from a monotheistic standpoint was then, under Hellenistic influence».

والترجمة الدقيقة لتلك العبارة هى : – « وهى تمثل أيضا اتجاها يهوديا ، وان كان يبدأ من نقطة بداية توحيدية فانه كان واقعا تحت النفوذ الهيلينستى » .

● فى ص ١٥٤ (١٣٢) يقول المترجم : « وقد اعترف أن لفظ « شىء » يدل على فكرة يمكن ان تعرف وان يخبر عنها بتركيب نحوى » . والأفضل ترجمة هذه العبارة بما يلى : « ولقد أصبح مقررا أن كلمة «شىء» انما تشير الى مفهوم يمكن معرفته ويصلح ان يكون موضوعا لمحمول » .

● وفى ص ٢٠٣ (١٩٤) يترجم قول المؤلف عن أبى يزيد البسطامى بما يأتى :

« ان الله محيط لا قرار له ..... وهو العرش واللوح المحفوظ والقلم والكلمة وكلها صور صورها القرآن ، وموسى وعيسى وجبريل ، لأن كل كائن حقيقى لا بد أن يتحد مع الله ويصبح واياه واحدا » .

والترجمة الصحيحة هى : « ان الله محيط لا قرار له . وأبو يزيد يرى أنه – هو نفسه – اللوح المحفوظ والقلم والكلمة – وكلها صور مأخوذة من القرآن ، وانه ابراهيم وموسى وعيسى وجبريل لأن كل ماله وجود حقيقى يكون مندمجا فى الله ويصبح واياه واحدا . »

ويؤيد هذه الترجمة ما يروى فى متفرقات الاخبار الصوفية عن أبى يزيد البسطامى وذلك نحو قوله – الذى أورده فريد الدين العطار – : « من أن أبا يزيد سئل ما هو العرش ؟ فأجاب : أنا هو ! وما هو الكرسى فأجاب: أنا هو . وما هو اللوح والقلم ؟ فأجاب : أنا هو . » (« تذكرة الأولياء » ج ١ ص ١٧١) هذا الى أن أبا يزيد يعد من القائلين بنظرية « الاتحاد » الصوفى لا « وحدة الوجود » .

● والمترجم لا يستقر على ترجمات محددة لكثير من « المصطلحات » الفلسفية فى مواضع عدة من الكتاب ، فمثلا : فى ص ١٤٤ (١٣١) نجد ترجمة واحدة بعينها

للكلمتين essence and subject هى : «ذات» وذلك فى سياق واحد على حين نجد كلمة subject تترجم فى ص ١٤٥ (١٣٣) بـ «مادة» • وفى نفس الموضع وما قبله نجد كلمة essence تترجم بـ «ذات مرة» و «جوهر» مرة أخرى ، بينما تترجم الكلمة نفسها ص١٤١ (١٢٨) بـ «مادة» وفى ص ١٥٣(١٤١) تترجم كلمةMatter بـ (هيولى) وفى ص ١٤١ (١٢٨) بـ (مادة) • وفى ص ٣٥ (١٧) نجد ترجمة واحدة هى (العقل) للكلمتين Spirit and intellect على حين تترجم كلمة spirit بـ «النفس الناطقة» مرة و «الروح» مرة أخرى ص ٤٨ (١٣٠) • ونجد فى ص ١٤١ (١٢٨) ترجمة لكلمة substance بـ «جوهر» على حين انها تترجم بـ «مادة» فى ص ١٤٤ (١٣١) وما بعدها •

ولقد كان من الممكن أن يلتزم المترجم بتحديدات واضحة لمثل هذه المصطلحات منعا للبث فى فهم معناها خاصة وأن للألفاظ هنا شأنا كبيرا • وبوسعنا أن نستقر – فى هذا الصدد – على الترجمات الآتية : subject = موضوع ، Matter = مادة ، Hule الهيولى أو لأصل المادة) ، substance = جوهر ، accident = عرض ، essence = ذات ، spirit = النفس الناطقة ، soul = الروح ، reason = العقل ، Intellect = الذهن •

(وان كان قد حدث تطور فى مصطلح العقل خلال تاريخ الفلسفة حيث كنا نجد مثلا Agent Intellect أى العقل الفعال Passive Intellect أى العقل المنفعل أو الهولانى الا أن التقدم الحاصل فى ميدان البحوث النفسية والفلسفية على السواء يستوجب الآن الفصل بين مصطلحى : Intellect, reason

ملحوظة :

استفدنا فيما أثبتناه من تعليقات بما ورد فى الكتب الآتية :

• ابن رشد : – « فصل فى المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » •

– الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » •

• أبو ريدة ، محمد عبد الهادى • د• : « ابراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية » القاهرة ١٩٤٦

• توينبى ، أرنولد : « تاريخ الحضارة الهيلينية» ترجمة : « رمزى عبده » القاهرة ١٩٦٣ •

• الجرجانى ، عبد الظاهر : « دلائل الاعجاز » تحقيق الشيخ محمد عبده والشنقيطى – القاهرة ١٣٣١هـ

• دى بور : «تاريخ الفسلفة فى الاسلام» ترجمة وتعليق الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة • القاهرة ١٩٥٧ •

• دينيه ، اتيين : « محمد رسول الله » ترجمة : د• عبد الحليم محمود • القاهرة ١٩٥٦ •

• زهدى جار الله : « المعتزلة » القاهرة ١٩٤٧ •

• السيوطى ، أبو بكر : « أسباب التنزيل » القاهرة ١٣٨٢هـ •

• الشهرستانى : « الملل والنحل » تحقيق فتح‌الله بن بدران • القاهرة ١٩١٠ •

• الطوسى : « اللمع » القاهرة ١٩٦٠ •

• عبد الحليم الجندى : « أبو حنيفة – بطل الحرية والتسامح فى الاسلام » • القاهرة ١٩٤٥ •

• العقاد ، عباس محمود : « الفلسفة القرآنية »• القاهرة ١٩٦٢ •

• الغزالى ، أبو حامد : «احياء علوم الدين» • جـ ٤ القاهرة ١٢٩٦هـ •

– « المنقذ من الضلال » • القاهرة ١٩٦٤ •

• القشيرى ، عبد الكريم : « الرسالة » القاهرة ١٩٥٧ •

• كارليل ، توماس : « البطولة والأبطال » ترجمة: محمد السباعى •

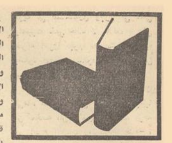
• كراوس ، بول : « المختار من رسائل جابر بن حيان » القاهرة ١٣٠٤هـ •

• الكندى ، يعقوب أبو يوسف : « رسائل الكندى الفلسفية » تحقيق وتقديم وتعليق د• محمد عبد الهادى أبو ريده •

• الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)

● Dampier. W.C. «*A Short History of Science*», Cambridge 1929.

● Sarton «*Introduction to the History of Science*», Washington, 1927.



المكتبة العربية



مذكرات جيفارا عن الثورة الكوبية

محمد سامي فريد

أخيرا تتاح للقارىء العربي فرصة الاطلاع على مذكرات جيفارا عن الثورة الكوبية في الكتاب الذي أصدرته دار الكاتب العربي بهذا العنوان . والكتاب مجموعة مقالات ظهرت أول الامر في صحيفة « بوهيميا » الكوبية، وهي صحيفة القوات المسلحة هناك ، مضافا اليها بعض مقالات اخرى ظهرت قبلها أو بعدها وضمها أيضا هذا الكتاب . والمذكرات زاخرة بحشد هائل من التفصيلات الدقيقة ، وأسماء الاماكن والاشخاص والتواريخ ووصف المعارك حتى ليكاد القارىء يفقد لكثرتها الخيط الدقيق الذي يربطها جميعا بعضها مع بعض، وهو شخصية جيفارا نفسه .. الثائر والانسان .

وربما تساءلنا عن الدافع الذي حدا بجيفارا الى كتابة هذه المذكرات .. ويجيب علينا جيفارا في مقدمة كتابه :

لقد فكرنا في وسيلة نكتب بها تاريخ ثورتنا بشكل لا نهمل فيه اي وجه من وجوهها المتعددة ، ولقد أبدى قادة الثورة رغبتهم في كتابة هذا التاريخ سواء في الاحاديث الخاصة أو الجماهيرية، ولكن المشاغل كثيرة، والسنوات تمر وتضيع معها ذكريات الصراع وسنة ضباب الماضي دون أن تدون بوضوح حوادث تعتبر جزءا من تاريخ امريكا » .

من ٢ ديسمبر ١٩٥٦ تاريخ نزول الثوار من المركب جرانما وحتى أول يناير ١٩٥٩ تاريخ استيلائهم على العاصمة هافانا فترة حفلت بالوان الصراع المر من أجل المبدأ ، دارت فيها أروع المعارك فوق قمم « السييرا ما يسترا » وعرفت الخيانة والتضحية والفشل والنجاح .

ومذكرات جيفارا عن هذه الفترة ليست شهادة رائعة فحسب من واحد ممن عاشوا احداث الثورة الكوبية ساعة بساعة منذ نزلت جماعة كاسترو على شاطىء « لاس كولورادوس » ، وحتى تم لها النصر على جيش نظامي قوامه ٥٠ الف رجل سلحه الامريكيون بالرشاشات والدبابات والطائرات بعد عامين من حياة التشرد والمخاطر ، قدر ما هي تحليل دقيق وصادق لشخصية كاتبها ، ذلك الثائر الرومانسي على حد قول سارتر في كتابه « عاصفة على السكر » .

ذكريات نابضة بالانفعالات تشدنا منذ الوهلة الاولى بساطتها وصراحة كاتبها وتواضعه ، فهو هنا لا يصف بطولاته ، بل على العكس يقدم مجموعة أخطائه ويعترف بها .. فهنا ارتكب جنونا بوضع أسلحة جماعته بين يدى فلاح خانه ، وهناك كاد أن يقتل بين رجاله أنفسهم بعد أن لبس خوذة واحد من الاعداء ، ومرة ثالثة عندما يسمح لأحد الاسرى بزيارة والدته المريضة كما ادعى يرافقه اربعة من الثوار يقتلهم جنود باتيستا ، ويشي الاسير باسماء الفلاحين الذين يتعاونون مع الثورة فيقتلهم جنود باتيستا بالمثل. ويعترف جيفارا نادما بهذه الخطيئة قائلا : « لقد كلفت خطيئتي هذه شعب كوبا كثيرا من الضحايا » .

***

ومنذ أن تبدأ مذكراته ، وربما جاز لنا أن نسميها اعترافاته ، لايرى جيفارا عيبا أن يصف رفاقه والحال التي كانوا عليها ، فها هم فوق ظهر « الجرانما » ذلك المركب العتيق الذي أقلهم عبر الكاريبي « رجال وجوههم كالحة من الخوف والقلق ، يمسكون بطونهم بايديهم من الغثيان » . ثم يصفهم لحظة نزولهم الى الشاطىء : « أخيرا وصلنا الى البر مبتل الثياب نتعثر في سيرنا بلا هدف واضح .. لقد كنا جيشا من الظلال والاشباح » . ثم يبدا سيرهم الرهيب نحو قمة الجبل ، سيرا متقطعا تتخلله حوادث الاغماء والدوار وتوقفات الاستراحة حتى وصولهم الى « اليجريا دوبيو » حيث دارت أولى معاركهم مع قوات باتيستا ديكتاتور كوبا في ذلك الوقت .. والتي لاقوا فيها هزيمة منكرة أدت الى تشتتهم في الغابات حتى التقت جموعهم مرة أخرى بعد سير منهك ، ولم يكن عددهم يتجاوز العشرين من الجياع والمرضى والجرحى العزل من السلاح تقريبا . يقول هو عنهم : « كان معظمهم من الجنود الذين لم يسبق لهم الاشتباك في أي قتال حقيقي » .

وفي هذه المعركة « اليجريا دوبيو» يسال جيفارا نفسه عن دوره في الثورة : هل يكرس نفسه للعمل كطبيب ، او لواجبه كجندي ، لكنه يواجه هذه العضلة بشكل عملي يحسم موقفه « كان امامي كيس مملوء بالادوية وصندوق ذخيرة، وكان وزنهما يمنعني من حملهما معا ، فحملت صندوق الذخيرة وتركت كيس الادوية » .

على ان هذا لا ينسيه واجبه ايضا كطبيب يعالج رفاقه من حين لآخر كلما دعت الحال « كانت مهمتي كطبيب معالجة اقدام المقاتلين » واكثر من هذا انه كان ايضا مستشارا للثوار «كانت مهمتي اليومية ان احدد الحالة النفسية او الثقافية او السياسية للرجال » وكان معلما وموجها سياسيا لهم ... فها هو يعلم احد الفلاحين القراءة والكتابة في لحظات الراحة القليلة بين المعارك ، ويقول عن آخر : « ولقد توليت عملية توجيهه (سياسيا) حيث ان هذا النوع من العمل كان من اختصاصي » .

لكن جيفارا لم يقصر خدماته على رفاقه فقط، فكان كلما مر الثوار بقرية يقوم بواجبه كطبيب في عيادة المرضى من اهلها ، وهنا تتكشف له مأساة هؤلاء الناس الذين استهلكتهم حياة السخرة وعانوا من الاجهاد وسوء التغذية ، فهو يحس بآلامهم ، ومن آلامهم تتشكل عقيدته الثورية . يقول : « من هنا ، وسط هذه المآسي نما ايماننا بضرورة اجراء تغيير جذري في حياة هذا الشعب ، كما زادت اهمية فكرة الاصلاح الزراعي » . هنا يتم التلاحم بين الثورة وجماهير الشعب .

على اننا يجب الا نغفل دوره كمقاتل قام بواجبه في كل المعارك التي خاضها الثوار من « اليجريادوبيو » الى معركة « لابلاتا » وفيها يتحقق للثوار اول انتصار يثبت ان جيشهم لم يكن خرافة ، وانه مصمم على القتال ، ثم معركة « غدير الجحيم » التي رفعت معنوياتهم الى حد كبير ، واعطتهم الشجاعة لمتابعة التقدم ، حتى معركة « اوفيرو » الحاسمة التي خرج الثوار منها وهم يملكون سر الانتصار على عدوهم بعدما اضطر الى اخلاء كل مناطق الشواطيء المحيطة بالسييرا .. « كان هذا الانتصار بالنسبة لنا حاسما ادخل ثورتنا في دور النضج ، ورفع معنوياتنا بشكل كبير ، واصبح تصميمنا على النصر اقوى من اي وقت مضى » .

وجيفارا ، وان يكن ادى واجبه في هذه المعركة وغيرها لا يخجل من الاعتراف بفشله شخصيا في الهجوم على « بوئيستيو » واعترافه بفشله هنا دليل شجاعة لا تتوافر الا لمثله . يقول : « لم يكن اشتراكي في المعركة باهرا ، ولم يتصف بالعنف او الشجاعة» . وهو في معركة «هومبرتو» يعترف بكل شجاعة ايضا بنقص استعدادهم للقتال .. « واثبتت لنا هذه المعركة ان استعدادنا للقتال كان ناقصا » ، ورغم انتصارهم في هذه المعركة نراه يعلق عليها بقوله «وهكذا انتصرنا على العدو انتصارا صغيرا» . وفي معركة اخرى يعترف ان نقص درايتهم وقلة خبرتهم قد فوت عليهم فرصة الحصول على اسلحة من العدو هم في امس الحاجة اليها .. «وبما ان (رفيقنا) فيلكس كان يجهل ماهية هذه الاسلحة - ونحن لم نكن نعرف اكثر منه - فانه تركها وانسحب » . وجيفارا المقاتل يحلل كل معركة عقب الانتهاء منها ، ويحدد الاخطاء التي وقعوا فيها ليتفادوها في معركتهم المقبلة .

يقول في تحليله لمعركة « بينوديل آجوا » :

« لقد كان من الممكن الاستفادة من عامل المفاجأة .. كما ان الامر الذي صدر بالتراجع بعد بدء الاشتباك كان خاطئا .. ولوحظ عدم توفر الاندفاع الكافي والسلاح الفعال .. كما ان الانسحاب النهائي تم بفوضى كبيرة » . ثم هو يخرج من المعركة بدرس مستفاد « كل هذا يؤكد لنا ضرورة رفع مستوى الاستعداد القتالي وتطوير الانضباط في قواتنا » .

وهو كغيره من المقاتلين يصاب في احدى المعارك . ويصف شعوره لحظة اصابته قائلا : « واحسست بصدمة قوية في صدري وجرح في عنقي واعتبرت نفسي هالكا لا محالة» . وفي معركة اخرى تجرى له عملية جراحية بشفرة حلاقة لاستخراج رصاصة من ساقه .

على اننا نلتقي ايضا بجيفارا الانسان في هذه المذكرات التي تكشف لنا جانبا من شخصه المرح الذي لا يفارقه مرحه في احرج الاوقات واشدها قتامة ، فها هو يضطر للعمل طبيبا للاسنان وهي مهنة لم يعرفها قبل الثورة .. يقول عن تجربته في خلع اسنان احد رفاقه :

«..وباءت محاولتي معه بالفشل رغم انني استخدمت كل الاساليب الممكنة، ولم يعد امامي سوى ان اضع اصبع ديناميت بجانب نابه لخلعه .. وانتهت الحرب ولكن هذا الناب العتيد لم يتزحزح من مكانه » .

لكن جيفارا ، ذلك الثائر الرومانسي الذي يثور على احد جنوده ويؤنبه لقتله واحدا من الاسرى، يتولى الدفاع بكل حماس عن رفيق آخر اتهم بقتل احد زملائه ، والاغرب من هذا انه يتولى التحقيق بنفسه مع احد الفلاحين وكان منضما للثوار ثم هجرهم « بعدا عن المتاعب » ويقرر اعدامه !

يقول في تعليقه على هذا الحادث : « هل كان اريستديو مذنبا حقا لدرجة يستحق معها الموت ؟ افلم يكن هناك مجال لانقاذ حياته التي وضعها في الثورة في المراحل الاولى لبنائها ؟ » .

ويجيب مبررا سلوكه « ولكن الحرب قاسية اليمة ، وفي الاوقات التي يضاعف العدو فيها نشاطه يصبح من الصعب التساهل والتسامح حتى ولو كان هنالك شك او تخمين بوجود الخيانة » .

وهو في مرة اخرى يقرر اعدام بعض افراد من قطاع الطريق ارتكبوا عدة جرائم قتل وتعذيب الفلاحين ، واغتصب احدهم فتاة مدعيا صفة « مبعوث » من قبل جيش الثورة .. يحاكمهم جيفارا ويقرر اعدامهم حفظا لاسم الثورة من التلوث ، وها هو يقرر ايضا اعدام احد رفاقه القدامى، وكان زامله في مرحلة من مراحل

الثورة ، لانتحاله شخصيته كطبيب واغتصابه احدى الفلاحات وكانت مريضة بحاجة الى علاج سريع • هنا تصبح القسوة ضرورية حتى تظل الثورة عملا طاهرا نقيا لا تشوبه شائبة •

وجيفارا فوق هذا وذاك ثورى بالمعنى الكبير للكلمة ، آمن بوحدة الثورة على امتداد القارة الامريكية ، ورأى فيها حقيقة لا تتجزأ ، وحدت بينها اللغة والثقافة والماضى ، كما وحد بينها الالم والعار تحت نير السيطرة الاجنبية : الاسبانية ثم الامريكية •

وليس أدل على عقيدته تلك من أنه، وهو الارجنتينى ، قد اشترك فى الثورة الفاشلة فى جواتيمالا ، ثم انضم بعد ذلك الى صفوف الثوار الكوبيين ، وما ينسحب على جيفارا ينسحب على كاسترو ايضا ، فهو مثله قد اشترك فى محاولة القيام بانقلاب فى بوجوتا مع الثوار الكولومبيين ، وأعلن أكثر من مرة انه لولا مسئولياته كرئيس للحكومة لاختار الصراع المسلح لتحرير البلاد الشقيقة • وجيفارا يؤمن بحتمية الثورة ، وبحتمية انتصارها على الامبريالية الامريكية « وفى بلاد عديدة من امريكا اللاتينية باتت الثورة حتمية •• وتعود هذه الحتمية الى ظروف الاستغلال الرهيبة التى يعيش فيها الانسان الامريكى ، ونمو الوعى الثورى عند الجماهير ، وأزمة الامبريالية العالمية وحركة النضال الشاملة للشعوب المستعبدة » •

ففى كوبا ، استطاعت الجماهير أن تتحرر من الاستعمار الاسبانى بعد صراع دموى استمر ثلاثين سنة ، لكنها تسقط فى براثن الاستعمار الامريكى • وتقع كوبا فريسة لاستعمار من الخارج ، وحكم ديكتاتورى عميل فى الداخل ، وأحزاب سياسية ضعيفة لا هم لها الا الاستيلاء على السلطة • وتعم الفوضى المجتمع الكوبى الى أن يلتقى كاسترو بجيفارا فى المكسيك ويعدان معا للثورة التى اطاحت بالفساد داخل كوبا وحاربت وما تزال التدخل الامريكى فى شئونها ، واخذت على عاتقها اعادة بناء المجتمع الكوبى بناء ثوريا صحيحا يشترك فيه الشعب كله • والبناء الثورى كما يراه جيفارا لايتم الا بجهود جماهير الشعب المخلصة •• اما دور القادة والطلائع الثورية فهو تنمية ما فى كل فرد من هذا الشعب من منازع نبيلة ، وتحويل كل مواطن الى ثائر •

ويبقى دور الثورة ذاتها والوسائل التى تتخذها لتحقيق هذا الدور •• يرى جيفارا أن الثورة « كالطبيب الذى يساعد على مولد حياة جديدة ، انه لا يستخدم بلا مبرر وسائل الولادة القسرية ، ولكنه لايتردد فى استخدامها كلما اقتضى المخاض ذلك • ذلك المخاض الذى يحمل للجماهير المستعبدة والمستغلة الامل بحياة جديدة » •

والامل فى الثورة الكوبية كان تنفيذ الاصلاح الزراعى بصورة كاملة «لايبقى معها فلاح واحد بلا أرض ، ولا تظل معها ارض مهجورة بلا فلاح » •

فاذا نجحت الثورة فى تحقيق هذا الامل تكون قد أنجزت مهمتها التاريخية التى وجدت من اجلها •

تباريح الشباب

بيروت - دار الثقافة ١٩٦٥

اسماعيل مظهر

بقلم : علاء الدين وحيد

ظاهرة يقف القارىء ازاءها حائرا لا يدرى كيف يعلل بواعثها وهى تجاهل الحياة الفكرية لبعض كبار مفكرينا وادبائنا ، تجاهلا معيبا مخجلا

أين هى الدراسات الشاملة عن عبد الرحمن شكرى واحمد أمين وزكى مبارك ومحمد مندور وعلى الجارم ومحمد حسين هيكل واسماعيل مظهر ولطفى جمعه وغيرهم • وتبلغ هذه الظاهرة حدها مع من غادروا الحياة منذ سنوات قلائل كانوا فيها ملء النظر والسمع • فهل هو الجمود أوانغماس الاحياء فى الحياة ، أو ايثار أدباء الاجيال الجديدة الكتابة السريعة التى لا تتطلب بحثا ولا جهدا •

هذه كلمة لا بد منها ازاء تجاهل الحياة الادبية لكتاب ظهر حديثا وصمتت عنه الاقلام ، لاسماعيل مظهر •• هذا الرجل الذى خلف وراءه ذخرا اسهم وما يزال فى اثراء الفكر والعلم والادب فى بلادنا •

وتجىء اهمية (تباريح الشباب) - كتاب اسماعيل مظهر الذى نحن بصدده - من انه اضافة لفن السيرة الذاتية فى أدبنا الحديث ، هذا الفن الذى لا يتمثل فى (الايام) لطه حسين و (حياتى) لاحمد امين و (سجن العمر) لتوفيق الحكيم •• اما (تباريح الشباب) فتقتصر على عنصر واحد لا تعدوه هو الحب •• فاعترافات مظهر تتبلور بالدرجة الاولى فى قصة حب من أيام الشباب ••• تقدم نبضات قلب واحدى التجارب العاطفية فى حياة هذا الرجل الذى عرف بالعنف فى الدعوة لآرائه أو الهجوم على معارضيه سنوات طويلة ، والتى تبدو صورته للقارىء ، صارما

قاسيا تحيطه هالة من التبجيل فى نفس الوقت .

واذا تساءلنا عن منهج اسماعيل مظهر فى (تباريح الشباب) - وهو اعترافات تروى أول هوى عصف بقلبه ومأساته حينما اغتال الموت شباب حبيبته ، لوجدنا انه لا يقيم اعترافاته هذه ، او قصة حبه ، على خطوط هندسية باردة ، او يضعها فى قالب صارم ذو مسالك تقليدية معترف بها فى اقامة الاشكال الفنية ، وانما هو يترك نفسه على سجيتها . وليس معنى هذا انه تحرر تماما من القواعد ، فهو يعرف أن الفن الحقيقى لا بد أن يحده قيد ما ، وانما يعنى مقاومته كفنان ثائر لزحف التكنيك على انتفاضات الموهبة الفطرية . فهو يقطع السياق مثلا لتعقيب فلسفى او لانخراط فى تداعى أفكار ، ويتمثل هذا التحرر أيضا فى البدء فى تحويمه حول ترجمته، اذ لم يتقدم مباشرة الى هدفه، فكانت انتقالاته السريعة فى موضوعات شتى ..

وشىء آخر يعكس هذا التحرر النسبى الذى اتخذه كاتبنا ، فى رسم لوحات صباه وشبابه وتجاربه ، وهو اتخاذ زاوية معينة - لا أظن أن « مظهر » اصطنعها اصطناعا وانما جاءت عفوا بحكم السن التى كتبت فيها هذه الترجمة الذاتية - ينظر بها الى أحداث الماضى .. هذه الزاوية هى السن المتأخر بكل ما يحمل من عصارة حياة وتجارب .. ويجب هنا أن نذكر جيدا حيوية اسماعيل مظهر الذهنية والوجدانية حتى وفاته ، خوفا أن ينزلق بنا الفهم الى ما تكون عليه الشيخوخة عادة من برود وهمود وجمود يفرضه الاقتراب من القبر وفقدان حب العيش ومعاداة الحياة . ماأعنيه اذن فى هذا الموضوع من منهج مظهر فى (تباريح الشباب) انه لم يرتد صبيا وشابا يكتب من خلال انفعالات الصبى والشاب اللذين كانهما ، وليقدم الينا فى الوقت ذاته الانعكاس الصادق الامين لمرحلة من العمر لها سماتها الخاصة التى لاتتكرر .. وهكذا عرض علينا اسماعيل مظهر فى معظم الاحيان ، أيامه المبكرة ، بنظرة ناضجة لم يكن فيها الصبى الصغير أو الشاب العاشق ليستطيع أن يدركها بهذا الشكل المستوعب الشامل الذى فعله بعد ذلك بنصف قرن تقريبا ، فهو مثلا خلال اجتياز شابنا الصغير لابهاء القصر ونافوراته وسقوفه ذات النقوش الفرعونية أو القوطية أو العربية يبلور مشاعره بما يشبه السحر ، لينتقل من وثنية مصر القديمة الى نصرانية روما ، ثم الى سماحة الاسلام ، كأنما هو فى جولته هذه روح تطير عبر القرون !! (ص ٢٦) .

* * *

ومنذ اللحظة الاولى والقارىء يدرك ان فناننا لا يريد أن تنبت الصلة بين غرامه وبين الحياة - وكأنها النظرة الكونية الشاملة التى يريد « مظهر » بطريق غير مباشر أن نستوعب فلسفتها - ورغم أنه اختار القصر الذى ولد فيه مسرحا لمعظم أحداثه ، فانه منذ اللحظة الاولى يربط بين ما يجرى داخله وما يقع خارجه . ولهذا فقد جعل القصر نموذجا مصغرا ولكنه جد دقيق للحياة كلها طولا وعرضا ينعكس فيه فلسفته وفهمه للاشياء ووجهة نظره ومثله ومبادئه . ومن هنا جاء انفراد هذه الترجمة الذاتية باقتصار دنياها على حدود الدار الكبيرة التى تستوعب هذه الاسرة الكبيرة . ففى داخل هذا القصر تجرى الحياة الانسانية كما تضطرب خارجها سواء بسواء مستوعبة طبائع الاشياء ، كلياتها وجزئياتها معا . فاذا هى تلتزم بمجريين بعينهما - وهما اللذان يشكلان فى خارج القصر قانون الحياة أيضا - .. ان اختلفا - كما يقول مظهر - فانهما لم يفترقا ، وان ضعف أحدهما واستكان ، لم يتخلف صاحبه . احدهما مجرى ضيق عميق جدا .. والآخر واسع جدا ضحل جدا .. الاول مجرى شقه العقل ، والثانى مجرى شقته الشهوة . العقل الذى ربب الفكر والحرية والفضيلة والمثل العليا والدين . والشهوة التى ربيت الظلم والجور والقتل والطماعية وحب التسلط فى رقاب الناس ، استجابة لنزعة الكبر ومباشرة السلطان الغاشم وتحصيل لذة الملك لذات فانية .

وتستثير أعماق اسماعيل مظهر بهذا الادراك لما بين هذين العالمين من وثيق الصلات الى درجة التطابق ، استثارة قوية تجعله يلتفت الى السمات المشتركة ويستخلصها من عشرات الاشياء المحيطة .. والامثلة كثيرة نكتفى منها بهذه اللوحة التى تندمج فيها دنيا خارج القصر بداخله .. فبينما كانت الجدة قد فرغت من بضع ركعات شكرا لله على نجاح ابنتها فى ولادة طفلها - اسماعيل مظهر نفسه - واخذت تتهجد ولسانها يقدم الحمد الى الله « تجاوبت جنبات تلك الدنيا الصغيرة بأصداء صادرة عن صوت المؤذن يردد آذان الفجر من مأذنة جامع أم السلطان شعبان مرسلا بنجواه تشق أجواز الفضاء .. يا رب كتبت رحمة الناس عليك منا وكرما ، والمرجع والمآل والكل اليك عربا وعجما .. » .

وهكذا بين جدران القصر تبدت للطفل لاول مرة العواطف الانسانية تجسدها أحداثه ، ورغم كثرة الاحداث الضخمة التى سيلقاها صاحبنا بعد ذلك فى حياته الحافلة الطويلة ، فقد ظلت هذه الاحداث الاولى التى لقيها فى طفولته وشبابه بين جدران القصر بمثابة « الام » لكافة هذه الاحداث وكأنها لون آخر من الوراثة يجرى عنصره فى الدماء . فهذه الصلة الحميمة بين الاحداث الاولى وبين اسماعيل مظهر ، هى التى عكست هذا الضرب من الاسى العميق الذى غشى كاتبنا فى شيخوخته وهو يمسك بالقلم ويدون ذكرياته ، وجعلته يكتب فى شجن عما آنس فى القصر من ألوان الحياة وصور التجارب .. وهى التى جعلته أيضا يحفظ فى آمن مكان فى أعماقه صور هذه الايام المبكرة من حياته بكل دقائقها وألوانها وخطوطها ، فيسارع الى استحضار معالمها كلما عن له ذلك أو هزته الذكرى .

واذا كان اسماعيل مظهر قد اختار الحياة داخل بيته كانعكاس للحياة خارجه ونموذجا لها فى مجالات العواطف والمشاعر التى توقعها الاحداث المختلفة ، فلا يعنى هذا ان كاتبنا قد استسلم لميدان تحليل النفس البشرية يتناول أغوار الشخصيات السحيقة مغفلا ما عداه . وهكذا لم تقتصر الصور

التى قدمها المؤلف على لون واحد ، بل اتسعت لاكثر من لون فى أكثر من مجال • من هذه الالوان ، تجسيد غير قليل من مظاهر الحياة المصرية فى هذه الحقبة التى تقع فيها الاحداث (ولد مظهر عام ١٨٩١) مثل اعتقاد الناس بالاسياد والكرامات واخواننا أهل الارض ، وقداسة ساكنى القبور ••

« بيئة اعتقد أهلهاأن الله سبحانه، قد نزل عن سلطانه الى قلة من أهل الكرامات وأهل البيت ، وبضعة أشخاص لا تعرف لهم صلة بالله ولا بملائكته ولا برسله ، فمن هو ذلك المتولى (حمال الحمول) ، والذى اتخذ من باب زويلة ، ومساميره الكبار ، مكتبا يتقدم اليه أهل الشكايات وأهل الامراض بخرق تقطع من ثيابهم • وترتبط فى تلكالمسامير الغلاظ فتكون وسيلتهم اليه ، ويكون هو وسيلتهم الى الله ؟ ومن هو قلاوون فى عالم القربى الى الله ، ليكون مفتاحه بقدرة قادر ، بديلا من كل قوى الارض فى رد العقول الى الذين فقدوا عقولهم ؟ وهكذا عاش أهل ذلك الزمان فى جو من العقائد التى لم يقم على صحتها دليل عرفته الارض أو أوحت به السماء • » •

ولا يمكن لمن يتحدث عن (تباريح الشباب) أن يغفل الحديث عن طائفة معينة — تنولها المؤلف فى غير قليل من الصفحات والمواضع — كانتتشترك فى تشكيل ملامحالحياة المصرية وخاصة فى الطبقات المتوسطة والغنية طوال قرون كثيرة وحتى الربع الاول من القرن العشرين ، وهى طائفة الاغوات او الطواشية أو الخصيان فقد كانت لهم صولةوسلطان، ليس على الجوارى والاماء وأبناء أصحابهم أو « أسيادهم» فحسب ، بل على ملاكهم أيضا ! ولقد نجم تحكمهم الشديد هذا من أنهم كانوا يمثلون — ولو نظريا — الحفاظ على أثمن ما يملكه الرجل الشرقى على الاطلاق وهو نساؤه! فهم الموكلونبباب الحريم • باب الحرم الاقدس • لقد شغلوا وظيفة جديدة فى المجتمعالعربى الذى أثرى فعرف الترف والدعة ••• وظيفة الامانة على العرض والشرف ، هذه التى كانت من أخص واجبات الرجل العربى يقوم بها بنفسه ولا يأتمن عليها أحدا • ولكن اتساع الفتوحات وكثرة المال والانغماس فى الملذات، جعل بيته لايقتصر علىواحدة، بل امتلأ بالحرائر والاماء وبالتالى اتسعت مسئوليته ، واضطر الى الاستعانة بمواهب الطواشى !

ويصور اسماعيل مظهر جوانب شتى من حياة هؤلاء الاغوات حتى ليمكن أن نعد الكتاب دراسة ممتازة مركزة عن هؤلاء الناس •• فهو يتناول اصلهم وبلادهم وأسلوب شرائهم وبيعهم ، وأخلاقهم ، وصفاتهم •• الخ • ولكن اكثر هذه الجوانب التى اهتم بها كاتبنا بالطبع ، هو عظيم تأثيرهم فى الواقع المصرى • ولا نجد ابلغ من هذا الحدث الذى أورده اسماعيل مظهر فى التعبير عن مدى تغلغل نفوذ هؤلاء الطواشية فى الحياة المصرية فى ذلك الحين ••

« أذكر أن خصيا منهم — وكان كبيرالخصيان — منع أمى من أن تخرج فى زيارة ضرب لها موعد من قبل ، لأنها رفعت عقيرتها بالنداء عليه • فسمع صوتها بعض الاغراب • وكان هذا عقابا لها وعبرة لغيرها • ليلزمن الصمت ،ولا يتكلمن الا همسا ، اذا أردن من حاجة يقضينها • وكم بكت امى وكم احتجت عند أبى وعند جدتى، كيف يحتكم فيها خصى أوكم جاهل مستوحش ؟ فلم يجد ذلك عنها شيئا، وضاعت عليها دموعها التىبذلتها غيظا وحنقا ، حتى لا يتناقل أهل البيوت انها خرجت على نظام الحريم، وعصفت بسلطة الاغا ، الموكل بالمحافظة عليه ، فترمى لذلك بفسوق أشبه ما يكون بفسوق امرأة العزيز اذ تراود فتاها• هذا على ما كان لامى من منزلة فذة ، فهى وحيدة أمها ، ووارثة البيت • وهى فوق ذلك أمى: أم الوارث الوحيد لتلك الاسرة التى كادت تنطمر فى ثرى قرافة الامام » •

ولا يسعنا فى هذا الموضع الا أن نشير بسرعة الى لون آخر من البشر كان يعيش فى القصر• ويقابل الصنف الاول • فاذا كان الاغوات يسودون عالم الرجال — والنساء طبعا ! — فهناك أيضا الجوارى فى دنيا المرأة ، اللائى تناولهن فناننا بنفس الدقة والبراعة فى صورة مكتملة ، شأن العارف بهن الملم بدقائق حياتهن •• ولنكتف بهاتين اللمستين الخاطفتين من وصفه لشعور وأثداء الجاريات الزنجيات ••

« فى شعورهن كثافة وخشونة تستعصى على المشط اذا كان من عظم او عاج ، ولا تسلس الا اذا كان من خشب البلوط أو السنديان •• » ، « •• وفى أثدائهن استطالة وارتخاء ، كأنما الأثداء ثريات سود ، تستقر فى مشاكى كساها الهباب » !

وقد حفلت (تباريح الشباب) باكثر من أسلوب فى سرد أحداث حياة صاحبها ، ولكن الاسلوب الغالب الذى اطمأن اليه اسماعيل مظهر فى عرضه هو أن يعكس حياة صباه من خلال الشخصيات المختلفة التى اثرت بشكل او بآخر فى تكوينه •• وهكذا تترى شخوص مسرحه •• امه • ابوه •• الشيخ سيد المقرئ وابنه الشيخ عفيفى • مراسينه الجارية الزنجية • جوهر كبير الخصيان • وأخيرا •• معشوق الجارية التركية التى كان بينها وبين مالكها الشاب اسماعيل مظهر قصة حب عنيفة كنت الخلفية الدائمة لجميع الاحداث ، والباعثالاول على اخراج هذه الاعترافات !

واذا كانت (تباريح الشباب) قد حملت اثرا او آثارا للكاتب والعالم اسماعيل مظهر ، فقد وضع الناقد الاجتماعى بصمته أيضا على هذهالترجمة الذاتية ، كما يعكس ذلك الكثير من فصول الكتاب ، فهو اذ يتحدث مثلا عن لهفة والدته على الانجاب التىترجع ضمن بواعثها الى ذهاب الموت بالكثير من أفراد الاسرة ، يلتفت الى ذلك الزمان الذى تفشت فيه الامراض وعز الدواء •• فقد كانت أكثر الادواء ، قاتلة ، وأكثر الدواء عقاقير مصدرها دكان العطار ، أو وريقات تطوىوتغلف بالجلد • فتكون تمائم منها ما يمنع المرض ، ومنها ما يذهب به اذا جاء، أما ماكان يصف أطباء ذلك العصر من دواء ، فلا يفضل كثيرا عقاقير العطارين أو تمائم المشعوذين » (ص ٢٣) •

ان (تباريح الشباب) بعد كل نواحيها الجمالية والفنية وما تضمنت من اعترافات وترجمة ذاتية لصاحبها ، وثيقة تسجيلية للعصر فاتت بقلم شاهد عيان •



أداموف يهجر مسرح العبث



يمثل حاليا مسرح جيرار فيليب بسان دينيس مسرحية للكاتب آرثر اداموف عنوانها «سياسة الفضلات» ومن المعروف ان هذا المؤلف بعد أن كان يكتب مثل يونسكو وبيكيت أعمالا اطلق عليها « مسرح العبث » Théâtre de l'Absurde ، أحس انه لم يكن يسير فى الطريق الذى يتفق مع موهبته من جهة ومع ما جرى عليه العرف فى عالم المسرح من جهة أخرى ، فاخذ يكتب مسرحيات وصفت بأنها « كلاسيكية » ، لانها لا تخرج من حيث الشكل على التقاليد التى سار عليها الكتاب فى الماضى ، وحاول آرثر آداموف أن يعالج فى مسرحياته كبرى القضايا الانسانية المعاصرة فتناول مثلا فى مسرحية « سياسة الفضلات » مشكلة اضطهاد البيض للسود فى بلد قد يكون الولايات المتحدة او جنوب افريقيا .

وقد يبدو للبعض ان مثل هذا المسرح السياسى ممل يعتمد على الوعظ والخطب الحماسية محروم من كل قوة درامية ، ولكن هذا حكم خاطىء ، فمن حق المؤلف أن يطرق اى موضوع يستهويه ، ولكن نجاح مسرحيته يتوقف على الاسلوب الفنى الذى تناول به هذا الموضوع، فيجب ان تتفق المسرحية مع طبيعة المسرح ومقتضيات الكتابة المسرحية ، ويجب الا يقع الكاتب فى الخطا الذى وقع فيه كثيرون من مؤلفى « مسرح الافكار » أو المسرح الذهنى الذين فرضوا أفكارهم على شخصيات المسرحية ، فاصبحت هذه الشخصيات تعبر عن معتقدات الكاتب لا عن معتقداتها هى ، وأصبحت كما قال أحد النقاد وهو بسخر (فى تحامل) من بيرانديللو « أفكار كاتب ظهرت امامنا وقد ارتدت قبعات » ويعنى بذلك انها ليست حية نابضة وعلى جانب كبير من العمق النفسانى تؤثر فى الصراع وتتأثر به .

والحق يقال ان مسرحية آرثر اداموف شيقة جذابة مليئة بالحيوية ، وهى تسخر من انصار العنصرية الذين لا يعلمون أن فى هذه العنصرية خطرا عليهم كما انفيها خطرا على الملونين ، ويتلخص موضوعها فى ان شخصا مصابا بمرض عقلى يقتل رجلا اسود ، ولما كان القاتل من البيض فالمحكمة تلتمس له العذر ، وتبرر هذه الجريمة الشنعاء ، وتستعد لتبرئته ، ولكن لسوء حظ المتهم اذا به يهذى بجملة تنم على انه يكره البيض كما يكره السود ، وعندئذ تتغير الاوضاع ، وتحكم المحكمة عليه بالاعدام !

ولقد نشرت مجلة Les Nouvelles Littéraires فى عددها الصادر فى الاسبوع الاول من شهر نوفمبر نقدا للمسرحية كتبه كلود اوليفييه ، الذى عبر عن امتنانه لمسرح جيرار فيليب لانه أخرج هذه المسرحية بعد ان كانت حبيسة فى صفحات الكتب فقال :

« أليس من العجيب أن تظل هذه المسرحية منذ أربع أو خمس سنوات بدون أن يهتم بها احد فى فرنسا ؟ كثيرا ما نسمع ترديد هذه النغمة : ليس فى فرنسا مسرحيات ولا مؤلفون ، فياله من جهل أعمى الابصار ، لقد رأى الكثيرون فى الخمسينيات فى آرثر

اداموف واحدا من اهم كتاب المسرح ، ومنذ ذلك التاريخ ومسرحياته تمثل فى مختلف بقاع العالم ، وتخصص لمسرحه فى مختلف البلاد دراسات ضافية ، ولكن مديرى المسرح فى فرنسا عنه غافلون ، أو لعلهم عنه يتغافلون» والواقع ان اداموف لم يختر الطريق الذى كان جديرا بجذبهم ، فهم لا يغفرون له انه ترك مسرح « العبث » و « الطليعة » ليدخل ما سماه احد الزملاء « بعالم المسرح السياسى الكئيب » .

ويبدو أن الآراء اتفقت على أن هذا المسرح كئيب يبعث على الضجر ، بل وعلى ان هـذا المسرح ليس من المسرح فى شىء ، فياله من خطل ! ولكن لنضرب صفحا عن هذه النغمة المألوفة التى يبررها عـدم نجاح بعض المسرحيات التى تنتمى الى المسرح السياسى ، غير أنه قد يكون من الانصاف ان نغفر لهذا المسرح كبوات نغفرها عادة للمسرحيات غير السياسية .

ان مسرحيـة اداموف ، رغم انها سياسية ، فهى ليست كئيبة ، بل على العكس ، نجد فيها أصالة أكيدة وتجديدا فى طـريقة الكاتب تبشر بان الميـادين التى يطرقها ستزداد اتساعا فى المستقبل ، وانا سنشـهد موهبته وقد بلغت ذروتها ، وهى موهبة تجلت بشـكل مبهر فى مسرحية Paolo Paoli التى لا تزال فى نظرى واحدة من اهم ما انتجه المسرح المعاصر (وحتى متى ننتظر ان تمثل هـذه المسرحية فى احد المسارح الكبرى ؟

ومن المعـروف ان مسرحية سـياسة الفضلات La Politique des restes عبارة عن محاكمة، تدور فى بلد لعله جنوب افريقيا ولعله الولايات المتحدة، ولعله البلدان معا ، انه بلد لا يختلف عن البلاد الاخرى التى تسود فيها العنصرية ، ويضطهد فيها البيض السود ويقتلونهم .

والقضاة يحاكمـون جون براون لانه قتل رجلا أسود ، وطبعـا لا ترمى هذه المحاكمة الى الكشف عن الحقيقة ، فهى معلومة للجميع والمتهم يصرح بها علانية، انه قتـل ولكن الجميـع يلتمسون له بالطبع مختلف الأعذار ، غير أن جـونى مريض ، انه مصـاب بذهان (مرض عقل) ، ومرضـه يخيل له ان العـالم قد امتلأ بمختلف النفايات والقاذورات وأعقاب السجاير وتذاكر السفر القديمة ... ، وهو يعتقد ان كل هذه الفضلات قد وضعت عمدا فى طريقه وانه يتحتم عليه ان ياكلها ، ولقد اراد اخوه وزوجة اخيه ان يتخلصا منه فاقنعـاه بان السود هم الذين يضعون بانفسهم هـذه الفضـلات فى طريقه .

ويسترسل كاتب المقال فى عرض المسرحية ، فيقول ان جونى اختلط عليه الأمر ؛ فاصبح يعتقد ان السود هم الفضلات والنفايا ، ثم جعل يتصور ان هذه النفايا تشمل السـود ومن يقتلهم من البيض ، وفى أثناء المحاكمة ، ينطق المتهم بجملة تؤدى به الى الهلاك عندما يقول انه يجب ان يلقى برجل ابيض الى النهر !

ويختم كاتب المقال كلمته قائلا :

« لقد وضح اداموف انه حاول اساسا ان يكشف عن العلاقات بين الذهان الفردى والجماعى ، ولقد وفق فى ذلك عندما قام بدراسة دقيقة لنفسية جونى المريضة

وعندما ادخل على المحاكمة مشاهد اماطت اللثام عن طبيعة القوم الذى كان المتهم يعيش بينهم » .

ثم عبر الناقد عن اسفه لان ارثر اداموف صـاغ المسرحية فى فصل واحـد ، فلم تستوف دراسـة هذا الموضوع الغنى بالامكانيات ، ولم يعبر بشكل ضاف عن افكار اضطر الى الاشارة اليها باختصار ، فمن رايه ان المسرحية لو كتبت فى اكثر من فصل لجاءت افضل من ناحية الشكل ، اذ ان ذلك كان كفيلا بتوزيع المشـاهد التى تدور فى المحكمة والمشاهد التى تدور خارجها بشكل افضل .

مذكرات جوليان جرين

سيصدر عما قريب الجزء الثانى من مذكرات الكاتب الكاثوليكى جوليان جرين Julien Green ، ومن المعروف ان الجزء الاول من هذه المذكرات ظهـر عام ١٩٥٨ .

وتثير كتابة المذكرات فى الأذهان السؤال التالى : الى اى مدى كان الكاتب صريحا فى التعبير عن مشاعره وافكاره ؟ فمن المعروف أن بعض الكتاب من أمثال أندريه جيد ومن قبله روسو وشاتوبريان كانوا يحررون مذكرات أو يدلون باعترافات يدعون أنها خلو من كل بهـرج ، بعيـدة عن كل تكليف أو تانق ، مطـابقة لاحساسهم وخلجات نفوسهم ، ولكن القارىء يحس دائما ان هـذه المذكرات أو الخطابات التى تبادلها الكاتب مع صديق له أو اديب آخر والتى يدعى أحيانا أنهـا لم تكن مخصصة للنشر كتبت لتنشر ، ينم عن ذلك جمال الاسلوب وسحر البيان ، ولهذا قد ياسف القارىء لان « الصناعة » وان كانت قد اضفت على هـذه المذكرات والمراسـلات ثوبا قشيبا ، الا أنها حرمتها من اهم مميزاتها ، ونعنى بذلك الصراحة والامانة ...

وبمناسبة صدور مذكرات جوليان جرين ، أدلى هذا المؤلف الى « بيير مازار » بحديث ، نشرته جـريدة Le Figaro Littéraire فى عددها الصادر فى ٥ نوفمبر ، شرح فيه نظرته الى كتابة المذكرات قائلا : «ان المذكرات نوع من الراحة بعد العمل ، وأنا أدونها بشكل تلقائى ولم يخطر لى يوما ان افكر فى قراء المسـتقبل ، ان المذكرات تتعارض مع العمل ، اذ انى أدون افكارا

استوحيها من المحادثات : من الجانب الانسانى للحياة ، ومن علاقاتى مع غيرى من البشر ، وهذا شىء شيق جدا، وقد يحدث ان تمر الأسابيع دون أن أدون سطرا واحدا، ولكنى على كل حال أكتب فى المتوسط صفحة كل يوم منذ أربعين عاما .

غير أن الكاتب يعترف بعد ذلك أنه حذف بعض النصوص من مذكراته اذ « من العسير أن تمر تسعة أعوام على كتابة هذه المذكرات دون أن يقع المرء فى التكرار بشكل أو بآخر ، ورغم ان هذا التكرار له مغزاه الا أنه يجعل القراءة عسيرة » .

هذا وقد نشرت جريدة الفيجارو الأدبية مقتطفات من هذه المذكرات جديرة بكل اهتمام نجتزىء منها النص التالى :

« ١٨ أكتوبر: استقبلت اليوم صديقا لماسينيون(١) الذى سأله البعض : هل تؤمن بالله ؟ .. فاجاب «أحيانا، وأسعدنى أن أتحدث معه ، ولقد ذكر لى كلمة لهمنجواى، الذى سأله البعض : هل تؤمن بالله ؟ فاجاب : احيانا ، أثناء الليل» لقد حسب البعض ان هذه العبارة نزوة من نزوات همنجواى ولكنها فى الحقيقة رد جميل نزيه ، فهى رد على القلق الانسانى ..

من الوجودية الى بريد القلوب

ماذا يحدث للاديب عندما يهرم ثم يعجز عن البناء ، ماذا يحدث للطبيب عندما يتفنن فى تشخيص أعراض مرض ما ولكنه يقصر عن اعطاء الدواء ؟ لقد برع سارتر وصاحبته سيمون دى بوفوار فى وصف مأساة الانسان الحديث، وناديا كما نادى غيرهم من الوجوديناللادينيين بان الأديان لم تعد كافية لانقاذ الانسان من القلق فى عالم اليوم ، عالم اللامعقول ، ووصف سارتر مأساة الانسان الحديث فى مجموعة رواياته التى أطلق عليها اسم « طرق الحرية » ولكن السنين تتوالى ونحن ننتظر منه الجواب على هذا السؤال : ما هى طرق الحرية التى بشرنا بها والتى سيجد فيها ابن القرن العشرين بديلا عن الاديان والمعتقدات التى كانت ترسم لأجداده طريقهم فى الحياة ؟

لقد حاول البير كامو ان يرد على ذلك ناصحا بان يعمل الانسان دون أن ينتظر جزاء على عمله فى الدنيا او الآخرة ، وهكذا راى عظمة الانسان فى أن يعمل ليعطى معنى لحياته ، فى ان يكون ، قديسا بلا ايمان، - ان جاز هذا التعبير - ولكن هذا الحل لم يلق اعجابا كبيرا ، أما سارتر فقد انصرف الى الصحافة والسياسة، وانقطع انتاجه الادبى فظلت طرق الحرية غير كاملة .

وقد نشرت مجلة « الفيجارو » الادبية فى عددها المذكور مقالا بقلم برنار بيفو ، سخر فيه من سارتر ، ذلك الفيلسوف الذى بلغ به الامر ان أدلى بحديث الى مجلة Play-Boy التى تعتمد على الاثارة الجنسية الرخيصة ، كما غمر « برنار بيفو » بسخريته سيمون دى بوفوار التى انتهى بها الامر هى الاخرى الى نشر رواية مسلسلة عنوانها « المرأة المحطمة » فى مجلة Elle التى يقرؤها أنصاف المثقفات ، وتقول سيمون دى بوفوار انها تعالج فى هذه القصة « ما يدور فى رأس امرأة وفى قلبها وما يحدث فى حياتها عندما يخدعها الرجل الذى تحبه وتثق فيه » .. وهكذا أصبحت سيمون دى بوفوار من أكبر المتخصصات فى « بريد القلوب » ، فرواية « المرأة المحطمة » تحفة من تحف بريد القلوب أو كما يقول برنار بيفو تجمع كل العناصر التى تجذب أنصاف المثقفات والنساء الوحيدات :

« ويتضح ذلك أولا منموضوع الرواية وهو «الزنا» وهو موضوع ذو طابع عام ، وأما الرواية فهى تدور على لسان امرأة معذبة ، وهذا شىء عظيم . فكل النساء معذبات ، وهى يتعذبن بسبب رجل متقلب طائش ! أحسنت صنعا أيتها المؤلفة ، فالرجال كلهم متشابهون ! وطبعا الزوج طبيب . نعم طبيب لأن هذا شىء أساسى ! ففى كل الروايات المصورة تجد دائما أطباء وجراحين وممرضات وعيادات ، والطبيب فى رواية «المرأة المحطمة» عالم يقوم بابحاث عن سرطان الدم ، ياللعبقرية ! لعله سيكتشف فى نهاية الرواية وسيلة للتخلص من هذا الداء الرهيب !

ولقد كانت الكاتبة موفقة فى اختيار العبارات مثل « وحدة الاثنين » ، « انى أريدك ولكنك لست هنا » ! « لو خدعتنى فلن يدعو الامر الى ان أنتحر ، اذ أنى سأموت حزنا » ، ... « لقد كذب على » ، « نعم ، هناك امرأة فى حياتى » ، « لقد نصحتنى بالصبر » ، فان لم يكف هذا لاقناع القارئات بقيمة هذه الوثيقة الانسانية ، فينبغى ان نقول لهن ان الجزء الأول منهذه

وفى الحلقة التالية من الرواية تناولت الكاتبة الرواية وصف طريقة طهى دجاجة بالجمبرى ! كما أشارت الكاتبة مرتين الى العقاقير المنومة ، والى البائعة التى تعرض البضاعة » والمشرفة الاجتماعية وبريد القلوب ! يمكن شرب النبيذ الاحمر مع السمك ؟ » ، ثم هذا الاكتشاف العظيم « النوم ليس فقط النوم » ، وهكذا تمضى الرواية .

وأبدى الناقد أسفه فى نهاية مقاله لأن الرواية لم ذراعيها ، وسوق « الكانتو » ، والتجاعيد ، و « هل تتضمن باب « بختك هذا الاسبوع » !

---

(١) لا يحتاج المستشرق والمفكر الدينى massignon الى تعريف ، خاصة وأنه كان عضوا فى مجمع اللغة العربية .



يوميات كاتب

بعد تجارب عديدة مريرة مع صحافتنا ، بدات أضيق بأساليبها الملتوية ، فاستسلمت للوظيفة الحكومية أكسب منها معاشى ، وأداعب الأمل القديم بين الحين والآخر ، فأكتب قصة أو مقالا أرسله الى احدى الصحف أو المجلات .. وألفت وقتذاك أن تنشر لى المجلة مرتين أو ثلاثة ، فأكتب لها خطابا رقيقا أشير فيه من طرف خفى الى أنى أتوقع أجرا نظير ما اكتبه ، فلا ترد المجلة ولا تنشر لى بعد ذلك ..

ونصحنى صديق صحفى بأن أكتب الى حلمى سلام ، وكان وقتئذ رئيسا لتحرير مجلة « التحرير » ، ففعلت ، واذا بالمقال الذى أرسلته اليه بالبريد ينشر فى العدد التالى من المجلة ، ولكن بدون توقيع .. وتتابعت المقالات ، وتتابع النشر بدون توقيع .. وكان نشر التوقيع هو العزاء الوحيد الذى كنت أفوز به فى تجاربى الصحفية السابقة .. أما أن تنشر المقالات بلا أجر وبلا توقيع ايضا ، فهذا أسلوب جديد يفوق كل ما ألفته من أساليب صاحبة الجلالة من قبل ، ولذلك فقد قررت أن أسافر الى القاهرة لأقابل حلمى سلام ، وأتبين منه جلية الأمر ، فاذا به يفاجئنى بأنه قدر أجرا لكل مانشره لى ، وأنه تعمد عدم نشر الاسم لأنه يعتقد أن النجاح السريع يفسد الكاتب الناشىء ويضره أكثر مما ينفعه ، وروى لى كيف ظل سنوات طويلة ينشر دون توقيع ، وكيف أفاده ذلك فى اتقان فنه والتفوق فيه ..

وكان هذا أول درس تلقيته منه فى فن الصحافة .. وعدت الى الاسكندرية مطمئنا وقد أيقنت أنى أخيرا وضعت قدمى على أول طريق جديد أمين مختلف تماما عن كل الطرق الصحفية التى سلكتها من قبل .

وبعد ذلك بعدة سنوات تولى حلمى سلام رئاسه تحرير مجلة « الاذاعة » ، ونجح فى أن يحولها من نشرة للبرامج الى مجلة سياسية وثقافية من الطراز الأول . وكنت أشارك فيها ببعض المواد الصحفية والمترجمة ، ولم أجرؤ على الكتابة فى النقد الأدبى فى مجلة كان ينشر فيها بانتظام كل من فتحى رضوان وحسين فوزى ويحيى حقى ومحمد مندور ويحرر باب الادب الدكتور على الراعى .. غير انه حدث ان صدر كتاب عن جوركى لأديب معروف ، فأشاد الدكتور الراعى بمنهج الكتاب وشاعرية اسلوبه ، فى الوقت الذى كنت أعلم أن الكتاب عبارة عن ترجمة غير أمينة لأصل انجليزى ، فكتبت مقالا هادئا أعلن فيه هذه الحقيقة ، وكان أول مقال نقدى ينشر لى ، وقد أحدث صدى طيبا ، خاصة وقد اندفع المؤلف يرد بعنف ، فعقبت على رده .. ولم يغب أثر هذه المعركة الصغيرة عن عين حلمى

سلام الصحفى الخبير ، فلم يكد الدكتور على الراعى ينتقل الى الاشراف على القسم الأدبى فى جريدة « المساء » ، حتى عهد الى بتحرير باب النقد الأدبى فى مجلة «الاذاعة» .. فوضعنى بذلك على اول طريق شاق طويل ، مازلت الى اليوم أسعى بجد على دروبه الفسيحة المتشعبة ..

ولا أريد لذكرياتى مع حلمى سلام وأثره الواضح فى توجيه دفة حياتى أن تصرفنى عن الحديث عن كتابه الاخير « يوميات كاتب » الذى صدر فى الشهر الماضى عن « دار الكاتب العربى » .. ولكن هل ترانى بعدت حقا عن الكتاب ؟ .. ان الكتاب الصادق ليس الا بضعة من نفس كاتبه ، وتزداد هذه الصلة بين الكتاب ومؤلفه حين يكون من طراز الكتاب الذى نتحدث عنه ، يضم يوميات الكاتب وخواطره وتأملاته فى الحياة والناس والمراة .. والحب .. والسياسة والثقافة .. وغير ذلك من الموضوعات الهامة الخطيرة ، والبسيطة الأليفة التى نعيشها جميعا كل يوم .. وما سجلته من ذكرياتى فى مستهل الحديث ليس فى حقيقة الامر سوى يومية من يوميات حلمى سلام ، لم يكتبها بعد ، رغم ثقتى انه عاشها مرات عديدة بصور مختلفة مع كثير من شباب ادبائنا وكتابنا الصحفيين .

ويضم القسم الاول من الكتاب عدة يوميات يضىء كل منها جانبا من جوانب شخصية الكاتب وتكوينه النفسى ، ففى اليومية الاولى ـ « الشمس تشرق دائما » ـ نتعرف على مدى تفاؤله وايمانه الدائم بالغد المشرق رغم كل السحب والغيوم التى قد تملأ السماء .. فهى لابد منقشعة لتشرق الشمس من جديد .. ومن اليومية الثانية ـ « فى حضن البساطة » ـ نعرف حبه الشديد للبساطة وكراهيته لمظاهر المدنية الزائفة والعلاقات الاجتماعية الصاخبة ، ويروى لنا فى الثالثة ـ « لقاء .. مع الموت » تفاصيل تجربة اليمة كادت تودى بحياته لولا رحمة الله التى أنقذته فى اللحظات الأخيرة .. ويخرج من عرض هذه التجربة ليقول:

« ما أعجب الانسان ! .. انه كثيرا ما تمر به أوقات يرى فيها الحياة وقد صارت شيئا سخيفا .. شيئا أسخف من أن نعيشه .. فيتمنى الموت لينقذه من هذا العبء الثقيل الذى لم يعد له فى نظره لون .. ولا طعم .. ولا رائحة !!

وحين يجيئه الموت ، ويحلق ـ ولو على سبيل التهديد ـ فوق رأسه ، اذا بهذا الانسان .. نفس الانسان الذى كان يرى الحياة وقد صارت شيئا أسخف من أن يعيشه .. يتحول الى انسان آخر .. انسان أشد ما يكون تعلقا بالحياة .. وحرصا عليها .. وفناء فيها .. »

وهذا الحرص على استخلاص العظة والعبرة من كل تجربة يمر بها الكاتب ، هو الطابع الغالب على هذه اليوميات ، يستوى فى ذلك أن تكون تجارب مباشرة معاشة كما فى القسمين الاول والثالث من الكتاب ، أو تجارب غير مباشرة تمرس بها الكاتب عن طريق القراءة المتأملة المتأنية كما فى غالبية القسمين الثانى والرابع من الكتاب ..

ولقد وضع حلمى سلام فى صدر كتابه هذه العبارة : « عندما يكون الانسان شريفا فانه لن يضيع ابدا .. سيجد نفسه ، دائما ، على الطريق السليم . » ولا اعرف عبارة يمكن أن تلخص فكر كاتبها ومبادئه فى الحياة وفى العمل كهذه العبارة البسيطة التى مازالت الى اليوم مع الأسف الشديد تحمل المؤمنين بها الكثيرة من العنت والعناء .

فؤاد دواره